آراء وأحاديث
في التاريخ والاجتماع



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الأعمال القومية لساطع الحصري: (٦)

آراء وأحاديث في التاريخ والإجتماع

ابو خلدون ساطع الحصري

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص. ب. : ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

طبعة خاصة(*)
الطبعة الاولى: بيروت: شباط/ فبراير ١٩٨٥
الطبعة الثانية: بيروت: حزيران/ يونيو ١٩٨٥

(*) نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٥١.

المحتويـــات

بين القديم والجديد

القديم والجديد

إن المفاضلة بين القديم والجديد ، وبتعبير أدق : الموازنة بين روح المحافظة ونزعة التجديد ، من أهم الأمور التي شغلت أذهان رجال الفكر والعمل في جميع أنحاء العالم المتمدن ، في مختلف أدوار التاريخ.

فإننا إذا لاحظنا سلوك الناس تجاه مسألة « القديم والجديد » وجدنا أن بعضهم يكره القديم ، ويحب الجديد ، ويدعو إلى التجديد ، في حين أن بعضهم بعكس ذلك يتمسك بالقديم ، وينفر من الجديد ، ويدعو إلى ابقاء ما كان على ما كان.

ويغالي بعض المجددين في نزعتهم التجديدية مغالاة شديدة : فيستنكرون كل ما هو قديم استنكاراً مطلقاً ، ويدعون إلى « قطيعة الماضي » قطيعة تامة .

كما يغالي بعض المحافظين في حب القديم مغالاة شديدة : فإنهم لا يكتفون بالتحذير من الجديد ، وبالدعوة إلى إبقاء ما كان على ما كان، بل يقولون ـ علاوة عن ذلك ـ بوجوب العودة إلى الماضي ، ويدعون إلى إحياء القديم المهجور أيضاً.

وإذا تتبعنا تواريخ الأمم ، وجدنا أن في بعض الأدوار من التاريخ ، تتغلب «روح المحافظة على نزعة التجديد » : فيكتسب القديم شيئاً من القداسة ، ويصبح التجديد نوعاً من الكفر . ولا يكتفي الناس في تلك الأدوار باستهجان الحركات التجديدية ، بل إنهم يقاومونها بكل ما لديهم من قوة ، ويوصلون الأمر أحياناً إلى درجة اعتبارها من الجرائم التي تستوجب العقاب الصارم . ولهذا يطلبون معاقبة كل من يقدم عليها ، أو يدعو إليها ، أو يقول بها. في حين أننا نجد في بعض الأدوار من

التاريخ ، تتغلب نزعة التجديد على روح المحافظة : عندئذ يفقد القديم كل ما كان له من اعتبار ، بل يصبح مكروهاً ومنفوراً منه ، وتعتبر روح المحافظة من الأمور الشائنة التي تسيء إلى سمعة الإنسان ، ويتهم كل من يتوجه إلى القديم بالرجعية والتأخر والانحطاط.

غير أننا نستطيع أن نقول ، ان هاتين النزعتين كثيراً ما تعيشان جنباً إلى جنب ، وقلما تزول إحداهما من النفوس زوالاً تاماً في دور من أدوار التاريخ في حياة أمة من الأمم . إنما الغلبة تكون للنزعة الأولى في بعض الظروف ، وللنزعة الثانية في بعض الظروف الأخرى.

وتظهر آثار هاتين النزعتين المتخالفتين ، في شتى شؤون الحياة الاجتماعية : من مختلف نواحي الحياة الفكرية إلى شتى مظاهر الحياة الدينية والسياسية والعائلية ، ومن مختلف أساليب الفكر والحس ، إلى شتى ميادين الصناعة ، والزراعة ، والطب ، والعلوم والآداب والفلسفة . . . كل شيء قد ينال حظاً من روح المحافظة أو من نزعة التجديد.

ومما يجب الانتباه إليه في هذا الصدد أن غلبة إحدى هاتين النزعتين على الأخرى ، لا تتم في جميع الميادين مرة واحدة وعلى حد سواء ، بل كثيراً ما يحدث أن نزعة التجديد تتغلب على روح المحافظة في بعض الميادين في حين أن روح المحافظة تبقى السائدة عليها في الميادين الأخرى.

مثلاً ، من المعلوم أن الانكليز من أشد الأمم محافظة للتقاليد القديمة في الأمور الشكلية ، ولكنهم من أكثر الأمم اندفاعاً نحو التجديد في الحياة الاقتصادية . في حين أن أكثر الأمم الشرقية ـ بعكس ذلك ـ تسترسل في تقليد مظاهر الحياة الغربية ، ولكنها تبقى بعيدة عن مسايرة روح العصر في طراز التفكير والعمل ، وفي سائر نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ومن المعلوم أن روح المحافظة في أوروبا كانت وصلت إلى أوج قوتها في القرون الوسطى ، حيث كان كل شيء تقريباً استقر على شكل معين ، لم يتبدل منذ عدة أجيال ؛ حتى الأعمال الزراعية والصناعية ، كانت قد تقررت على قواعد ثابتة ، لا يسوغ لأحد أن يخالفها أو أن يغير شيئاً منها ، وحتى التفكير كان أخذ يسير سيراً رتيباً ، لا مجال فيه لأدنى تغيير وتجديد . وقد أحيطت الكتب القديمة بأجمعها بهالة من التمجيد والتقديس ، واعتبرت الكتب المذكورة المصدر الأصلي لكل علم ، والمرجع الأول والأخير لكل قضية ؛ وصار الدرس والبحث والتفكير لا يعني شيئاً غير فهم الكتب

القديمة ، والاستنباط من الكتب القديمة ، والبحث في الكتب القديمة ، وشرح معاني الكتب القديمة ، وتفسير عبارات الكتب القديمة.

ولكن الأمور تغيرت منذ تلك العصور تغيراً كلياً، وقد فقدت روح المحافظة قوتها شيئاً فشيئاً ، وأخذت نزعة التجديد تتغلغل في النفوس ، وتتصل بشتى نواحي الحياة تدريجياً، إلى أن صارت تشمل جميع مظاهر الحياة تقريباً.

والآن ، قد وصل العالم المتمدن إلى دور أصبحت فيه نزعة التجديد مسيطرة على جميع مظاهر الحياة. وصارت كل الأمور تتطور بصورة مستمرة وبسرعة هائلة ، لم يسجل التاريخ لها مثيلاً في حياة أية أمة من الأمم ، وفي أي دور من أدوار الماضي القريب والبعيد . أصبح كل شيء يتجدد ويتطور بسرعة هائلة ، تجعل هذه الأطوار شبيهة بالانقلابات الثورية التي تجرف كل شيء فلا تترك شيئاً من الأشياء على حالته القديمة.

وأما نحن فقد بقينا محافظين على معظم أحوالنا القديمة ، ولم نساير هذا التطور السريع الذي أخذ يجرف العالم جرفاً . ولا نغالي إذا قلنا أننا وقفنا أمام هذه السيول الجارفة حائرين ، مترددين ومتخالفين :

ففريق منا يدعو إلى الإسراع في التجديد دون قيد وشرط ، حتى أنه يقول بوجوب نبذ كل ما هو قديم بدون استثناء. وفريق يعتقد بافلاس الحضارة الغربية ، ويدعو إلى الاحتفاظ بتراث الشرق ، وعدم التفريط به « في سبيل هذه الحضارة المزيفة ». وفريق يقف موقفاً بين بين ، ويحاول أن يعين الأمور التي يجب التجديد فيها والأمور التي يجب سلوك مسلك المحافظة في شأنها.

فماذا يجب أن يكون موقفنا من هذه القضايا ؟ ماذا يجب أن يكون موقف الجيل الجديد في البلاد العربية من قضايا « القديم والجديد » ومن سياسة « المحافظة والتجديد » ؟

- ٢ -

إن أولى الحقائق التي يتوصل إليها الباحث عندما ينعم النظر في قضية « القديم والحديث » ، هو : أنهما عنصران هامان من عناصر الحياة. وهما متلازمان وضروريان لبقاء الحياة الجسمانية والنفسية والاجتماعية بوجه عام .

فلننظر أولاً في تأثير كل من القديم والحديث في الحياة الجسمانية :

من المعلوم أن أهم الأوصاف التي تميز الأحياء عن الجمادات هي صفة « التجديد المستمر ».

فإن الخلايا التي تؤلف البدن ـ في جميع الكائنات الحية ـ تتغير وتتجدد على الدوام ، كما أن المواد التي تتركب منها كل واحدة من هذه الخلايا أيضاً تتغير وتتجدد بدون انقطاع.

ولا حاجة إلى القول أن مفهوم « التجديد » ، يفيد « حدوث شيء جديد » من حيث الأساس ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه « بقاء شيء قديم » أيضاً . لأن « التجديد » يختلف عن « التغير المطلق » ، ويعني « تغير العناصر المكونة » مع بقاء الهيئة الأصلية واستمرار البناء القديم .

فنستطيع أن نقول ـ لذلك ـ أن « القديم والحديث » عنصران لا ينفصلان في « الحياة الجسمانية » .

افرضوا أن عضوية من العضويات أخذت تتغير في موادها المركبة ، دون أن تحتفظ بهيأتها الأصلية وبنائها القديم . وتصوروا ماذا سيكون مصير تلك العضوية : لا شك في أن هذا المصير ، لن يكون سوى فقدان الحياة ، والانحلال والفناء .

وافرضوا ـ بعكس ذلك ـ أن عضوية من العضويات حرمت بغتة من حركة التجدد والتغير ، وحافظت ـ في الوقت نفسه ـ على هيئتها الأصلية وبنائها القديم ، وتصوروا ماذا سيكون مآل تلك العضوية : لا شك في أنها ستتحول إلى مومياء فقدت الحياة ، ودخلت في عداد الجمادات والمستحاثات .

يظهر من ذلك ، أن لكل من القديم والحديث مهمة خاصة في الحياة.

ونستطيع أن نقول ، إن الحياة تقوم على نوع من التوازن بين القديم والحديث ، وهي تعني : قيام عناصر جديدة مقام العناصر القديمة ، مع بقاء الهيأة الأصلية والبناء القديم .

ومما يلفت النظر : أن النسبة بين القديم والحديث ، لا تبقى على وتيرة واحدة في جميع أعضاء البدن وفي جميع أدوار الحياة .

فإن سن الشباب ، هو الدور الذي تبلغ فيه حركة التجدد أقصى سرعتها وأوج نشاطها . وأما سن الشيخوخة ، فهو الدور الذي تخف وتتضاءل فيه حركة التجديد ، وتزداد خلاله في البدن المواد القديمة التي تبقى خارجة عن نطاق هذه الحركة.

كما أن هذه الحركة تخف وتتضاءل في بعض أعضاء البدن قبل غيرها ، والمواد

التي تبقى خارجة عن تيار التجديد ، تتراكم في تلك الأعضاء أكثر مما تتراكم في غيرها .

والشيخوخة إنما تتأتى من تراكم هذه الرواسب الجامدة ، وتضاؤل حركات التجديد في مختلف أعضاء البدن .

ويظهر من كل ذلك : أن الحياة الجسمانية ، تقوم على عنصر التجديد والمحافظة في وقت واحد . ولكنها تتمثل في عنصر التجديد أكثر مما تتمثل في عنصر المحافظة بوجه عام .

إن ما قلناه آنفاً عن الحياة المادية ـ الحياة الجسمانية ـ ينطبق على الحياة النفسية أيضاً :

فإن الحياة النفسية أيضاً مزيج من القديم والحديث ، لا القديم يكفي لها ، ولا الحديث يغني عن القديم فيها . بل إن كليهما ضروري للحياة النفسية ضرورة قاطعة .

افرضوا أن شخصاً من الأشخاص البشرية ، تجرد عن كل ما هو قديم ، وفقد كل ما كان له من العناصر التي تمتّ بصلة إلى الماضي ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة . لا شك في أنه سيفقد الادراك والفهم والتفكير مرة واحدة . لأن الادراك لا يتم إلا بتلاحق الاحساسات الجديدة مع القديمة ، والفهم لا يتيسر إلا بادخال المفهوم الجديد بين المعلومات القديمة والتفكير لا يقوم الا على اساس الانتقال من المعلوم إلى المجهول ، وذلك لا يتم إلا بتنظيم المعلومات السابقة على أشكال جديدة ، وتحليلها وتركيبها على أنماط وصور مختلفة ، كلها حديثة . إن الحرمان من الذكريات القديمة ، لا بد من أن يؤدي إلى الحرمان من كل هذه الصفات العقلية ، ولا بد من أن يستوجب توقف وانقطاع جميع هذه الأفاعيل النفسية .

وافرضوا ـ بعكس ذلك ـ أن شخصاً من الأشخاص انقطع بغتة عن كل جديد ، وأصبح لا يملك في ذهنه غير ذكريات قديمة ، حتى أنه فقد قابلية تركيب هذه الذكريات بأشكال جديدة ، وتصوروا ماذا ستكون حياته النفسية في هذه الحالة ، لا شك في أن هذه الحياة ستتلاشى حالاً ، فلن يعمل الشخص إلا ما كان تهيأ له قبلاً ، مثل المكائن الأوطوماطية التي لا تعرف شيئاً من الجديد أبداً .

يظهر من ذلك : أن لكل من القديم والجديد مهمة خاصة ودوراً خاصاً في الحياة النفسية ، وهذه الحياة لا يمكن أن تدوم وتترعرع دون أن تستند إلى كليهما في وقت واحد .

ونستطيع أن نقول بكل تأكيد : أن حوادث الماضي وأفاعيله ، لو لم تترك أثراً في النفس ، لما استطاع الإنسان أن يرتقي إلى مرتبة « العقل العالي » التي وصل إليها ، ولبقي محروماً من قابليات الحكم والفهم والتفكير والابداع حرماناً مطلقاً.

إن القديم هو الذي يفسح المجال لقيام الحديث ، والمكتسبات الماضية هي التي تمكن الذهن والخيال من الابداع والاختراع ، كما أن الجديد هو الذي ينفخ الحياة في القديم ، ويورثه القوة والفاعلية . وروح التجديد ، هي التي تبني من « الأشياء القديمة » المباني الجديدة ، وتُكسب تلك الأشياء الفائدة والقيمة.

القديم وحده جمود وموت ، والحديث وحده عجز وحرمان ، وأما الحياة النفسية الواعية ، فما هي إلا نتيجة التمازج والتفاعل بين القديم والحديث .

- ٣ -

إن الحياة الاجتماعية ، لا تخلو من الشبه بالحياة النفسية بهذا الاعتبار. فإن هذه الحياة أيضاً تقوم على تمازج القديم مع الحديث وتفاعله على الدوام . لأن الروابط الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض - من اللغة إلى التقاليد والعادات وسائر المؤسسات المادية والمعنوية - كلها من بقايا الماضي ، ومن مواريث الأجيال القديمة.

إن كل جيل من الأجيال المتتالية ، في المجتمعات البشرية ، يرث من الأجيال التي سبقته مجموعة كبيرة من العنعنات والمعلومات والخبرات ، والمهارات ، ثم يضيف إليها ما يستطيع اضافته بجهوده الجديدة ، وفي الأخير ، يوصلها - مع هذه الاضافات - إلى الجيل الذي يأتي بعده . إن الحضارة البشرية لا تقوم ولا تتقدم إلا على هذا الأساس ، وعلى هذه الوتيرة . فلو لم يرث الجيل الجديد ، تلك الثروة المادية والمعنوية القديمة المتراكمة ، لما استطاع أن يعيش عيشة تختلف عن عيشة الوحوش والبهائم . ولكن لو اكتفى الجيل الجديد ، بما توارثه عن أجداده ، دون أن يكيفها حسب ما تقتضيه الظروف الجديدة ، ودون أن يضيف اليها شيئاً جديداً ، لتوقف المجتمع عن التقدم ، فجمد في مكانه ، ولأصبحت حضارته جامدة متحجرة ، لا تأخذ أي حظ من التطور المبدع ، فلا تستطيع أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام.

هذا ما حدث وما يحدث في الأقوام البدائية ، التي تعيش على هامش الحضارة عيشة ميكانيكية ، لا تبديل فيها ولا تجديد.

ولا حاجة إلى القول أن أمثال هذه الأقوام تتعرض إلى الفناء والاضمحلال ،

عندما تصطدم بجماعات جديدة ، مسلحة بأسلحة حديثة ، عاملة بأساليب جديدة.

إن هذا الركود والجمود ، قد يأتي بعد تقدم كبير ، ناتج عن تجدد سابق طويل . ولكن هذه المجتمعات الجامدة أيضاً لا تستطيع أن تصمد أمام هجمات المجتمعات الناهضة ومنافساتها ، مهما كانت متقدمة عليها بتاريخها ، ومهما كانت متفوقة عليها بعدد أفرادها.

إن تاريخ الصين من أبلغ الشواهد على ما نقول : من المعلوم أن الصينيين كانوا قد تقدموا تقدماً كبيراً في شتى نواحي الحياة الفكرية والاجتماعية ، وكانوا قد سبقوا جميع الأمم الغربية في هذا المضمار . غير أنهم انقطعوا بعد ذلك عن التجدد والتقدم ، وجمدوا في مكانهم ، في المرتبة العالية التي كانوا قد وصلوا إليها قبل غيرهم . ولذلك لم يستطيعوا أن يقاوموا ـ فيما بعد ـ هجمات شرذمة صغيرة من الجماعات الأوروبية المتجددة ، فاضطروا إلى الاستسلام إليها ، والرضوخ لمشيئاتها ، بالرغم من تفوقهم العددي الهائل على تلك الشراذم الصغيرة . والصين لم تتقو وتصبح قادرة على مقاومة الاحتلال الأجنبي ، ألا بعدما أقلعت عن الجمود ، وعدلت عن الاعتداد بالماضي ، فأخذت تقتبس أساليب الحضارة الحديثة ، ودخلت في تيار التجديد العالمي المعلوم.

ويظهر من ذلك بكل وضوح : أن القديم والحديث عنصران ضروريان لقيام المجتمع وتقدمه.

وهنا لا بد لي من أن أشير إلى قضية هامة ، وهي قضية التوازن بين القديم والحديث :

إن هذا التوازن يختل أحياناً ، من جراء توجه الأمور نحو الحديث أكثر من توجهها نحو القديم ، أو ـ بعكس ذلك ـ توجه الأمور نحو القديم أكثر من توجهها نحو الحديث . فنجد أحياناً أن تيار التجديد يكتسب قوة كبيرة ، ويصرف الأذهان عن القديم ، وقد يصل إهمال القديم ـ بهذه الصورة ـ إلى درجة تصبح معها مقومات الأمة وكيانها ، معرضة إلى خطر التضعضع والاضمحلال . فيترتب على مفكري الأمة عندئذ ، أن ينبهوا الأذهان إلى هذا الخطر ، ويدعوا الناس إلى زيادة الاهتمام بالقديم .

وقد يحدث أحياناً عكس ذلك تماماً : أن روح المحافظة تتقوى إلى درجة كبيرة ، فتصرف الأذهان عن الالتفات إلى حركات التجديد ، فتصبح الأمة معرضة إلى خطر الجمود والتأخر . فيترتب على المفكرين عندئذ أن ينبهوا الأذهان إلى هذا الخطر ، وأن يقوموا بدعاية قوية جداً ، لحمل الجيل الجديد على الثورة ضد القديم ، وإبعاد الناس

عن مهاوي الركود والجمود ، ودفعهم نحو سبيل التقدم والتجديد .

ولست في حاجة إلى القول بأننا الآن في وضع يشبه هذا الوضع الأخير :

لقد تأخرنا كثيراً جداً عن مسير قافلة الحضارة العصرية . وجمدنا على أساليب بالية ، في معظم مناحي حياتنا الفكرية والأدبية والاجتماعية . فأصبح من الواجب علينا أن نثور على هذا الركود والجمود ، وأن نسارع إلى سلوك سبل التجديد ، وأن نسير في هذه السبل مسرعين ومهرولين ، لنستطيع أن نتلافى ما فاتنا ، من الزمن في هذا العصر الذي امتاز بوجه خاص ، بسرعة التطور والتجدد الخارقة .

ـ ٤ ـ

يوجد بيننا عدد غير قليل من الشبان والكهول الذين يتخوفون من الاسراع في هذا السبيل ، ويقولون بوجوب السير على « سنة التدريج » في أمر التجديد . وهؤلاء كثيراً ما يتذرعون بنظرية التطور لدعم رأيهم وتبرير موقفهم من هذه القضية .

لا شك في أن نظرية التطور كانت من أهم النظريات التي أوجدت أخطر الانقلابات الفكرية في النصف الثاني من القرن الأخير ، والتي غيرت نظر الإنسان إلى الكون تغييراً أساسياً :

كل شيء يتطور في الكون ، في الأرض وفي السماء ، وفي عالم الجماد وفي عالم الاحياء . . كل شيء يتطور بالتدريج ، بفعل عوامل طبيعية ، قد تبدو في الوهلة الأولى ضئيلة . والتطورات التي تحدث بهذه الصورة ، قد تكون ـ في بادىء الأمر ـ تافهة ، غير أنها عندما تتوالى وتتلاحق تؤدي ـ تدريجياً ـ إلى نتائج كبيرة وخطيرة .

وهذه النظرية التي نشأت عن أبحاث داروين في « أصل الأنواع » الحيوانية والنباتية ، ما كانت تهدف ـ في بادىء الأمر ـ إلى شيء غير تفسير وتعليل كيفية نشوء هذه الأنواع . غير أنها لم تلبث أن انتقلت إلى ميادين الفلسفة على يد « هربرت سبنسر » ، وقد أخذت تؤثر في شتى نواحي التفكير البشري تأثيراً عميقاً . « والفلسفة التطورية » التي نشأت بهذه الصورة أخذت تتوسع وتترعرع بسرعة ، وصارت تغزو ميادين الأخلاق والتاريخ والأدب واللغة والاجتماع . . وفي الأخير قد تسللت إلى ميادين العمل والسياسة أيضاً .

وبعض المفكرين أخذوا من هذه النظرية فكرة « التدريج » وحدها ، وصاروا يستعملونها لتبرير نزعة المحافظة ، ولشجب روح الثورة والانقلاب في الحياة الاجتماعية .

إن قرب الكلمة التي تعبر عن مفهوم « التطور » في اللغات الأوروبية Evolution من الكلمة التي تدل على الثورة والانقلاب Révolution في اللغات المذكورة قد ساعد كثيراً على تقوية هذا الاتجاه الفكري ، وصارت كلمتا التطور والانقلاب تذكران معاً ، للدلالة على طريقتين متعاكستين ، في أمور التجديد والاصلاح.

فلنفكر إذن ، ما هي قيمة نظرية التطور ، في تأييد وتبرير سياسة الابطاء والتدرج في الحياة الاجتماعية.

أولاً يجب أن نلاحظ أن قياس الحوادث الاجتماعية على الحوادث الطبيعية على الاطلاق ، والزعم بأن ما يصح في أحداها يصح في الأخرى أيضاً في كل الأحيان ، مما لا يستند على أساس علمي صحيح أبداً . فإن عالم الاجتماع يختلف عن عالم الحياة اختلافاً كبيراً ، فالنظريات التي تستنبط من دراسة الحوادث الحياتية والطبيعية لا يجوز أن تعتبر شاملة للحياة الاجتماعية أيضاً.

وفضلاً عن ذلك ، يجب أن نلاحظ في الوقت نفسه أن الأبحاث والتجارب التي قام بها جماعة من علماء الحيوان والنبات أنفسهم قد زعزعت فكرة التدرج التي كانت تتضمنها نظرية التطور في شكلها الأول ، لأنه قد ثبت ببراهين قاطعة ـ منذ تجارب « دوفريس » المشهورة ـ أن التطور في الحيوانات والنباتات قد يحدث فجأة ، وأن بعض النويعات منها قد تظهر وتتولد وهلة ، دون أي تدرج كان.

ونستطيع أن نقول لذلك ، أنه قد أصبح من العبث تماماً ، الاستناد إلى نظرية « التدرج » لتحديد خطط الاصلاح والتجديد في الحياة الاجتماعية.

هذا ، وكثيراً ما يتذرع دعاة « التدرج في الجديد » في دعاياتهم هذه بكلمة قالها أحد علماء الطبيعة المشهورين ، قبل مدة تزيد على قرن ونصف قرن : « الطبيعة لا تقفز » La nature ne fait pas des sauts أنهم كثيراً ما يحورون هذه الكلمة إلى شكل آخر فيقولون « الطفرة محال ! ».

غير أن هذه الكلمة ـ حتى في شكلها الأصلي ـ لا تعبر عن حقيقة مطلقة ، فإنها إذا صحت في بعض الحوادث الطبيعية ، فلا تصح في بعض الأخرى.

إن ثورات البراكين وحدها تبرهن على ذلك برهنة قطعية . فضلاً عن ذلك ، كثيراً ما لاحظ علماء الفلك أن بعض النجوم تتوهج بغتة ، مما يدل على حدوث تطورات خطيرة جداً في تركيبها . فلا يجوز لنا قط أن نقول أن الطبيعة لا تعرف الطفرات والانقلابات الفجائية أبداً.

ومع هذا ، ولو تساهلنا في الأمر ، وسلمنا جدلاً بأن الطبيعة لا تطفر أبداً ، فإن

ذلك لا يمنعنا من القول : بأنها لا تسير سيراً وئيداً على الدوام ، بل أنها كثيراً ما تهرول هرولة . .

ولهذا السبب ، كلما اسمع أحدهم يقول : « الطبيعة لا تطفر أبداً » ؛ أعقب على ذلك قائلاً : « ولكنها تستطيع أن تهرول كثيراً ».

ولا أراني في حاجة إلى القول : إن الهرولة أهم بكثير من الطفرة في هذا الميدان ؛ لأنها تتألف ـ في حقيقة الأمر ـ من سلسلة قفزات وطفرات .

ـ ٥ ـ

وقبل أن أختم حديثي عن « القديم والجديد » أود أن الفت أنظار القائلين بوجوب « التدرج في التجديد » إلى الحقائق التالية :

إن سير الحضارة العالمية لم يعد سيراً عادياً وئيداً ، بل أنه أصبح سيراً سريعاً جداً ، لا يختلف عن الهرولة كثيراً .

وإذا كانت الأمم التي تتقدم القافلة أخذت تسير بهذه الصورة بسرعة هائلة ، أفلا يترتب على الأمم التي تأخرت عنها في هذا المضمار ، أن تسير بسرعة أعظم من ذلك أيضاً ، لتستطيع اللحاق بالقافلة التي كانت قد سبقتها كثيراً ؟

هذا ، ويجب علينا أن نعرف حق المعرفة ، أننا نعيش الآن في عصر أصبح فيه « التوقف » لا يؤدي إلى « التأخر » فحسب ، بل يعرض الواقفين إلى « الاضمحلال » أيضاً . لأن الحضارة العصرية أخذت تطغى وتستولي على جميع أنحاء العالم ، وتسعى وراء استغلال جميع موارد الأرض. فصارت مطامح الدول القوية تشمل جميع أنحاء الكرة الأرضية . حتى إن الصحاري القفراء الخالية والأقطار القطبية المتجمدة، مع كل ما فوقها من الأجواء العالية ، وكل ما تحتها من الطبقات العميقة ، أخذت تدخل في نطاق نشاط تلك الدول ، بصور شتى.

فاصبح من المستحيل على أية ناحية من نواحي الكرة الأرضية أن تبقى زمناً طويلاً على حالتها القديمة . . وغدا من المستحيل على أية أمة من أمم العالم أن تحافظ على كيانها ، دون أن تتسلح ـ مادة ومعنى ـ بأسلحة الحياة العصرية.

هذه حقيقة ، ويجب علينا أن ندركها تمام الإدراك ، ونؤمن بها أصدق الإيمان ، وأن نضعها نصب أعيننا على الدوام ، لنعمل على هديها بدون تأخر ، وبحزم واندفاع.

يجب علينا أن نسلك ، بدون تأخر وبحزم واندفاع ، مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية و الاجتماعية.

التجديد في كل شيء : في اللغة والأدب ، في التربية والأخلاق ، في العلم والفن ، في السياسة والثقافة ، في الزراعة والصناعة والتجارة . .

التجديد في كل مكان : في البيت والمدرسة، في القرية والمدينة ، في الشارع والحديقة . . .

التجديد في كل زمان ، وفي كل شيء ، وفي كل مكان . . . يجب أن يكون شعارنا العام.

تعليم التاريخ والعلاقات الدولية(*)

(*) محاضرة القيت في المؤتمر الثقافي العربي الأول في ٨ ايلول/سبتمبر ١٩٤٧ .

- ١ -

سيداتي وسادتي :

إن المناهج الدراسية التي تضعها والكتب المدرسية التي تقررها كل دولة من الدول ، تعتبر ـ عادة ـ من الأمور الداخلية ، التي لا تتعدى تأثيراتها حدود تلك الدولة نفسها. غير أن المناهج والكتب والدروس التي تتصل بالتاريخ تشذ عن هذه القاعدة العامة ، لأنها قد تؤثر في سير علاقات الدولة المذكورة بالدول الأخرى.

فإن المباحث التي تتناول دروس التاريخ ، لا يمكن أن تقتصر على ماضي أمة واحدة على الانحصار ، بل لا بد لها من أن تتطرق إلى ماضي أمم مختلفة ، لكثرة العلائق التي تربط تواريخ الأمم بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً.

ففي جميع دروس التاريخ التي تلقى في المدارس ، سواء أكانت من نوع التاريخ القومي أم من نوع التاريخ العام ، يضطر المدرسون إلى التكلم عن بعض الأمم الأجنبية. وهذه الأبحاث التاريخية ، قد تثير في نفوس الطلاب ـ قليلاً أو كثيراً ـ من الاستحسان أو الاستهجان . والاستحسان قد يتقوى ـ إذا ما تكرر وتوالى ـ فيتحول إلى « حب وصداقة » نحو بعض الأمم ، كما أن الاستهجان قد يشتد بالتوالي والتكرار ، فيصل إلى درجة « البغض والكراهية » نحو بعض الأمم . .

إن تأثير دروس التاريخ في بث شعور الكراهية والعداوة بين الأمم ، لفت

أنظار « دعاة السلام » بوجه خاص ، وحمل بعض المفكرين على انتقاد « التاريخ » انتقاداً مراً . وربما كان أشد وألذع هذه الانتقادات ، هي التي صدرت من يراع الكاتب الفرنسي الشهير « بول فاليري » . فقد قال المومأ اليه في هذا الصدد ما مآله :

« إن التاريخ أخطر وأضر العقاقير التي استحضرها كيمياء العقل . خواصه معلومة جيداً : إنه يسكر الأمم ، ويثير في نفوسها شتى الأوهام والأحلام ، ويورثها ذكريات كاذبة ، كما أنه يخدش جروحها القديمة ، فيحول دون التئام تلك الجروح . إنه يقض مضاجع الأمة ويسلبها راحة البال ، ويؤدي بها في الأخير إلى « مانياء العظمة » أو إلى « داء الاضطهاد » . . .

ولكن . . مهما قيل في هذا المضمار ، لا يستطيع أحد أن ينكر أن التاريخ من أهم عناصر القومية ، ومن أقوى عوامل الوطنية .

فإن جميع رجال التربية والتعليم يتفقون في القول بأن دروس التاريخ من أهم الوسائل لإثارة الشعور الوطني وتنمية الوعي القومي في نفوس الطلاب ، وكثيراً ما يقولون : أن تدريس التاريخ لا يعني - في حقيقة الأمر - « تعليم الماضي » ، بل أنه يعني - من حيث الأساس - « تكوين الشعور الوطني » .

فليس من المعقول - والحالة هذه - أن نطلب من المعلمين والمربين أن يتخلوا عن استخدام التاريخ في بث الروح الوطنية والقومية في النفوس .

فكل ما يمكن - وكل ما يجب - أن يطلب منهم في هذا السبيل ، هو : عدم إفراغ هذه الدروس في قالب يثير روح العداء والبغضاء بين الأمم، لكي لا يحول دون حسن التفاهم بين الدول .

إن هذه القضايا قد شغلت أذهان علماء التربية من جهة ، ورجال السياسة من جهة أخرى ، منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وصارت موضوعاً لمباحثات ومناقشات ومفاوضات كثيرة ، بين العلماء والمفكرين والساسة ، في أوروبا وامريكا .

وقد اهتم بها عدد كبير جداً من المؤتمرات القومية والأممية التي انعقدت بين الحربين العالميتين الأخيرتين . فجميع مؤتمرات التاريخ ، ومؤتمرات التربية الأخلاقية ، ومؤتمرات السلام العام . . . قد تطرقت إلى مسألة « دروس التاريخ ، من وجهة تأثيرها في تحسين العلاقات الدولية ، ونشر ألوية السلام بين الأنام » حتى أن بعض المؤتمرات انعقدت لدرس هذه المسألة بوجه خاص ، والتيارات الفكرية التي تولدت من جراء ذلك ، حملت كثيراً من الدول على عقد اتفاقات ومعاهدات رسمية ، بغية « توجيه دروس التاريخ » الوجهة التي يتطلبها مبدأ استقرار السلام .

إن البعض من هذه الاتفاقات عقد لتنظيم العلائق الثقافية بوجه عام ، ومع

هذا نص على بعض الأحكام المتعلقة بدروس التاريخ ، وكتب التاريخ بوجه خاص . ولكن البعض منها عقد لخدمة الغاية الأخيرة ، رأساً ومباشرة .

هذا ، ومما تجب الإشارة إليه أن هذه الاتفاقات عقدت بعد مباحثات ومفاوضات طويلة ، جرى بعضها بين دولتين ، وبعضها بين مجموعة من الدول التي ترتبط بروابط تاريخية وجغرافية خاصة ، وبعضها بين جميع الدول التي تسعى وراء السلام العام .

فيجدر بنا أن نلقي نظرة إجمالية على هذه المفاوضات ، ونستعرض أهم الأحكام التي قررتها هذه الاتفاقات ، عن دروس التاريخ ، وكتب التاريخ بوجه خاص .

إن أسبق الدول إلى التفكير في هذا الموضوع والاتفاق في شأنه ، كانت الدول الاسكاندينافية . لأنها شرعت في العمل في هذا السبيل منذ سنة ١٩١٩ .

من المعلوم أن تاريخ الدول المذكورة ـ أي السويد، والنرويج ، والدانمرك ، وفنلندا ، وآيسلندا ـ كان شديد التشابك والتعارض ، خلال القرنين الأخيرين . كانت قد حدثت بين شعوبها مخاصمات كثيرة ، وهذه الأوضاع السابقة كانت قد تركت في نفوسهم حزازات مختلفة ، وهذه الحزازات كانت تحول دون تنظيم علاقات هذه الدول بعضها ببعض ، وفق ما تقتضيه منافعها الحالية لحفظ كيانها بين تيارات السياسة الدولية .

فرأى المفكرون والساسة في هذه الدول المتجاورة أن مصلحة الجميع تتطلب تنقية الكتب المدرسية المقررة في كل واحدة منها من المباحث والعبارات التي تثير الضغائن بين شعوبها . وألفوا جمعية سميت باسم « الشمال » Norden على أن يكون لها لجان فرعية قومية في كل دولة من الدول الاسكاندينافية . وعهدوا إلى كل فرع من فروع هذه الجمعية بمهمة « درس الكتب المدرسية » المقررة في بلاد الفروع الأخرى ، على أن يلاحظ كل ما جاء فيها عن بلاده ، ويسجل ما قد يبدو له من الانتقادات عليها ، ثم يعرض تلك الانتقادات على الفرع الذي يهمه الأمر ، لكي يتخذ التدابير اللازمة لتصحيح الكتب المذكورة وتعديلها ، بعد مناقشة القضية في اجتماعات خاصة إذا اقتضى الحال . وقد عرضت الجمعية بعض المسائل التاريخية التي اختلفت الآراء في شأنها على لجنة مؤلفة من المؤرخين الاختصاصيين ، لمناقشتها مناقشة علمية ، تساعد على إظهار وجوه الخطأ والصواب فيها .

وقد درست الجمعية المذكورة بهذه الصورة أكثر من مائة وسبعين كتاباً مدرسياً . ونقحت الكثير من مضموناتها بصورة فعلية .

وقد حاولت الدول البلقانية أيضاً أن تسلك مسلكاً يشابه سلوك الدول الاسكاندينافية في هذا المضمار.

من المعلوم أن شبه جزيرة البلقان ، من أغرب بقاع الأرض التي تشابكت فيها القوميات تشابكاً لا مثيل له في سائر أنحاء العالم . فقد رأى ساسة الدول البلقانية أن يسعوا إلى التخلص من آثار الضغائن التي خلفتها الوقائع الماضية ، فعقدوا حلفاً عرف باسم « الحلف البلقاني ».

وكان الحلف المذكور يعقد مؤتمراً سنوياً في عاصمة من عواصم الدول البلقانية . وقد تناولت مذكرات هذه المؤتمرات ، كثيراً من القضايا المتعلقة بتدريس التاريخ :

والمؤتمر البلقاني الأول الذي انعقد في آثينا سنة ١٩٣٠ أوصى باتخاذ تدابير متعددة « لضمان التقارب والتفاهم » بين الشعوب البلقانية « خدمة للإنسانية والسلام » . وكان من جملة هذه التدابير « إصلاح التعليم بوجه عام ـ وتعليم التاريخ بوجه خاص ـ إصلاحاً يجرده من كل صيغة عدائية ، ويجعله خادماً للسلام » . وقد طلب المؤتمر المذكور من جميع الدول البلقانية أن تحذف من كتب التاريخ « الفصول التي تذكي الحروب وتثير الخصومات » .

والمؤتمر البلقاني الثاني الذي اجتمع في مدينتي استانبول وأنقره سنة ١٩٣١ ، أوصى ـ فيما أوصى به من الأمور ـ أن تتبادل الدول البلقانية ترجمات من « المختارات » التي تتعلق بتاريخ بلادها وآدابها ، بغية ادماجها في كتب المطالعة التي تستعمل في المدارس المختلفة .

والمؤتمر الثالث الذي انعقد في بخارست سنة ١٩٣٢ قرر تأسيس معهد للأبحاث التاريخية ، للعناية بتواريخ جميع الشعوب البلقانية .

وأما المؤتمر الرابع الذي انعقد في سالونيك سنة ١٩٣٣ فقد أوصى بإنشاء كراسي « لتعليم حضارات الشعوب البلقانية » في جامعات عواصمها .

وقد بذلت جهود مماثلة لما ذكرناه آنفاً في امريكا أيضاً : فقد عقدت « الحكومات المتحدة البرازيلية » مع « الجمهورية الارجنتينية » سنة ١٩٣٣ اتفاقية خاصة بـ « مراجعة نصوص الدروس التاريخية والجغرافية » . وقد تعهد الطرفان ـ بهذه الاتفاقية ـ ان يعيدا النظر في الكتب المدرسية على اساس « تنقيتها من العبارات التي تذكر وتثير حزازات العهود الماضية » . وقد نصت المادة الأخيرة من الاتفاقية المذكورة

على أن « كل دولة امريكية تستطيع أن تنضم اليها ، وذلك بإعلام وزارة الخارجية البرازيلية » .

غير أن أحكام هـذه الاتفاقيـة أدمجت ـ في أواخر السنـة المذكـورة ـ في « اتفاقيـة تعليم التاريخ » التي قررها « المؤتمر الأممي السابع للدول الامريكية » المنعقد في مـدينة « مونت فيديو » .

وقد نصت الاتفاقية المذكورة على وجوب اعادة النظر في الكتب المقررة للمدارس في بلاد الدول المتعاقدة ، بغية تنقيتها « من كل ما من شـأنه أن يثير في نفوس النـاشئة شعور الكارهية نحو أي بلد من البلاد الامريكية» .

كما أنها نصت على تـأسيس معهد جـديد بـاسم « معهد تعليم التـاريخ » يتـولى مهمة « تنسيق وتوجيه تدريس التاريخ في مختلف الجمهوريات الامريكية » .

وأوصت الاتفاقية المذكورة بعدة أمور :

منهـا : أن تشجع كـل جمهوريـة من الجمهوريـات الامريكية تـدريس تـاريـخ الجمهوريات الأخرى .

ومنها : العدول عن الاهتمام بالأعمال الحربية مع التوسع في الشؤون الحضارية في دروس التاريخ .

ومنها : عدم اتخاذ « حكايات الانتصارات » وسيلة للتنديد بالشعوب المغلوبة .

ومنها : التأكيد على كل ما من شأنه أن يقوي روح التفاهم والتعاون بين مختلف البلدان الامريكية.

هذا ،وقد انعقد بعد ذلك بين الدول الامريكية « مؤتمـر لصيانـة السلم » ـ سنـة ١٩٣٦ ، في مـدينة « بـوينوس آيـريس » . وأوصى المؤتمر المـذكور جميـع الجمهوريـات الامريكية بالاسراع في تنفيذ أحكام الاتفاقية الآنفة الذكر ، بغية تنشئة الأجيال القـادمة في جو معنوي مشبع بحب السلم ، وبالرغبة في التفاهم بين الأمم .

حينـما كـانت الـدول التي سبق ذكـرهـا تتفـاوض في هـذه الأمـور وتعقد هـذه الاتفاقات ، كان من الطبيعي أن تهتم عصبـة الأمم أيضاً بهـذه القضايـا ، وأن تدعـو جميع الدول إلى التفاهم حول هذه المبادىء .

غير أنه إذا كان من السهل أن تتفق بعض الدول ـ أو بعض مجموعـات الدول ـ على هذه القضايا التي تتصل بدروس التاريخ ، لـوجود روابط خـاصة ومنـافع متقـابلة تـربط بعضها بعض ، فـإنه كـان من الصعب أن تتفق جميع الـدول عـلى أمثـال هـذه الأمور .

ولهذا السبب لم تستطع عصبة الأمم أن تقرر مشروع « اتفاقية عامة » ، تضمن تحقيق الأغراض الآنفة الذكر ، إلا سنة ١٩٣٥ ، مع أنها قد بدأت تفكر فيها وتعمل لأجلها . . . منذ بداية تكوينها . فقد قررت عصبة الأمم ضرورة العمل « للتعاون الفكري بين الأمم » منذ الاجتماع الأول الذي عقدته سنة ١٩٢٠ ، وألفت اللجنة الأممية « للتعاون الفكري » سنة ١٩٢١ ، وهذه اللجنة أخذت تنشىء فروعاً قومية في مختلف بلاد العالم منذ سنة ١٩٢٢ ، كما أنها ألفت عدة لجان اختصاصية، كان من جملتها لجنة « تعليم الشبيبة أهداف عصبة الأمم » . وبدأت اللجنة المذكورة أعمالها سنة ١٩٢٣ ، وأخذت تبحث في وسائل « اقرار السلم عن طريق التربية والتعليم » . وتطرقت بطبيعة الحال إلى مسألة « الكتب المدرسية » . ولا سيما « كتب التاريخ » . غير أنها لم تستطع أن تخطو خطوات واسعة في هذا السبيل ، لعدم استعداد معظم الدول ـ عند ذاك ـ للتقيد بـ « عهود عامة » في مثل هذه القضايا الهامة. فاضطرت اللجنة إلى الاكتفاء باقرار الاقتراح المعتدل الذي تقدم به ممثل اسبانيا ، « كازاريس » بغية ايجاد طريقة « لتنقية الكتب المدرسية من العبارات التي تضر بحسن التفاهم والوئام بين الأمم ».

واللجنة الأممية للتعاون الفكري ـ التابعة لعصبة الأمم ـ أقرت هذا الاقتراح في ٢٥ تموز ١٩٢٥ ، فعرف الاقتراح بعد ذلك باسم « قرار كازاريس » .

يصرح هذا القرار في حيثياته : « بأن إحدى الوسائل التي تضمن الوصول إلى التقارب الفكري بين الشعوب ـ بأفضل الوسائط وانجعها ـ هي : تنقية الكتب المدرسية من العبارات التي من شأنها أن تبذر بين شبيبة بلد من البلاد بذور عدم تفاهم أساسي نحو البلاد الأخرى ». ثم يدعو اللجان القومية للتعاون الفكري إلى العمل في هذا السبيل على الطريقة التالية : « إذا ما وجدت إحدى اللجان المذكورة في الكتب المدرسية الأجنبية ، نصاً يمس بلادها ويحتاج إلى تعديل ، خدمة للغايات التي أوحت بهذا القرار ، فإنها ترسل طلباً بذلك إلى اللجنة القومية العاملة في البلد الذي يدرّس فيه الكتاب المذكور ، وتصحب طلبها هذا ـ إذا رأت لزوماً لذلك ـ بمشروع التعديل الذي تقترحه ، مع أسبابه الموجبة . وعلى كل لجنة قومية تتلقى طلباً من هذا القبيل ، ان تدرس القضية وتقرر : هل تجب تلبية هذا الطلب ؟ وتتخذ التدابير اللازمة لإجراء التعديل المطلوب ، مع أعلام اللجنة القومية الطالبة من جهة ، واللجنة الأممية من جهة أخرى . وأما إذا لم توافق على تلبية الطلب وتبديل النص ، فلا تعتبر مجبرة على بيان الأسباب » .

هذا ، ويصرح قرار « كازاريس » بأن « طلبات التصحيح والتعديل يجب أن تنحصر في الأمور الثابتة بصورة أكيدة ، والمتعلقة بجغرافية البلاد وحضارتها . . . » ويحظر بصورة قطعية طلب تعديل النصوص التي تتصل بالتقديرات الذاتية ، فتكون ذات صبغة أدبية أو

سياسية أو دينية . وفي الوقت نفسه يرجو القرار من كل لجنة قومية ، أن تشير إلى المؤلفات التي تراها أصلح لتزويد الأجانب بمعلومات صحيحة عن تاريخ بلادها ، وحضارتها السابقة ، وحالتها الحاضرة .

يلاحظ من هذه التفاصيل أن التدابير التي تضمنها هذا القرار ، كانت في منتهى الاعتدال وغاية الاحتراس ، حتى أنها لم تشمل شيئاً من دروس التاريخ على الاطلاق . والسبب في ذلك يعود إلى حرص بعض الدول على الاحتفاظ بحرية العمل في هذا المضمار حرصاً شديداً .

غير أن الجمعيات العلمية والتعليمية والسياسية التي تهتم بشؤون التاريخ والتربية والسلام واصلت جهودها وأبحاثها ودعاياتها في هذا السبيل ، وعقدت مؤتمرات كثيرة ، ونشرت مقالات متتابعة ، وأثرت في الرأي العام تأثيراً عميقاً . والتطور الذي حدث في عالم الفكر من جراء ذلك أدى إلى إدخال القضية إلى حظيرة عصبة الأمم مباشرة .

وقد ألقى بريبان ـ ممثل فرنسا في مجلس العصبة ـ سنة ١٩٢٩ ـ خطاباً بليغاً في هذا الموضوع ، فقال :

« يجب على عصبة الأمم ألا تبقى مكتوفة الأيدي أمام ذلك النوع من « التسميم المعنوي » الذي تنكب به نفوس الناشئة الآن في كل البلاد . لأن هناك أناساً لا يرتاحون إلى انتشار روح الطمأنينة والسلام . بل بعكس ذلك يسعون دائماً وراء إثارة نعرات الثأر والانتقام .

فيجب على عصبة الأمم ، التي تشمل سياستها جميع أعمال الصيانة الاجتماعية ، والتي تبذل شتى الجهود في سبيل مكافحة ومطاردة الحشيش والافيون في كل البلاد بكل الوسائل الممكنة ، يجب على هذه العصبة أن تلتفت بأنظار اهتمامها نحو الأفعال التي ترمي إلى تسميم عقول الأطفال والشبان ، ببث بذور الحرب والخصام في أدمغتهم الغضة . إن الذين يقدمون على ذلك ـ بدروسهم أو بخطاباتهم ـ يجب أن يعتبروا من أفظع المجرمين . . . » .

وقد تلا هذه الخطبة الهامة ، خطب شتى ألقاها كبار رجال السياسة في مختلف البلاد .

وهذه النزعة السياسية التي برزت بهذه الصورة في قاعة عصبة الأمم نفسها ، أفسحت أمام لجنة الخبراء المؤلفة « لتعليم الشبيبة أهداف عصبة الأمم » مجالاً واسعاً لإعادة النظر في المقررات السابقة ، ولوضع خطط جديدة ، أكثر نجوعاً من الخطط الأولى .

فقد رأت اللجنة ـ خلال الاجتماع الذي عقدته سنة ١٩٣٠ ـ أن الوقت قد حان

للقيام بتحقيق علمي شامل ، عن حالة « الكتب الدراسية المستعملة في مدارس البلاد المختلفة » . وقد تم هـذا التحقيق سنة ١٩٣١ ، ونشـر التقريـر المفصل الـذي ضمن نتائجه سنة ١٩٣٢ .

واستنـاداً إلى كل ذلـك ، وضعت اللجنة مشـروع قرار اشارت فيه إلى « اهميـة دروس التاريخ في تنشئة الأجيال الجديدة على حب السلام والوئام » ونصت عـلى وجوب اشتمـال قرار « كازاريس » على كتب التاريخ ودروس التاريـخ . ثم اقترحت عـلى عصبة الأمم أن توصي الحكومات بالسهر المباشر على تنقية الكتب المدرسية من الأبحاث والعبـارات التي قد تضر بحسن التفاهم بين الأمم .

هذا ، ومن جهة أخرى ، كان قد حدث في عالم السياسة تيار جديد ، استوجب سلسلة جهود جديدة ، تلاقت مع سلسلة الجهود الآنفـة الذكـر ، في هذه المـرحلة من مراحل تطورها :

كانت عصبة الأمم أخذت تبحث الوسائل التي تؤدي إلى نزع السلاح ، أو على الأقـل إلى تحديـد التسلح ، ودعت الدول إلى عقـد مؤتمر خـاص لهـذا الغـرض سنـة ١٩٣٠ :

وقد أرسل وزير خارجية بولندا ـ زالسكي ـ كتاباً إلى سكرتـير عصبة الأمم أشـار فيه إلى ضرورة التفكير في أمر « نزع السلاح المعنوي » ، بجانب التفكير في قضايا « نزع السلاح المادي » . وأضاف إلى الكتاب المذكور مذكرة تفصيلية قال فيها : يجب أن نبذل جهداً عظيماً لصيانة الشبيبة من كل ما من شأنه أن يثير في نفوسها البغض لشعب أجنبي ولهذا يجب أن يحظر على المعلمين سوء استعمال سلطتهم المعنوية بتلقين طلابهم أمثال هذه النزعات ، ويجب أن يعاد النظر في الكتب المدرسية ـ لضمان تحقيق هذه الغاية ـ ولا سيما في الكتب الخاصة بدروس التاريخ والجغرافية . . .

ورئيس لجنة التعاون الفكري أيضاً قدم تقريراً ذكر فيه العلاقة التي تربط قضيـة نـزع السلاح بقضـايا التعـاون الفكري ، وشـرح الجهود التي بـذلتها اللجنـة في هـذا السبيل ، منذ سنة ١٩٢٠ .

وبهـذه الصورة أصبحت قضيـة « نزع التسلح المعنـوي » من المسـائـل التي تثـير اهتمام المحافل الفكرية والسياسية بمقياس واسع جداً .

واللجنة السياسية ، المنبثقة من « مؤتمر تحديد التسليحات » بحثت هـذه القضية في ١٥ آذار (مارس) ١٩٣٢ ، وألفت لجنة فرعية باسم لجنة نزع التسليح المعنـوي ، عهدت إليها بدرس الموضوع باهتمام تام .

وهـذه اللجنة ـ بعـد المذاكـرة في الأمر ـ اتخـذت مقـررات كثيـرة ، وطلبت من « منظمة التعاون الفكري » أن تضع الخطط التفصيلية لتنفيذ هذه المقررات . والمنظمة المذكورة وضعت وقررت خطة تفصيلية « لتنقية اصلاح الكتب المدرسية » .

ولكن رجـال الفكر والسيـاسية ، لم يكتفـوا بذلـك ، بـل رأوا أن هـذه الجهـود والقرارات يجب أن تتوج بمعاهدة تلزم الدول الزاماً صريحاً .

ولهذا السبب وضعت « اللجنة الأممية للتعاون الفكري » ـ سنة ١٩٣٦ ـ مشروع « تصريح دولي » عن الكتب الدراسية المتعلقة بالتاريخ .

وأقرت عصبة الأمم المشروع ، ودعت الدول إلى التوقيع على التصريح .

وقـد أصبح التصـريح الـدولي المذكـور نافـذاً ، اعتبـاراً من ٢٧ تشـرين الثـاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٧ .

ويشير التصريح المذكور ـ في مقدمتـه ـ إلى أن « العلائق القـائمة بـين البلاد المختلفـة تتحسن وتتوطد ، إذا ما تلقت الأجيال الجديدة في كل بلد من المعارف والمعلومـات التي تتعلق بتاريـخ الأمم الأخرى ، ما هو أوسع مما تتلقاه الان » . كما يشير إلى « الأضرار التي تنجم عن عرض بعض الـوقائـع التاريخيـة في الكتب المدرسيـة عرضـاً مثيراً » . ثم يـذكرُ اتفـاق الـدول عـلى المبـادىء التالية :

١ ـ يحسن لفت أنظار السلطات المختصة في كل البلاد ـ وكـذلك أنـظار مؤلفي الكتب الدراسية فيها ـ إلى وجوب :

(أ) تخصيص أوسع ما يمكن تخصيصه من الحصص لتاريخ الأمم الأخرى .

(ب) تبريز العناصر التي من شأنها تفهيم ترابط الأمم ، خلال تدريس التاريخ العام .

٢ ـ يحسن بكل حكومة أن تتحرى الوسائل التي تضمن صيانة الشبيبة المـدرسية من العبـارات الضارة ، وفقـاً للمقررات التي اتخـذتها اللجنـة الأممية للتعـاون الفكري وأقرتها هيئة عصبة الأمم .

ـ ٢ ـ

بعد هذه النظرات السريعة التي ألقيناها على هذا النوع من الاتفاقات والمقررات الـدولية ، يجـدر بنا أن نتسـاءل : ماذا يجب أن يكـون موقفنـا نحن العرب إزاء هـذه المقررات ؟

أنا لا أرى بأساً في الأخذ بها ، والاستفادة منها . لأني أعتقد أن الكتب الدراسية المستعملة في البلاد العربية ليست مخالفة ـ بوجه عام ـ للمقررات الآنفة الذكر : إنها تخصص حصة كبيرة للتاريخ العام ، ولا تلقي فكرة عدائية نحو الأمم الأخرى . في حين ان الكتب المستعملة في مدارس الغرب ، لا تعطي تاريخ العرب حقه من البحث والاهتمام ، وكثيراً ما تذكر الشؤون المتعلقة بتاريخ العرب بعبارات تنم عن الاستخفاف والازدراء . وأستطيع أن أقول : أن تطبيق القرارات الآنفة الذكر يكسبنا « حقوقاً للمطالبة » أكثر مما يعرضنا إلى « مطالبات » . ولهذا نستطيع أن نستفيد منها في مطالبة الأمم الغربية بجعل كتبها المدرسية أكثر انصافاً للعرب وأقل اهمالاً لهم .

غير أني أعتقد أن أهم النتائج التي يجب أن نستخلصها من الأبحاث الآنفة الذكر ، هي : الإيمان بأهمية دروس التاريخ في حياة الأمم . لأننا لا نزال بعيدين عن هذا الإيمان . فإننا قلما نهدف في دروس التاريخ إلى أهداف واضحة ، وقلما نعمل لتلك الأهداف بتأمل وتبصر وثبات . .

كثيراً ما يثير رجال الفكر والتعليم ـ في كل أنحاء العالم ـ مسألة « العلمية والشيئية » في التاريخ ، وفي دروس التاريخ .

يقول البعض : إن التاريخ يجب أن يكتب ويدرس بنظرة علمية بحتة . ويقول البعض : إن التاريخ بعيد عن الصفات المميزة للعلم بعداً كبيراً ، فلا يمكن تدوينه وتدريسه بنظرة علمية بحتة أيضاً . . .

غير أني أفرق قضية « تدوين التاريخ » من قضية « تدريس التاريخ » فأقول : من الممكن كتابة التاريخ وتدوينه بنظرة علمية بحتة ، غير أنه من المستحيل تدريس التاريخ وتعليمه بنظرة علمية بحتة ، مجردة عن كل نزعة خاصة .

لأننا عندما ندون التاريخ ، نأخذ بنظر الاعتبار كل ما يصل إلى علمنا ـ وكل ما يتصل ببحثنا ـ من الوقائع والتفاصيل ، فنستطيع أن نزنها وزناً دقيقاً ، وندرسها درساً علمياً ، دون أن نتوخى من وراء ذلك غاية غير « معرفة الحقيقة ، وإظهار الحقيقة » .

غير أننا عندما نقدم على تدريس التاريخ ، لا نجد إمكاناً مادياً لعرض جميع الوقائع ، وذكر جميع الحقائق ، واستعراض جميع التفاصيل . فنضطر بطبيعة الحال إلى الاكتفاء بسرد بعض الوقائع وإهمال ما سواها. إن هذا الاضطرار يحملنا مهمة خطرة ، هي : مهمة الترجيح والانتخاب . ولا حاجة إلى القول بأن عملية « الترجيح والانتخاب ، بين مجموعة كبيرة من الحقائق ، وسلسلة طويلة من الوقائع » لا يمكن أن

تتم بملاحظات علمية بحتة . فلا بد لها من أن تخضع لبعض الملاحظات التربوية : ولا شك في أن أهم هذه الملاحظات التربوية ، يجب أن تستهدف « تقوية الروح الوطنية والوعي القومي في نفوس الطلاب » .

وأستطيع أن أقول : ما من كتاب مدرسي كتب في بلاد الغرب ، إلا خضع لهذه الملاحظات الأساسية ، وعمل بهذا المبدأ العام .

وقد يقال أن ضرورة الاقتصار والانتخاب من الضرورات المسيطرة على « جميع الدروس » وليست من الأمور الخاصة بدروس التاريخ وحدها . فكل عمل تدريسي يتضمن بطبيعته عملاً اصطفائياً .

غير أنه يجب ألا يغرب عن البال أن عمليات الاصطفاء والاقتصار ، لا تؤثر في النتائج تأثيراً يماثل تأثيرها في التاريخ . فإننا إذا اكتفينا في دروس الحيوان مثلاً بدرس بعض الأنواع وأهملنا الأنواع الأخرى ، أو إذا اقدمنا في دروس الكيمياء على دراسة بعض المركبات وأهملنا دراسة المركبات الأخرى ، لا يترتب على ذلك نتائج خطيرة ، إذ لا يشوب صحة المباحث التي درسناها أية شائبة ، ولا يعتري وجه الحقيقة التي شرحناها أي تغير . فيكون عملنا عمل اختصار وإجمال ، ليس فيه شيء من التشويه .

ولكن الأمور تختلف عن ذلك اختلافاً كلياً في دروس التاريخ . لأن ذكر بعض الوقائع أو عدم ذكرها قد يغير تأثيرها في النفوس تغييراً أساسياً ، وقد يشوه وجه الحقيقة تشويهاً خطيراً .

إني أستطيع أن أوضح رأيي هذا ، بمثال قريب المنال :

عندما استعرضت ـ في بدء هذه المحاضرة ـ التيارات الفكرية التي حامت حول مسائل تدريس التاريخ ، ذكرت الخطاب البليغ الذي ألقاه « بريان » في مجلس عصبة الأمم .

افرضوا أني ذكرت ذلك لطلابي في مدرسة ثانوية ، وأردت أن أتوسع في الشرح ، فقرأت عليهم ترجمة الخطاب كله ، بأسلوب مؤثر جذاب . لا شك في أن ذلك سيثير في نفوس الطلاب « التقدير والإعجاب » نحو صاحب هذا الخطاب .

وافرضوا أنني توسعت في الأمر أكثر من ذلك ، وقرأت على الطلاب مقتطفات من الخطب التي كان ألقاها المومأ إليه في مناسبات مختلفة ، عن السلام العام . لا شك في أن ذلك سيزيد في إعجابهم به زيادة كبيرة .

وافـرضوا ـ في الأخيـر ـ أنني استرسلت في هـذا البحث أكثر من ذلـك أيضـاً ، وقلت للطلاب : إن الجهـود التي بذلهـا بريـيـان في عصبة الأمم في سبيـل نشـر ألـويـة السلام ، حملت اللجنة المكلفة بتوزيع جوائز نوبل الشهيرة على منحه جائزة السـلام . لا شك في أن « بريـيـان » سيصبح ـ عنـدئذ ـ في أنـظار هؤلاء الطلاب بـطلاً عظيـماً ، وتمثالاً بديعاً لدعاة السلام العام .

ولكن هناك حقائق أخرى ، إذا ما ذكرتها ، سيتغير فوراً مظهر هذا التمثال : أن بريـيان هذا ، كان وزيراً للخارجية عندما اتفقت فرنسا مع انكلترا على اقتسـام البلاد العربية خلال الحرب العالمية الأولى ! . . إنه كان من أبـطال اتفاقيـة سايكس بيكـو ، التي قضت على الأمن والسلام في ربوع الشام مـدة تزيـد على ربـع قرن . . وكـان قد تبـاهى بعمله هذا في البـرلمان الفـرنسي ، عندمـا تذاكـر في الاعتمـادات التي طلبتهـا الحكـومة لتجـريد الحملة العسكـرية التي قضت عـلى استقلال سـورية ، عقب واقعـة ميسلون . فإنه قام يخطب ـ عندئذ ـ للدفاع عن الاتفاقية المذكورة ، وقال : « أمـا أنا ، فمن دواعي الفخر لي ، أن أكون قد عقدت هذه الاتفاقيات في حينها . وكـل ما أتمنـاه هو أن يستفـاد منهـا الآن » . وخلاصـة القول : أنـه كـان من أكبـر المسؤولـين عن الآلام التي عـانـاهـا السوريون ، وعن النكبات التي حلت بسورية خلال تلك المدة الطويلة .

هذه كلها حقائق ثابتة ، لا تتحمل الجـدل والانكار ، عن أعمـال بريـيـان الذي نال جائزة السلام !

وبديهي أن ذكري أو عدم ذكري لهذه الحقائق الأخيرة سيؤثر في حكم الـطلاب له أو عليه تأثيراً عميقـاً جداً : فـإنهم سيعتبرونـه بطلاً من أبـطال السلام إذا مـا جهلوا الحقائق المذكورة ولكنهم سيعرفون أنه من صناديد الاعتداء والاستعمار ، إذا ما اطلعوا عليها . إنهم سيدركـون في الوقت نفسه أن السلام الـذي يتكلم فيه ويعمـل من أجله الغربيون ، ما هو إلا السـلام بين الـدول القويـة وحدهـا ، ولو قـام هذا السـلام على أكتاف الشعوب المستضعفـة ، وكان بمثـابة رداء فضفـاض يستر ويخفي اضـطهاد تلك الشعوب . . .

وأظن أن هذا المثال يغنيني عن كل إيضاح .

ولا تظنوا أن هـذا من الأمثلة الشاذة التي تكلفت البحث عنهـا . بل تـأكدوا أن ذلـك من الأمور الاعتيـادية التي يصـادف الباحث أمثـالهـا في جميـع الكتب المخصصـة لتدريس التاريخ ، في كل اللغات .

إن مؤلفي هـذه الكتب ـ في كل أمـة ـ يكتبون مـا يكتبـونـه لأغـراض معينـة ،

وينتخبون مباحثهم تحت تأثير تلك الأغراض ، وأهم هذه الأغراض هو : التفاخر بماضي الأمة ، وبث روح الاعتزاز بمآثرها .

وأما نحن فكثيراً ما ننخدع بما كتبه هؤلاء ، وننظر إلى معظم الوقائع التاريخية تارة بنظرات فرنسية وطوراً بنظرات انكليزية ، وقلما ندرك أنه يترتب علينا أن نتجرد من أمثال هذه النظرات الأجنبية .

ولا بد لي من أن اعترف بأنني أيضاً كنت مخدوعاً بتلك النظرات . لا أزال أذكر « الصدمة العنيفة » التي زلزلت ثقتي بـ « المعلومات التاريخية والشائعة » زلزلة شديدة ، قبل مدة تزيد على ربع قرن .

كنت إذ ذاك في إيطاليا ، أتحدث إلى أحد كبار الأساتذة في جامعة روما . أخذت أقص عليه « الاحتيالات » التي لجأ إليها الفرنسيون للاستيلاء على دمشق والقضاء على الدولة العربية القائمة فيها . وقد تكلمت عن تلك الاحتيالات بحماس مرير ، ثم أردت أن أعبر عن فظاعتها بكلمة وجيزة ـ فقلت : لا مثيل لها في التاريخ .

كان الأستاذ يصغي إلى حديثي باهتمام ، ولكنه عندما سمع مني الكلمة الأخيرة ، قاطعني فجأة ، واندفع يقول :

ـ ماذا تقول يا عزيزي ؟ . . لا مثيل لها في التاريخ ؟ . . ولكن التاريخ مملوء بأمثال ذلك . . ولا سيما تاريخ فرنسا . . وأنا أستطيع أن أذكر لك أمثلة عديدة لذلك ، حتى في علاقاتها معنا في القرن الأخير ، خلال حركات الوحدة والاستقلال التي قامت في بلادنا هذه .

إن كلمتي قد أثارت في نفس الأستاذ الايطالي استغراباً أشد من ذلك بدرجات . لأني كنت أزعم ـ حتى ذلك التاريخ ـ أن إيطاليا مدينة في استقلالها ووحدتها بدين كبير لفرنسا .

إنني لم أتعمق ـ قبل ذلك ـ في بحث من أبحاث التاريخ ، سوى ما كان متعلقاً بنشوء العلوم وتطورها . وأما فيما يتعلق بالتاريخ السياسي ، فكنت قد اكتفيت بما كنت تلقيته على مقاعد الدرس ، وبما كنت توصلت إليه بصورة عرضية ، من مطالعات متفرقة في مناسبات مختلفة . والمفهومات التي تكونت في ذهني ـ من هذه الدروس والمطالعات ـ كانت تربط « وحدة ايطاليا » بـ « مساعدة فرنسا » ، فكان من الطبيعي أن أقع في حيرة عميقة ، عندما أسمع من هذا الأستاذ الكبير ، ما يخالف ذلك مخالفة كلية .

وقد لاحظ الأستاذ على وجهي آثار هذه الحيرة ، فأخذ يوضح رأيه بذكر بعض

الوقائع ، ثم قام إلى مكتبته ، وكدس أمامي الوثائق التي تؤيد ما قاله في هذا المضمار .

إنني أعدت درس « تاريخ الوحدة الايطالية » ـ بعد هذه المحاورة ـ دراسة مستفيضة. وتوسعت في مطالعة الكثير من الكتب المفصلة التي ألفها عن ذلك الفرنسيون من ناحية والايطاليون من ناحية أخرى . وقضيت مدة من الزمن في استعراض الوثائق المعروضة في « متحف البعث » الفخم القائم في مدينة « تورينو » التي كانت عاصمة « ساردينيا » في فجر حركات النهضة والاتحاد في تلك البلاد .

وخرجت من جميع هذه المطالعات والدراسات ، متأكداً من أن الصورة التي كانت ارتسمت في ذهني عن تاريخ وحدة ايطاليا ، وعن دور فرنسا فيها كانت بعيدة عن مطابقة الواقع بعداً كبيراً .

لقد اتبعت فرنسا حيال حركات الوحدة والنهضة في ايطاليا سياسة مرتبكة وملتوية جداً . لأنها كانت تساعد هذه الحركات عندما ترى في ذلك منفعة لنفسها ، ولا سيما عندما تجد في ذلك وسيلة لكسر شوكة النمسا المنافسة لها ، ولكنها كانت تتخلى عنها ، بل تنقلب عليها ، حالما ترى في الأمر ما يضر بمصالحها بعض الضرر ، أو ما قد يخالف نزعاتها بعض المخالفة . ولذلك سارت فرنسا إزاء حركات الوحدة الايطالية سيراً مشوباً بالتقلب والتناقض : إنها ساعدت فعلاً هذه الوحدة بعض المساعدة في بعض المناسبات ، ولكنها عارضتها وعرقلتها في كثير من المناسبات ، حتى وصلت هذه المعارضة إلى درجة « المخاصمة المسلحة » أيضاً عدة مرات .

فقد ساعدت فرنسا الايطاليين على تخليص اللومبارديا من سيطرة النمسا وضمّها إلى مملكة ساردينيا . ولكنها لم تفعل ذلك إلا بأجرة ثمينة ، إذ اشترط نابليون الثالث على « كافور » شرطين أساسيين ، لضمان هذه المساعدة :

أولاً : تزويج الأميرة كلوتيلد ـ بنت الملك فيكتور عمانويل من الأمير جيروم ـ ابن عم نابليون ، مع أنه كان يكبرها بعشرين عاماً .

ثانياً : التخلي لفرنسا عن مقاطعتي صافوا ونيس ، مع أن صافوا كانت مهد العائلة المالكة ، مع أن مدينة نيس كانت مسقط رأس غاريبالدي ـ بطل النهضة الايطالية وفارس وحدتها المغوار .

فقد اضطر « كافور » إلى قبول هذين الشرطين ، ثم تعب كثيراً لحمل الملك على إقرار هذه التضحيات ، كما عرض نفسه ـ من جراء ذلك ـ إلى انتقادات الوطنيين المريرة . حتى أن غاريبالدي ، عندما واجهه في المجلس النيابي ، بعد الانتهاء من

أعمال البطولة التي كان قد قام بها ، صاح بقلب كسير : « إن عمل هذا الرجل جعلني أنا أجنبياً في هذه البلاد » ! . . .

ومع كل ذلك ، لم يواصل نابليون الثالث الحرب بعد موقعة « سولفرينو » حتى الوصول إلى سواحل الأدرياتيك ـ كما كان تم الاتفاق عليه ـ بل سارع إلى عقد الهدنة وإنهاء الحرب ـ وترك حليفته سردينيا في نصف الطريق ، مما ى أدى إلى انسحاب كافور من الحكم .

وأما موقف فرنسا ، تجاه الحركات التي قام بها غاريبالدي في القسم الجنوبي من ايطاليا ، لتوحيده مع القسم الشمالي منها ، فقد كان موقف معارضة وعرقلة على طول الخط : فقد دعت فرنسا الحكومة البريطانية للاشتراك معها في اتخاذ « تدابير بحرية » لمنع مرور « الجيش الأهلي » الذي ألفه غاريبالدي من جزيرة صقلية إلى القارة الايطالية ، وعندما امتنعت انكلترا من إجابة هذا الطلب ، أخذت فرنسا على عاتقها حماية « ملك الصقليتين » ، وأمرت أسطولها بالمرابضة في مياه نابولي وسواحلها ، ولم تنصح الملك المذكور بالانسحاب من هناك إلا بعد أن شاهدت تقدم غاريبالدي الصاعق نحو عاصمة المملكة من جهة ، واندلاع نيران الثورة في داخل العاصمة من جهة أخرى ، وألا بعد أن فهمت من سير الوقائع المتتالية أن انضمام الصقليتين إلى مملكة ساردينيا ، لتكوين الدولة الايطالية ، أصبح من الأمور التي لا سبيل إلى الحيلولة دون تحقيقها . . .

وأما موقف فرنسا من قضية ادخال مدينة روما مع المملكة البابوية إلى حظيرة الوحدة الايطالية ، فكان موقف معارضة أشد من كل ذلك أيضاً .

عندما قامت الثورة في روما ، وأعلنت الجمهورية في المملكة البابوية ، جردت فرنسا حملة عسكرية لإخماد الثورة المذكورة واعادة المقاطعة إلى سلطة البابا ، ثم أقامت هناك قوة عسكرية دائمة ، بغية المحافظة على الحالة الراهنة .

وعندما تقدم غاريبالدي نحو روما على رأس الجيش الأهلي سنة ١٨٦٨ ، خرجت عليه الحامية الفرنسية ودحرته في « مانتانا » وقد أقام الايطاليون في مدينة ميلانو نصباً تذكارياً بديعاً لتخليد ذكرى الشهداء الذين كانوا لقوا حتفهم هناك على يد الجيوش الفرنسية .

والحكومة الفرنسية لم تبذل أي جهد كان ، لتخفيف الآلام المتولدة في قلوب الايطاليين من واقعة مانتانا ، بل أنها بعكس ذلك ، زادت تلك الآلام بالتصريحات التي فاه بها رئيس الوزراء أمام مجلس الأمة : « ونحن نصرح للملأ ، بأن ايطاليا لن تستولي

على روما أبداً . . . لن تتحمل فرنسا هذا العنف الموجه إلى كرامتها وإلى الكاثوليكية بأجمعها . . . » .

وظلت فرنسا بعد ذلك تصر على وجوب ترك روما والمقاطعة البابوية خارجة عن نطاق الوحدة الايطالية ، وظلت تؤيد سياستها هذه بالقوة العسكرية التي أقامتها هناك .

ولم تستطع ايطاليا أن تستولي على عاصمتها الأصلية ، وتتم وحدتها القومية ، إلا بعد نشوب حرب السبعين ، وانكسار فرنسا أمام البروسيين .

ومن الغريب أن عدداً كبيراً من كتاب فرنسا ومؤرخيهم يجرؤون على القول ـ على الرغم من هذه الحقائق الثابتة ـ بأن فرنسا صاحبة اليد الطولى والفضل الأكبر في أمر تحقيق وحدة ايطاليا ونهضتها .

ومن الأغرب ، أن عدداً غير قليل من كتّاب التاريخ ـ في الشرق بوجه عام وفي الشرق العربي بوجه خاص ـ ينخدعون بأقوال هؤلاء ، ويرددون مزاعمهم هذه كأنها حقائق ثابتة .

بعد هذه الدراسة التي أقدمت عليها بهذه الصورة ، بسوق الظروف التي ذكرتها آنفاً ، اضطررت إلى التوسع والتعمق في كثير من المباحث التاريخية ، واطلعت على كثير من الخلافات التي قامت بين المؤرخين ، ولا سيما بين الذين ينتسبون إلى قوميات مختلفة . وتتبعت تفاصيل بعض المناقشات التي جرت حول بعض الوقائع التاريخية ، بين الألمان والفرنسيس ، بين الروس والبولونيين ، بين المجريين والرومانيين . . . وتوصلت من كل ذلك إلى الحكم بأن كتب التاريخ ـ ولا سيما المدرسية منها ـ تتضمن عادة كثيراً من الأغلاط والأوهام . لأن المؤرخين قلما يلتزمون الحياد العلمي في الوقائع التي تمس ماضي أمتهم ، وكثيراً ما يلجأون إلى صبغ الوقائع التاريخية بألوان تلائم غرورهم القومي فيسعون لإظهارها بالمظاهر التي تساعد على إعلاء شأن أمتهم من جهة ، وستر معايبها من جهة أخرى .

إنهم كثيراً ما يتوصلون إلى تحقيق أغراضهم هذه بسهولة كبيرة ، عن طريق « التصرف والتفنن » في سرد الوقائع وتعليلها .

لأن الحوادث التاريخية كثيرة التفاصيل وشديدة الأعضال بوجه عام ، فيستطيع المؤرخ أن يظهرها بمظاهر متنوعة ، بإهمال ذكر بعض الوقائع ، مع التوسع في سرد بعضها الآخر ، وبترك بعض الوقائع بين الظلال ، لكي لا تلفت الأنظار ، مع صبغ بعضها الآخر بألوان زاهية ، لكي تخطف الأبصار .

واستطيع أن أقول ، أن شأن المؤرخين في هذا المضمار لا يختلف كثيراً عن شأن الفنانين في أعمال التعبير والتصوير : من المعلوم أن الفنانين يستطيعون أن يكونوا عدداً غير محدود من الألوان من عدد محدود من الاصباغ ، عن طريق مزجها بصور مختلفة ونسب متفاوتة ؛ كما أنهم يستطيعون أن يصوروا الشيء الواحد بأشكال وأوضاع كثيرة ، يوحي كل واحد منها وحياً يختلف عن وحي غيره . وكذلك المؤرخون : فإنهم يستطيعون أن يصوروا القضايا التاريخية بأشكال مختلفة ، عن طريق اصطفاء الوقائع وجمعها ومزجها وعرضها بأشكال شتى ، ويستطيعون أن يصوروا القضية الواحدة بمظاهر مختلفة ، يترك كل واحد منها في النفوس أثراً يختلف عن آثار غيره .

إنهم كثيراً ما يفعلون ذلك ـ بوجه خاص ـ في القضايا التي تتعلق بحياة الأمة التي ينتسبون إليها من ناحية ، وبحياة الأمم التي تعتبر عدوة أو منافسة لها من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول : أنهم يميلون ـ عادة ـ إلى رسم مناظر التاريخ وعرضها بوجهات نظر خاصة ، تتغلب فيها ـ بوجه عام ـ وجهات النظر الموافقة لنزعاتهم الوطنية وعواطفهم القومية .

ولهذا السبب ، لا يسوغ لنا أن نعتمد ، عند دراسة القضايا التاريخية ، على ما يقوله احد ذوي العلاقة بها . بل يجب علينا ان نستقصي ما يقوله جميع ذوي العلاقة بالقضية المذكورة ، ولا سيما أنه يجب علينا أن نبحث فيما يقوله من كان في الطرف الثاني منها .

هذا ، ويجب أن نعلم أن الأحوال التي ذكرناها آنفاً تتجلى بوجه خاص في الكتب المختصرة ، التي تحتم على المؤلف اصطفاء بعض المباحث وإهمال الكثير منها ، وفي الكتب المدرسية التي تضطر المؤلف إلى توجيه هذا « الإيجاز والاصطفاء » وفق ما تقتضيه الغايات التربوية في أمر تعليم التاريخ .

فلا يجوز لنا أبداً أن نعتمد كثيراً على الكتب المختصرة والكتب المدرسية ، على اختلاف أنواعها ، بل يجب علينا أن نراجع أمهات الكتب المطولة ، التي تضطر إلى ذكر التفاصيل ، وإن حاولت تفسيرها بتفاسير تنم عن نزعات المؤلفين قليلاً أو كثيراً .

وفي الأخير ، وعلى الأخص ، يجب علينا أن نراجع مصادر كثيرة ، لنطلع على حقيقة الأمر ، عن طريق مقارنة النصوص الواردة فيها .

وعندما أقول : مصادر كثيرة ، لا أقصد من ذلك « كتباً كثيرة » على الإطلاق ، لأن عدداً كبيراً من الكتب قد يستند إلى مصدر واحد ، أو بضعة مصادر محدودة ، كما أن كثيراً من الكتب قد ينقل بعضها عن بعض ، دون أن يلجأ إلى درس المصادر الأصلية درساً فعلياً . ولذلك نستطيع أن نقول في بعض الأحيان ، أن الآلاف من

المؤلفات قد تكون بمثابة كتاب واحد ، بالنسبة إلى بعض القضايا التاريخية .

فيجب علينا ألا ننخدع بكثرة الناقلين والرواة ، بل يجب أن نرجع على الدوام ، إلى « المصادر الأصلية » ، وأن ندرس باهتمام ، المؤلفات التي تعتبر من أمهات الكتب في مختلف أقسام التاريخ .

كما يجب علينا ألا نتأخر عن تحقيق جميع الروايات وتمحيصها ، مهما كانت كثيرة الشيوع .

إن جميع المبادىء والقواعد التي ذكرتها آنفاً ، تكتسب قيمة خاصة بالنسبة إلى تاريخ الشرق الحديث بوجه عام ، وتاريخ العرب الحديث بوجه خاص . لأن معظم ما كتب عن ذلك باللغة العربية ، مقتبس من كتب أجنبية ، مع أن معظم مؤلفي الكتب المذكورة ينظرون إلى شؤون الشرق وشؤون العرب بنظرات خاصة بهم ، كثيراً ما تبعدهم عن مناحي البحث الحيادي والضبط العلمي بعداً كبيراً . .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن معظم المؤلفات الأجنبية التي صارت مأخذاً للكتب العربية المذكورة هي فرنسية . مع أن الفرنسيين أكثر الأمم استرسالاً في تلوين التاريخ بألوان فنية ، كما أنهم أقدم الأمم اهتماماً بشؤون الشرق اهتماماً استعمارياً .

ولهذا السبب ، يجدر بنا أن نلتزم جانب « الشك والحذر » تجاه أمثال هذه الكتب والمؤلفات ، وألا نقبل ما جاء فيها ، إلا بعد الدرس والتمحيص .

وعلى كل حال ، يجب علينا أن نعلم العلم اليقين ، بأن كتب التاريخ الدراسية ـ في أوروبا أمريكا ـ مؤلفة وفق غايات قومية بوجه عام ، ومشبعة بالروح القومية اشباعاً تاماً . وإذا قامت هناك جهود جدية لتغيير الأحوال الراهنة في هذا المضمار ، فإنما قامت لأجل إزالة المغالاة في الأمر ، بتنقية الكتب الدراسية من التلقينات العدائية ، ولكنها لم تستهدف قط تبعيد هذه الكتب عن خدمة الغايات القومية .

يجب علينا ألا نشك في ذلك أبداً ، وألا نظن أن التيارات الفكرية والسياسية التي وصفناها آنفاً تحتم علينا التخلي عن الغايات القومية في تدريس التاريخ .

إني لا أقصد بكلامي هذا عدم التقيد بالحقائق الثابتة أبداً ، بل إني اعتقد بضرورة التقيد بالحقائق التاريخية تقيداً تاماً . ومع هذا أقول : يجب علينا أن نعمل على ضوء مقتضيات « التربية الوطنية » في أمر انتخاب « الوقائع والحقائق » التي نستطيع أن نعرضها على أنظار طلابنا في « المدة المحددة لدرس التاريخ » .

- ٣ -

ولكني ـ بعد كل هذه التفاصيل ـ أود أن أعود إلى أصل القضية ، وأتساءل : ألا يوجد شيء كثير من المغالاة في الدور الخطير الذي يعزى إلى دروس التاريخ وكتب التاريخ في إثارة الحروب والإخلال بالسلام ؟ وهل من الحكمة في شيء أن ننتظر حدوث تغيرات هامة في العلاقات الدولية من جراء « مراجعة كتب التاريخ وتنقيتها من العبارات المثيرة » وفقاً لأحكام الاتفاقات التي ذكرناها آنفاً ؟

أنا أشك في كل ذلك شكاً قوياً ، وأعتقد أن ما يعزى إلى دروس التاريخ من التأثير في هذا المضمار ، ينطوي على شيء كبير من المغالاة .

لا جدال في أن الخلافات التاريخية لعبت دوراً هاماً في الخصومات القائمة بين فرنسا وبين ألمانيا . ولكن هل يستطيع أحد أن يدعي ذلك بالنسبة إلى ألمانيا وإنكلترا ، أو بالنسبة إلى أمريكا وروسيا ؟

كلنا نعلم أن انكلترا حاربت ألمانيا بكل قواها حرباً لا هوادة فيها ، مع أن التاريخ لم يسجل شيئاً من الحروب والمخاصمات السابقة بين هاتين الدولتين . . .

والعالم يشهد الآن بوادر صراع عنيف بين امريكا وبين روسيا ، مع أنه لم تحدث أية حوادث حربية بينهما ، في تاريخهما القريب والبعيد . . .

يظهر من ذلك بكل وضوح : أن الأمم قد تتخاصم وتتحارب ، بالرغم من عدم وجود دوافع تاريخية لهذا الخصام .

هذا ، ومن جهة أخرى ، كثيراً ما نجد ـ بعكس ذلك ـ أن الأمم قد تتقارب وتتفاهم وتتحالف ، بالرغم من كثرة مخاصماتها السابقة ، وذلك تحت تأثير مصالحها اللاحقة .

وربما كانت أحوال تركيا واليونان الأخيرة من أبلغ الأمثلة على هذه الحقيقة . من المعلوم أن تاريخ هاتين الدولتين مملوء بمخاصمات عنيفة ـ استمرت قروناً طويلة ـ قلما نجد لها مثيلاً في تاريخ العالم .

فإن الدولة العثمانية أخذت تحارب الامبراطورية البيزنطية منذ بداية تكونها ، وتوسعت على حساب الامبراطورية المذكورة توسعاً متواصلاً ، إلى أن فتحت القسطنطينية ، واستولت على جميع البلاد اليونانية . وبعد خضوع استمر عدة قرون ، أخذ اليونانيون يثورون عليها ، ويحاربونها ويحررون بلادهم من حكمها ـ مرحلة بعد مرحلة ـ إلى أن أخرجوها من شبه جزيرة البلقان بأجمعها ـ باستثناء زاوية صغيرة منها ـ

وبعد ذلك ، هاجموها في عقر دارها ، وحاولوا أن يستولوا على أعز أقسامها ، فاضطروها إلى خوض غمار محاربات دموية عنيفة . . ومع كل ذلك ، قد تفاهمت وتصادقت الدولتان المذكورتان ، قبل أن يمضي على تلك الحروب الدموية عقد كامل من السنين . وأصبحتا الآن ، متآلفتين ومتضامنتين ، ألى أقصى حدود التآلف والتضامن .

يظهر من كل ذلك بوضوح ، أن « الخصومات السابقة » لم تكن « العامل الأساسي » في الحروب الجديدة .

إن للحروب دوافع كثيرة ، غير الخصومات القديمة التي تتناولها الأبحاث التاريخية .

وأعتقد بأنني لا أكون مخطئاً إذا قلت : أن أهم هذه الدوافع ، هي « التنافس في سبيل السيطرة على الشعوب المستضعفة » عن طريق الاستعمار السافر أو المقنع ، على اختلاف أشكاله وأنواعه .

فإذا أردنا أن نكافح نزعة الحروب مكافحة حقيقية ، وجب علينا أن نحمل حملات عنيفة على «حب السيطرة والاستعمار » ، قبل كل شيء وأكثر من كل شيء .

وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً بأنه : طالما بقيت الدول نزاعة إلى السيطرة والاستعمار ، لا يمكن أن تزول الحروب عن وجه البسيطة ، حتى لو انمحت من الأذهان جميع ذكريات الحروب الماضية .

ولذلك أقول : يجب على رجال السياسة والتربية ، الذين يتحرون الوسائل الكافلة لاستقرار السلام في العالم ، ان يسعوا بكل قواهم للقضاء على حب السيطرة ونزعة الاستعمار ، أكثر مما يسعون إلى تقليل مباحث الحروب في دروس التاريخ وكتب التاريخ .

إن رجال الفكر والسياسة الذين بحثوا عن الوسائل اللازمة لنشر ألوية السلام ، بين الحربين العالميتين الأخيرتين ، بذلوا جهوداً كبيرة لتعديل الكتب المدرسية وتنقيتها من العبارات المثيرة للبغضاء بين الأمم ، ولكنهم لم يعيروا قضية « حب السيطرة والاستعمار والاستغلال » أدنى اهتمام . .

والوقائع التي توالت منذ نشوب الحرب العالمية الأخيرة ، أظهرت تماماً ، أن جهودهم هذه لم تثمر أية ثمرة إيجابية .

من أوهام كتاب التاريخ :

تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية (*)

(*) نشرت في مجلة الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٤٨

تمهيد

لقد أجمعت كلمة المؤرخين والكتاب في مختلف البلاد العربية على اعتبار « حملة نابليون العسكرية » نقطة تحول ومبدأ نهضة في تاريخ القطر المصري بوجه خاص، وتاريخ الشرق العربي بوجه عام .

وقد انتشرت هذه النظرية بين المفكرين والمثقفين منذ مدة طويلة ، وأصبحت الآن من « الآراء الشائعة » التي لا يشك فيها أحد ، ولا يختلف فيها اثنان . لأنها من الآراء التي يرددها على الدوام مئات من المؤلفين في عدد كبير من الكتب المطبوعة في مختلف العواصم العربية ، ويكررها مئات من المدرسين على مسامع الآلاف من الطلاب في مختلف المدارس والمعاهد كل عام . حتى أن كتّاب الأدب أنفسهم صاروا يقولون بهذه النظرية ، ويعتبرون مجيء نابليون إلى مصر فاتحة عهد جديد ، ومبعث تطور هام في تاريخ الأدب العربي الحديث .

وقد غالى بعض المؤلفين في تقدير وتبجيل هذه الحملة العسكرية إلى حد االقول بأن : « الفتح الفرنسي لمصر كان كفتح الاسكندر للشرق سواء بسواء ، كان خطوة بالحضارة إلى الأمام » .

ما هو نصيب هذه الآراء والأقوال من الحقيقة ؟ وما هو مبلغ مطابقتها مع منطق الحوادث وشهادة الوقائع ؟

يجب علينا أن نفكر في ذلك ، دون أن نتأثر بشدة شيوع هذه الآراء ، ودون أن نبالي بكثرة القائلين بها فلنتساءل إذاً : « هل أثرت الحملة الفرنسية ـ حقاً ـ في حياة مصر وأحوال الشرق تأثيراً عميقاً ، أدى إلى انقلاب حقيقي ونهضة فعلية ؟ » .

إن الإجابة على هذا السؤال جواباً صحيحاً يتطلب القيام ببحث انتقادي واسع دقيق .

ويجدر بنا أن نبدأ هذا البحث بإلقاء نظرة إجمالية على تاريخ الحملة الفرنسية لتبيين أهدافها الأساسية مع تثبيت أهم صفحاتها وأبرز مظاهرها .

غاية الحملة وزبدة وقائعها :

لقد جردت فرنسا حملتها العسكرية على مصر ـ تحت قيادة نابليون بونابارت ـ بغية استعمار ذلك القطر العربي واستغلال خيراته .

وقد كتب « تاليران » في التقرير الذي قدمه لتأييد هذه الحملة : « أن مصر كانت فيما مضى ولاية تابعة إلى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح الآن ولاية تابعة إلى الجمهورية الفرنسية »[1] .

وكتب الجنرال « منو » في أحد التقارير التي قدمها إلى نابليون : « يجب على مصر أن تعوض لنا ما خسرناه في جزر الأنتيل »[2] .

حتى أن نابليون نفسه كتب في أحد التقارير التي أرسلها إلى الديركتوار « أن الأعمال التي تمت في مصر قد ضمنت للجمهورية امتلاك هذا القطر الجميل من العالم إلى الأبد »[3] .

كما أنه قال في أحد المناشير التي أذاعها باللغة العربية : « اعلموا أن الفرنساوية لا يتركون الديار المصرية ، ولا يخرجون منها أبداً . لأنها صارت بلادهم وداخلة في حكمهم »[4] .

وقد كرر نابليون هذه الفكرة في بلاغ آخر نشره على المصريين ، بأسلوب أحسم من ذلك أيضاً :

« واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية . فيجب عليكم أن تعتقدوا ذلك ، وتركزوه في أذهانكم ، كما تعتقدون وحدانية الله تعالى »[5] .

---

(١) François Charles-Roux, *Bonaparte, gouverneur d'Egypte*, p.2.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠١ .

(٤) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والاخبار ، ٧ ج (القاهرة : لجنة البيان العربي ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥) ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٨٩ .

وهناك دلائل وروايات كثيرة تدل دلالة قاطعة على أن نابليون كان يرمي من وراء هذه الحملة، إلى غاية أوسع نطاقاً وأبعد مدى . إنه كان يعتبر فتح البلاد المصرية ـ والاستقرار فيها ـ بمثابة « خطوة أولى » في سبيل تحقيق « آمال وخطط واسعة » أخرى . إنه كان يريد أن يتخذ مصر قاعدة لحركات وأعمال خطيرة ، تضمن لفرنسا التوسع في الشرق والتغلب على أوروبا المتألبة عليها .

ولكن أمور الحملة العسكرية المذكورة لم تسر كما تشتهيها فرنسا من وراء نابليون ـ لأن الحكم الفرنسي في مصر ، لم يستمر مدة طويلة ، بل أنه انتهى بفشل تام وانسحاب نهائي ، بعد مدة لا تزيد على ثلاث سنوات إلا شهرين . كما أن هذه المدة القصيرة مضت بين سلسلة متوالية من الحروب والثورات والمظالم والاعتسافات .

كان نابليون يأمل أن ينال من الباب العالي تأييداً رسمياً لحملته على مصر . غير أن الوقائع خيبت أمله هذا بسرعة ، واضطرته إلى محاربة العثمانيين والانكليز والمماليك والأهالي ، في الشمال وفي الجنوب ، في الشرق وفي الغرب ، حرباً لا هوادة فيها .

وقد استطاع الانكليز أن يفاجئوا الاسطول الفرنسي في أبي قير ويدمروه تدميراً ، قبل أن يمضي شهر على نزول الحملة إلى البر ، وانقطع بذلك ارتباط الجيش الفرنسي ببلاده الأصلية ، فصارت الحملة بعد ذلك تعيش عالة على مصر والمصريين بكل معنى الكلمة .

ولهذا السبب أخذت قيادة الحملة تفرض على الأهالي ـ على الدوام ـ أنواعاً شتى من الضرائب والقروض والغرامات ، وصارت تكثر من مصادرة الأموال والذخائر ومن تسخير الدواب والجمال ، ومن ارهاق كواهل الناس بسلسلة طويلة من التكاليف .

وكان قواد الحملة يقدمون ـ من وقت إلى آخر ـ على هدم عدد كبير من المباني ـ بين دور وحوانيت ومساجد وجوامع ومدارس وقصور ، لغايات عسكرية بحتة . لأنهم كانوا يجدون ذلك ضرورياً ، تارة لتسهيل المراقبة على الأهالي مع منعهم من التترس والتحصن في الأزقة ، وطوراً لحفر الخنادق ، وتشييد القلاع ، وتعبئة المدافع .

كما أنهم كانوا لا ينقطعون عن قطع الأشجار وتخريب البساتين ، لتسهيل أعمال الضبط والمراقبة من جهة ، وللحصول على الحطب الضروري لصنع المراكب وتشييد الحصون وتقوية الخنادق من جهة أخرى .

ويجد الباحث في اليوميات التي كتبها الجبرتي عن تلك الحقبة من الزمن كثيراً من الصحائف التي تصف هذه التخريبات ، وتذكر أسماء أهم القصور والجوامع والمدارس

والحارات التي ذهبت ضحية لأمثال هذه الأعمال والتدابير العسكرية[٦] .

غير أن تخريبات الجيش الفرنسي في مصر لم تقتصر على الأموال والأشجار والمباني وحدها ، بل تعدت كل ذلك إلى النفوس أيضاً . فإن قواد الحملة عندما لاحظوا عدم انخداع الناس بالدعايات الساذجة التي كانوا قاموا بها تحت ستار الدين ، اخذوا يسلكون مسالك القوة والاعتساف ، وصاروا يكثرون من أخذ الرهائن واعتقال الناس ، وأقدموا على اعدام الكثيرين منهم لأتفه الأسباب ، عقاباً لهم أو تخويفاً لأمثالهم ، وقاموا غير مرة بأعمال تعذيبية وإرهابية فظيعة ، لا تختلف كثيراً عن همجية القرون الأولى .

وقد قابل الفرنسيون الثورات التي قامت في البلاد على حكمهم الجائر ، بمنتهى الصرامة والوحشية : إنهم صوبوا نيران مدافعهم على مختلف أحياء المدينة ، وأزهقوا أرواح الآلاف من الأشخاص ، وسببوا حرائق كثيرة واسترسلوا في التعذيب والتخريب والسلب والنهب ، بشتى الصور والأساليب .

يقول الجبرتي عن أحوال البلد عند بدء الاحتلال الفرنسي « إنها كانت في غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ، ولا سمعنا ما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين »[٧] .

كما أنه يصف الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون ـ من قتل ونهب وسلب عند ثورة القاهرة الثانية بقوله : « فعلوا بالأهالي ما يشيب من هوله النواصي ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة ، واحترقت الأبنية والدور والقصور ثم أنهم استولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال . . . وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور » . ويصرح الجبرتي بأنهم لم يستثنوا من هذه الفظائع حتى العجزة والمسالمين قائلاً : « والذي وجدوه منعطفاً في داره أو طبقته لم يحارب ، ولم يجدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه وعروه من ثيابه » وأصبح من بقي هناك على قيد الحياة « فقراء لا يملكون ما يستر عوراتهم »[٨] .

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أن نابليون كان يصدر أوامر يومية كثيرة « توصي القواد بالاكثار من اعدام الأشخاص على أن تقطع رؤوسهم بعد ذلك ، ويطاف بها في الشوارع ارهاباً للناس » ، لأنه كان يرى أن هذه هي « الطريقة الوحيدة لفرض الطاعة على

---

(٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٢١ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٠١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢١٤ الخ .
(٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٦ و ١٠٧ .

هؤلاء »[٩] . وكان يضرب لهم مثلاً بما يفعله هو في القاهرة ، ليقتدوا به في مناطق حكمهم .

وقد قال نابليون في أحد أوامره اليومية : « نحن نقطع كل ليلة ثلاثين رأساً[١٠] وكتب مرة إلى أحد القواد يبلغه بوجوب قطع رؤوس ما لا يقل عن تسعة أو عشرة أشخاص[١١] . إن أمثال هذه الأوامر كثرت بوجه خاص بعد عودة نابليون من بر الشام خائباً مقهوراً ، حتى أن قائد حامية العاصمة رأى أن يقترح عليه تغيير طريقة الاعدام بغية الاقتصاد في الرصاص »[١٢] .

ويعترف المؤرخون الفرنسيون أنفسهم بأن نابليون أمر بقتل الجنود الذين كانوا استسلموا خلال حملته على بر الشام ـ خلافاً لأبسط قواعد الحقوق الدولية ـ وكان عدد هؤلاء الأسرى يزيد على ثلاثة آلاف . كما أنهم لا ينكرون أن الجنود كانوا يسترسلون في السلب والنهب والتدمير دون أن يبالوا بنصائح ضباطهم وأوامر قوادهم في هذا المضمار[١٣] .

ومن المفيد لنا أن نرجع إلى نتائج محاكمة سليمان الحلبي ـ الذي قتل القائد العام كليبر ـ لنستدل منها على « العقلية » التي كانت سائدة بين ضباط الحملة وقوادها .

وقد طلب النائب العام الحكم بـ«تحريق يده اليمنى ، وتخزيقه (خوزقته) حتى يموت فوق خازوقه ، وجيفته باقية لمأكولات الطيور » .

« تحريق يده اليمنى ، وبعده يتخوزق ، ويبقى على الخازوق حتى تأكل رمته الطيور »[١٤] .

ونفذ هذا الحكم ـ بحذافيره ـ على يد جنود الثورة الفرنسية الكبرى ! .

هذه هي الخطوط الأساسية من وقائع الحملة الفرنسية على مصر :

حملة عسكرية استعمارية ، مقرونة بحكم عسكري عنيف ، انتهت بفشل تام ،

---

(٩) Charles-Roux, *Bonaparte, gouverneur d'Egypte,* p.53.

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٣ .

(١٣) Un officier de la 32ème demi-brigade, *Bonaparte en Syrie,* p.365.

بعض العبارات الواردة فيه ، Alors ce fut carnage horrible, il n'y eut ni grâce ni pitié, au massacre succéda le pillage et tous les excées qui l'accompagnent. Les généraux et officiers n'étaient plus maîtres des soldats qui ne respiraient que la fureur. Pendant deux jours Yaffa fut en proie à toutes les horreurs de la guerre.

(١٤) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والاخبار، ج ٤، ص ١٣٨ و١٨٤ .

بعد أن استمرت ثلاث سنوات ، مضت كلها بين الحروب والثورات والاعتقالات والمظالم والاعتسافات .

فهل يمكن أن يكون لمثل هذه الحملة الاستعمارية ، تأثير إنشائي ، يبرر اعتبارها فاتحة عهد جديد ، وباعثة نهضة قومية ؟

هذا ما يجب أن نشك فيه شكاً قوياً ، وما يجب أن نبحث فيه بحثاً جدياً ، لنتوصل إلى استكناه الحقيقة بنظرات مجردة عن الآراء « القبلانية » التي كثيراً ما تستولي على الأذهان ، دون أن تترك لها مجالاً للتفكير في الأمور تفكيراً علمياً صحيحاً .

البراهين المزعومة :

فلنبحث إذاً ما هي الدلائل التي يستند إليها القائلون بهذه الفكرة ـ والمسلّمون بهذه النظرية ـ للبرهنة على هذا التأثير الخطير ؟

لقد راجعت في هذه الأيام كثيراً من الكتب العربية التي تتطرق إلى هذا الموضوع ، وكان بينها مؤلفات مطبوعة في القاهرة ، وأخرى مطبوعة في بيروت ودمشق وبغداد . وقد لاحظت أن الأدلة المسرودة فيها للبرهنة على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية ـ بوجه عام ـ كثيرة ومتنوعة ، أستطيع أن ألخصها بما يلي :

(أ) كانت الحملة الفرنسية مبدأ الاحتكاك بين الشرق والغرب ، في العصور الحديثة ، إنها كانت بمثابة اللقاء الأول بين هذين العالمين .

(ب) كان جيش نابليون ، جيشين في واقع الأمر : أحدهما جيش المحاربين ، والآخر جيش العلماء . وهذا الجيش الأخير هو الذي خدم النهضة المصرية خدمة مباشرة وغير مباشرة .

(جـ) لقد أدخلت الحملة إلى مصر أول مطبعة عربية . وقد ترتب على ذلك نتائج ثقافية خطيرة .

(د) اكتشف رجال الحملة حجر رشيد الذي أدى إلى حل رموز الكتابة الهيروغليفية ، وكشف النقاب عن تاريخ مصر القديم .

(هـ) أحدثت الحملة الفرنسية كثيراً من المؤسسات التنظيمية وهيأت كثيراً من المشاريع العمرانية ، وهذه المؤسسات والمشاريع لعبت دوراً هاماً في النهضة المصرية .

(و) أظهرت الحملة المذكورة ضعف الدولة العثمانية وشجعت بذلك على الحركات الاستقلالية .

(ز) رفعت الحملة مكانة علماء الدين ، وزادت نفوذهم على الأهلين وذلك خدم نهضة مصر ـ فيما بعد ـ خدمة كبرى .

(ح) كسرت الحملة شوكة امراء المماليك ، وساعدت بذلك على تخلص مصر من شرورهم ، بعد مدة قصيرة .

(ط) إن الحملة المصرية ، هي التي فسحت أمام محمد علي مجال العمل ، وأنارت له سبل الاصلاح . بل هي التي كونته ، وأثارت همته الشماء .

فلننعم النظر في هذه الأدلة المختلفة ، لنرى أولاً : مبلغ مطابقتها للحقائق الراهنة ، وثانياً مبلغ تأييدها للنظرية القائلة بتأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية .

قصة الأبحاث العلمية

يبدو للباحث ـ في الوهلة الأولى ـ أن أقوى الأدلة التي تذكر للبرهنة على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية ، هو ما يتعلق بالأبحاث العلمية التي قام بها العلماء الذين رافقوا الحملة المذكورة .

في الواقع أن نابليون كان استصحب معه إلى مصر ، جماعة من رجال العلم والاختصاص . وكان على رأسهم الكيميائي الشهير « برتوله » والرياضي العظيم « مونج » وكان بينهم الطبيعي اللامع « جوفر أوسانت هيلير » والمعادني المشهور « دولومييو » .

وقد قام هؤلاء العلماء ـ بجانب الخدمات التي قدموها إلى الجيش ـ بأبحاث علمية هامة ، تناولت جميع أحوال القطر المصري . كما أنهم دونوا نتائج أبحاثهم هذه في مؤلف ضخم ، عنونوه بعنوان « وصف مصر » .

وقد تألف هذا الكتاب ـ الذي يعد من أوابد العلم والتأليف ، من متون تقع في تسعة مجلدات ضخمة ، وصور وخرائط وألواح تقع في أربعة عشر مجلداً .

وكان العلماء المشار إليهم استصحبوا معهم ما يحتاجون من الآلات والمخابر ، ودرسوا وصوروا وجمعوا كثيراً من الحيوانات والنباتات والمعادن ، التي شاهدوها في مصر ، كما أنهم رسموا خرائط مفصلة ودقيقة عن مختلف أقسام البلاد التي زاروها ، وجمعوا معلومات كثيرة عن المباني والآثار القديمة التي لاحظوها .

وفضلاً عن ذلك ، فإنهم ألفوا لجاناً علمية عديدة ، وأسسوا مجمعاً علمياً ـ على غرار المجمع العلمي الفرنسي في باريس ـ سموه باسم معهد القاهرة .

فيحق للفرنسيين أن يباهوا بهذه الأعمال والأبحاث العلمية كل المباهاة ، يحق لهم أن يقولوا : إن الحملة التي قادها نابليون إلى مصر لم تنجح النجاح المأمول منها ، بل انتهت بفشل تام من الناحية السياسية ، ولكنها أثمرت ثمرات يانعة من الوجهة العلمية ، لأنها ضمنت لفرنسا موقعاً ممتازاً في جميع العلوم المتعلقة بمصر وبأحوال مصر .

يحق للفرنسيين أن يقولوا ذلك ، وأن يفتخروا بذلك ، لأن الأبحاث العلمية التي قام بها العلماء الفرنسيون في مصر خلال الحملة النابليونية ، كانت متنوعة ومهمة وثمينة جداً .

غير أن تقرير هذه الحقيقة شيء ، واتخاذها دليلاً على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية شيء آخر . لأن ـ من الواضح الجلي ـ أن الأبحاث العلمية التي يقوم بها رجال الاختصاص في أي بلد من بلاد العالم ، لا تدل في حد ذاتها على حدوث تأثير فعال في نفوس أهل تلك البلاد وعقولهم ، من جراء تلك الأبحاث . فلا يجوز للباحث أن يحكم بحدوث مثل هذا التأثير ، إلا إذا تبين ذلك من درس التاريخ والتفاصيل درساً مباشراً .

صحيح أن العلماء قاموا بأبحاث علمية هامة خلال وجود الجيوش الفرنسية في لقطر المصري ، ولكن هذه الأبحاث ، هل كانت ذات اتصال مع المصريين ؟ وهل أثرت فيهم تأثيراً فعلياً وهل أوجدت في مصر حركة فكرية مماثلة لها ، أو ملهمة منها ؟

فنحن ، مهما تعمقنا في درس أحوال مصر ، خلال احتلال الجيش الفرنسي وبعد جلائه ، ومهما توسعنا في استعراض ما كتبه المعاصرون عن تلك الحقبة من التاريخ المصري ، لا نستطيع أن نعثر على أي دليل يخولنا الاجابة على هذه الأسئلة بالايجاب ، ويحملنا على التسليم بوجود علاقة فعلية بين هذه الأبحاث العلمية والنهضة المصرية .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد ، أن الكتاب الضخم الذي دون نتائج أبحاث هؤلاء العلماء ـ كتاب « وصف مصر » المشهور ـ لم يطبع وينشر إلا بعد مرور سنوات عديدة على انتهاء الحملة بالفشل المعلوم ، فإن الطبع لم يبدأ إلا بعد مرور ثماني سنين ، ولم يتم إلا بعد مرور نحو ربع قرن ، لأن المجلد الأول من الكتاب المذكور طبع سنة ١٨٠٩ ، وأما المجلد الأخير منه ، فلم يطبع إلا سنة ١٨٢٥ .

وفضلاً عن ذلك ، فإنه مما لا مجال للشك فيه ، أن هذا الكتاب الضخم لم يستفد منه أحد من المصريين إلا بعد عدة عقود من السنين .

فالقول مع كل ذلك ـ بأن هذه الأبحاث والأعمال العلمية ، كان لها التأثير الفعال في النهضة المصرية ، مما لا يؤيده أي دليل كان .

ومما تجب الإشارة إليه : أن المؤرخين الفرنسيين أنفسهم يعترفون بأن المصريين لم يقدروا أهمية هذه الأبحاث العلمية إلا بعد أن مات جميع العلماء الذين كانوا قاموا بأعبائها(١٥) .

في الواقع نحن نعلم أن العلماء الذين رافقوا الحملة كانوا يدعون أحياناً بعض المصريين ـ ولا سيما الموظفين منهم ـ إلى زيارة مقر أعمالهم ، وكانوا يطلعونهم خلال هذه الزيارات على الآلات التي أتوا بها والصور التي رسموها ، والحيوانات التي حنطوها كما أنهم كانوا يقومون أمامهم ببعض التجارب العلمية أيضاً .

فيجدر بنا أن نتساءل : ما هي الانطباعات التي كانت تتركها أمثال هذه الزيارات في نفوس هؤلاء المشاهدين ؟

إننا نجد جواباً بليغاً لهذا السؤال ، فيما كتبه في هذا المضمار الشيخ الجبرتي ، الذي كان من موظفي الديوان . ومن المعلوم أن المومأ إليه كان كتب يومياته بعنوان « **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** » ، وهذه اليوميات تشهد بأنه كان ذكياً ، دقيق الملاحظة وواسع الاطلاع .

فلنقرأ بإمعان ما كتبه الجبرتي عن التجارب التي شاهدها هناك :

« ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان ، أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى . فعلا الما آن ، وصعد منه دخان ملون ، حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر . فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه » .

« ثم فعل كذلك بمياه أخرى ، فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً ياقوتياً » .

« وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ، ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف . فخرج صوت هائل كصوت القرابانة ، انزعجنا منه فضحكوا منا » .

« وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ، ضيقة الفم . فغمسها في ماء قراح

---

(١٥) Charles-Roux, *Bonaparte, gouverneur d'Egypte*, p. 187.

موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص . وادخل معها أخرى على غير هيأتها . وأنزلها في الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء في أحداهما ؛ وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً » .

« وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكمية ، تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع . . .

« ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر بملاقاة أدنى شيء كثيف . ويظهر له صوت وطقطقة . وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه ، أو شيئاً متصلاً به ، حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفاً أو أكثر » .

« ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا »(١٦) .

يظهر من انعام النظر في هذا الوصف الدقيق ، أن التجارب الأولى المذكورة فيه تجارب كيميائية تتعلق بتكون الأملاح وتفاعلها . ومن المعلوم أن « برتوله » اشتهر بدرس هذه التفاعلات واكتشاف قوانينها . ولا تزال القوانين المذكورة تعرف باسمه ، وتسمى « قوانين برتوله » .

وأما التجارب الأخيرة فهي تجارب كهربائية تقضي توليد الكهربائية الساكنة عن طريق الدلك بالتدوير ، ثم تفريغ تلك الكهربائية بصور شتى ، وفي الأخير اظهار تأثير هذا التفريغ في جسم الانسان .

وأما التجربة التي تتقدم هذه التجارب الكهربائية ، فمن الواضح الجلي أنها تتعلق باشتعال الهيدروجين .

يلاحظ من هذا الوصف ، أن الجبرتي قد شاهد هذه التجارب بعيون « الرجل المدقق » الذي ينتبه إلى جميع التفاصيل ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن مبادىء العلوم الضرورية لتفسير ما شاهده بالعيان . إنه شاهد هذه التجارب مشاهدة « المتفرج المتحير » الذي يشاهد لأول مرة الأعمال الخارقة للعادة التي يقوم بها بعض المشعوذين في بعض الصالات أو على بعض المراسح ، لأنه أنهى وصفه لهذه المشاهدات بقوله : « لا يسعه عقول أمثالنا » .

إنني أعتقد أن هذه الكلمة التي صدرت عن قلم رجل مثقف ومفكر مثل

---

(١٦) الجبرتي ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

الجبرتي ـ بعد هذه الأوصاف الدقيقة ـ لا تترك لزوماً لأي تعليق أو تفسير .

وأرى أن الذين يزعمون وجود علاقة بين الأبحاث العلمية التي قام بها علماء الحملة الفرنسية وبين النهضة المصرية لا يستندون إلى أي دليل معقول .

قضية المطبعة العربية

كثيراً ما يشير المؤلفون والمدرسون ـ في صدد البرهنة على تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية ـ إلى أن الحملة المذكورة ادخلت إلى مصر أول مطبعة عربية ، ويزعمون بأنه قد ترتب على ذلك نتائج ثقافية خطيرة .

وبينهم من يعزز هذا البرهان بقوله : « إن هذه المطبعة صارت أساساً لمطبعة بولاق الشهيرة » ، ويرجع بذلك فضل تأسيس المطبعة الأميرية المصرية أيضاً إلى الحملة الفرنسية .

غير أن هذه القضية تحتاج إلى البحث والتأمل بصورة جدية .

أولاً : يجب أن يلاحظ أن المطبعة المذكورة كانت في حقيقة الحال آلة من آلات السيطرة والاستعمار ، نقلت إلى مصر بغية طبع المناشير والأوامر والتنبيهات التي توجه إلى الناس ، ولم يطبع رجال الحملة بهذه المطبعة شيئاً يفيد العلم والثقافة في البلاد .

ثانياً : إن الذين زعموا « أن المطبعة العربية التي أتت إلى مصر مع الحملة الفرنسية بقيت في مصر بعد جلاء جيوش الحملة » وأنها « صارت بعدئذ أساساً لمطبعة بولاق الشهيرة في عهد محمد علي الكبير » لم يستندوا ـ في زعمهم هذا ـ إلى أي أساس صحيح .

فكل الوثائق تدل بصراحة على أن المطبعة المذكورة لم تبق في مصر ، بل أعيدت إلى فرنسا ـ مع الجيش ومعداته ـ عند الجلاء[١٧] .

أما مطبعة بولاق ، فمن المؤكد أنها جلبت في عهد محمد علي من ايطاليا على يد شاب عربي مقدام ، وهو « نيقولا مسابكي » من أهل بيروت[١٨] .

ولهذه الأسباب والملاحظات ، أنا لا أرى أي مبرر كان ، لذكر « مطبعة الحملة العسكرية » بين العوامل الفعالة في النهضة المصرية .

---

(١٧) ابراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية (القاهرة : بولاق ، المطبعة الاميرية ، ١٩٤٢) ، ص ١٤ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

وفضلاً عن ذلك ، هناك حقائق ثابتة أخرى ، لا يجوز أن تغرب عن البال في هذا المضمار :

إن المطبعة المذكورة لم تكن أول مطبعة تطبع بالحروف العربية ، ولا كانت أول مطبعة تطبع باللغة العربية . فإن الطباعة العربية كانت قد خرجت إلى حيز الوجود - في أوروبا - منذ عدة قرون . حتى أن نابليون نفسه كان نقل المطبعة المذكورة من روما ، كما أن القائم على المطبعة كان من أبناء العرب المقيمين في روما . إنه كان من أهالي ديار بكر - وأما اسمه فكان فتح الله . .

ومن المؤكد أن المطبعة العربية التي تأسست في روما بدأت تطبع كتباً عربية منذ سنة ١٥١٤ على أقل تقدير . وقد طبعت المطبعة المذكورة ، خلال القرن السادس عشر ، عدة كتب علمية ، علاوة على الكتب الكثيرة المتعلقة بالديانة المسيحية . وكان من جملة هذه الكتب : **الكافية لابن الحاجب ، والقانون في الطب لابن سينا ، وتحرير أصول لاقليدس في الهندسة لنصير الدين الطوسي** .

ولا مجال للشك في أن هذه الكتب المطبوعة كانت ترسل إلى الأسواق الشرقية ، وتباع فيها .

ومما يؤيد ذلك ، أن التواريخ العثمانية تذكر فرماناً صادراً من السلطان مراد الثالث - بتاريخ سنة ست وتسعين وتسعمائة هجرية ، أي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بعد الألف ميلادية - يأمر الولاة والقضاة والحكام والأمراء - في جميع أنحاء السلطنة - بإباحة توريد وبيع - « الكتب المعتبرة المطبوعة بالعربية أو الفارسية »[١٩] .

وكان هذا الفرمان قد صدر بناء على عريضة قدمها التاجران المسميان « برانتون » و « أوراسيو ولد بانديني » .

ومما يجدر بالذكر أن نص هذا الفرمان مطبوع في ذيل « كتاب الهندسة » الآنف الذكر . ويستفاد من غلاف الكتاب[٢٠] . إنه طبع في روما سنة ١٥٩٤ ميلادية ، أي قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، بمدة تزيد عن قرنين كاملين !

وأما في القرن السابع عشر ، فقد زاد عدد المطابع العربية في مختلف البلدان الأوروبية ، ومن المؤكد أنه كان يوجد عندئذ أمثال هذه المطابع في البندقية ، ولندن ، وفيينا أيضاً .

---

(١٩) Selim Nuzhet Gerçek, *Turk matbaacilligi*, p. 23

(٢٠) صورة فوتوغرافية Ibid., 8 inci vesika

هذا ، ومما تجب الاشارة إليه ـ علاوة على كل ما سبق أن الطباعة بالحروف العربية كانت دخلت عاصمة الدولة العثمانية أيضاً ، قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، بمدة تقرب من ثلاثة أرباع القرن .

وكان بين الكتب التي طبعتها أولاً « دار الطباعة » المؤسسة في « البلدة الطيبة قسطنطينية ، صانها الله عن الآفات والبلية » المعجم المعروف « **صحاح الجوهري** » وقد تم طبع الكتاب المذكور ـ مع ترجمته إلى التركية ـ سنة **١١٤١** هجرية أي **١٧٢٩** ميلادية .

وكان بين الكتب التي طبعت في السنة التالية « تاريخ » عنوانه « **درة اليتيمة في أوصاف مصر القديمة** » وضعه « السهيلي » من كتاب « **ديوان مصر القاهرة** »[٢١] وقد طبع هذا الكتاب مع رسالة مذيلة له بقلم المؤلف نفسه عن « **تاريخ مصر الجديدة** » سنة **١١٤٢** هجرية المقارنة لسنة **١٧٣٠** ميلادية .

ومن المؤكد أن السفارة الفرنسية نفسها كانت أسست في القسطنطينية مطبعة تطبع بالحروف العربية ، قبل الحملة الفرنسية على مصر بمدة غير قصيرة . وقد طبعت المطبعة المذكورة ـ سنة ١٧٨٦ ـ كتاباً بالعنوان التالي :

أصول المعارف في ترتيب الأوردو وتحصينه مؤقتاً من تأليف مهندس ده لافيت قلاده المرسل ـ من طرف فرنسا للدولة العلية ـ العثمانية والمعلم في المهندسخانة ـ الكائن بدار السلطنة السنية .

ويلاحظ على غلاف الكتاب عبارة تصرح بأنه طبع « بدار الطباعة الكائنة في بيت ايلجي دولة الفرنساوية ـ في قسطنطينية ـ سنة ١٢٠١[٢٢] .

وفي الأخير ، يجب أن يلاحظ أن الطباعة كانت دخلت البلاد العربية نفسها ، قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ، بمدة طويلة .

فكان يوجد مطبعة عربية واحدة في حلب ، وأخرى في الشوير .

وبعض المكتبات العامة تحتفظ بإنجيل عربي مطبوع في مدينة حلب المحمية . سنة ألف وسبعمائة وستة مسيحية .

ويظهر من ذلك أن المطبعة التي أتت بها الحملة الفرنسية إلى مصر ، لم تكن أولى المطابع العربية ، حتى في البلاد العربية نفسها .

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٧٠ و٧١ .

(٢٢) Ibid., 37 incl Veslka.

ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ، أن « فرانسوا شارل رو » الذي ألف كتاباً عن حكم نابليون في مصر ، يعترف بذلك صراحة ، إذ أنه يقول ـ عندما يذكر زيارة بعض المصريين للمطبعة التي أتت بها الحملة : « إن الشيخ محمد القاضي الذي كان شاهد مطبعة القسطنطينية والسوريين الذين كانوا يعرفون المطبعة الموجودة في دير ماروني بلبنان . . سلموا بأن مطبعة القاهرة كانت أرقى منها . . »[٢٣] .

وبعد سرد وتعداد هذه الحقائق الثابتة ، أعتقد أنه يحق لي أن أسأل : « ماذا يبقى من قيمة للمطبعة التي أتت بها الحملة الفرنسية إلى مصر ، من وجهة تاريخ الثقافة العربية ؟ » كما أنه يحق لي أن أقول بلا تردد :

إن ذكر المطبعة العربية التي أتى بها نابليون إلى مصر ـ لتنفيذ غايته العسكرية والاستعمارية ـ بين العوامل الفعالة للنهضة المصرية والنهضة العربية ، مما لا يقره العقل والمنطق ، ولا تسوغه الحقائق والوقائع . . بوجه من الوجوه .

قضية انتشار الثقافة الفرنسية

يحاول بعض المؤلفين البرهنة على شدة تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية ، بقولهم : « إن مصر لا تزال متأثرة بالثقافة الفرنسية وذلك يدل دلالة قاطعة على عمق تأثير الحملة النابوليونية » .

وقد قال أحد المؤلفين في هذا الصدد ، ما نصه بالحرف :

« كان للجهود التي بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر في مستقبل مصر الثقافي والفكري . إذ أن مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها في هذين الميدانين . أصبحت مصر ميداناً خصباً للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسي . وأصبح الأدب الفرنسي أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى نفوسهم . وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة والفكر عند زعماء النهضة والثقافة في مصر . وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن الانكليز لم يفلحوا في محاربته والقضاء عليه ، على الرغم مما بذلوا من جهود ، منذ احتلالهم لمصر » .

« وهذا ـ في حسابنا ـ أعز آثار الحملة الفرنسية وأزكى ثمراتها » .

إن هذه الملاحظات والمحاكمات تبدو ـ في الوهلة الأولى ـ قوية وحاسمة . غير أن قليلاً من التأمل في حقائق الأمور يكفي لزلزلتها ، وشيئاً من التوسع في بحث الوقائع يكفي لهدمها من أساسها :

---

(٢٣) Charles-Roux, *Bonaparte, gouverneur d'Egypte*, p.152.

أنا لا أنكر أن الثقافة الفرنسية أثرت في مصر تـأثيراً كبيـراً ، وأسلم بأنها فـاقت سائر الثقافات من وجهة هذا التأثير .

غير أني أرى من الضروري أن أتساءل ـ في الوقت نفسه : « فهل كـان ذلك من جراء الحملة النابوليونية المعروفة ؟ » .

إذا وسعنـا آفاق أنـظارنا ، وشملنـاها إلى سـائر أقسـام الشرق الادنى ، وجدنـا بسهولة الجواب الحاسم لهذا السؤال :

إن الثقافة الفرنسوية انتشرت في سائر أقسام الدولة العثمانية ، وأثرت فيها أيضاً تأثيراً كبيراً . ونستطيع أن نؤكد أن سيادة هذه الثقافة عـلى مصر ، لم تكن في يـوم من الأيام أشد وأقوى من سيادتها على استانبول وأزمير وسلانيك مثلاً .

هذا ، ولم تنحصر سيادة الثقافة الفرنسيـة على الممالك العثمـانية وحـدها . بـل تعدت ذلك إلى الممالك المجاورة لها أيضاً . ومما لا شك فيه أن هذه الثقافة سائدة الآن حتى على إيران .

ولا حـاجة لبيـان أن البلاد التي ذكـرتها آنفـاً لم تتعـرض قط إلى حملة عسكـريـة فرنسية ، كـالتي كانت ذهبت إلى مصـر ، وذلك يـدل دلالة صـريحة ، عـلى أن انتشار الثقافة الفرنسية في الشرق الأدنى ، حدث بتأثير عوامل عامة وعميقـة لا تمت بصلة إلى الحملة النابوليـونية التي انحصـرت بمصر وحـدها ، والتي لم تمكث فيهـا أيضاً غـير مدة قصيرة جداً .

فأعتقد أنني لا أكون من المغالـين إذا قلت : « إن مصر أصبحت ميـداناً خصبـاً للثقافة الفرنسية والعلم الفـرنسي ، ليس من جراء مجيء الحملة الفـرنسية إليهـا ، بل من جراء جلاء الحملة المذكورة عنها » .

ولا أكون من المخطئين ، إذا ادعيت : أن الأدب الفرنسي لما أصبح أحب ألوان الآداب إلى المصـريين وأقـربها إلى نفـوسهم ، لو لم تفشـل الحملة الفرنسيـة فتضطر إلى الجلاء عن مصر ، قبل أن تمضي مدة طويلة على احتلالها .

قصة حجر الرشيد

وكثيـراً ما يحـاول المؤلفون أن يـدعموا النـظريـة التي نحن بصـددهـا ، بقضيـة اكتشـاف الحجر الأثري المعروف باسم « حجر الرشيد » ، وذلك خلال اشتغـال الجنود الفرنسيين بحفر الخنادق حول مدينة « الرشيد » .

إنهم يقـولـون : أن الحجـر المـذكـور قـد كشف النقــاب عن أسـرار الكتــابـة

الهيـروغليفية ، وهـذا الكشف أدى إلى قراءة كتـابـات المصـريـين القـدمـاء ، وضمن الاطلاع على تفاصيل تاريخهم المجيد وحضارتهم الراقية ، وأصبح بذلك عنصـراً فعالاً جداً في النهضة المصرية .

وقد قال أحد المؤلفين ـ في هذا الصدد ما يلي :

« كان هذا الكشف ـ في حسابنا نحن المصريين ـ أجلّ نتائـج الحملة الفرنسيـة وأبعدهـا أثراً : أنار للعالم ناحية أطبق عليها الظلام وسادها السكـون ، وأخرج إلى النـور فقرة مفقـودة كان لا بـد من العثور عليها حتى تستقيم سيـرة الحضارة متصلة الحلقات ، موصـولة الفقـرات ، وأنار لمصـر سبيلها فعرفت نفسها ومقامها بين أمم التاريخ » .

غير أني أرى من الضروري أن ألفت أنظار الذين يـرون هذا الـرأي إلى الحقائق التالية :

إن حجـر الـرشيـد لم يكشف النقـاب عن أسـرار الكتـابـة الهيـروغليفيـة كشفـاً مباشراً . بل أن حل الرموز المحفورة على الحجر المذكور ، لم يتيسر إلا بعد مرور مـدة تزيد على عشرين عاماً .

والباحث الشهير « شامبوليون » الذي حل رموز الكتابة الهيروغليفية ـ لأول مرة ـ لم يتوصل إلى ذلك لمجرد ملاحظة الحجر المذكور ، بل تـوصل إلى ذلـك بعد دراسـات ومقارنات دقيقة وطويلة ، تناولت ملاحظة خصائص اللغة القبطيـة ، مع مقـارنة عـدد كبـير من الاشارات الهيـروغليفية المنحـوتة عـلى مختلف الآثـار القـديمـة المنقـولـة وغـير المنقولة .

ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد : أن شامبو ليون ولد سنـة ١٧٩٠ ، فكان في الثامنة من عمره في تاريخ نزول الحملة الفرنسية إلى القطر المصري . زد على ذلك أنـه لم يـزر مصر إلا سنـة ١٨٢٨ ، أي بعد مـرور أكثر من ربـع قرن عـلى تـاريـخ جـلاء الجيوش الفرنسية عن القطر المذكور

أفـلا يكون من الغـريب ـ والحـالـة هـذه ـ أن يقـال أن حـل رمـوز الكتـابـات الهيروغليفية كان من اجلّ نتائج الحملة الفرنسية ؟ .

هذا ويجب أن لا يغرب عن البال أن العلماء كانـوا تمكنوا من حـل رموز الكتـابة الفارسية القديمة ، قبل أن يتمكنوا من قراءة الكتابات الهيروغليفية . كما أنهم توصلوا إلى حل رموز الكتابات المسمارية واللغات السومرية والآشورية والبابلية ، بعد مدة من الزمن . وقد تمت جميع هذه الاكتشافات الهامة ، دون أن تـذهب إلى هضبة ايـران ولا

إلى بلاد ما بين النهرين حملات عسكرية مثل الحملة النابليونية التي ذهبت إلى وادي النيل .

ولهذه الملاحظات كلها ، نستطيع أن نقول : إن العلاقة المزعومة بين أعمال الحملة الفرنسية وبين قضية قراءة الخطوط الهيروغليفية ، لهي من نوع العلاقات العرضية ، التي لا يجوز أن يعبأ بها في ا لأبحاث العلمية .

أسطورة اللقاء الأول

يقول بعض المؤلفين ـ في جملة ما يقولونه للبرهنة على علاقة النهضة المصرية بالحملة الفرنسية ـ أن الحملة المذكورة كانت بمثابة اللقاء الأول بين الشرق والغرب ، فكانت لذلك عميقة الأثر في أحوال الشرق . وهي شديدة الشبه ـ من هذه الوجهة ـ بفتوحات الاسكندر المعلومة في القرون الأولى .

غير أني أرى من الضروري أن يلاحظ في هذا الباب الحقائق التالية :

إن مصر لم تكن قبل الحملة الفرنسية منعزلة عن العالم كما كانت اليابان مثلاً . بل أنها كانت ـ بطبيعة مركزها الجغرافي ـ على اتصال دائم مع العالم الغربي من جهة والعالم الشرقي من جهة أخرى . ونستطيع أن نقول إنها كانت حلقة الوصل بين بعض البلاد الغربية وبين بعض البلاد الشرقية .

وكان في مصر قناصل عديدون وأجانب كثيرون . حتى أن الجبرتي يصف في يومياته هذا الصنف من السكان بقوله « الافرنج البلديين » ، ويذكرهم عدة مرات في مختلف المناسبات . ومن المؤكد أن نابليون نفسه استفاد كثيراً من الفرنسيين الذين كانوا مقيمين في مصر ، حتى أنه قد عهد إلى ثلاثة منهم بمهمة المراقبة الرسمية على أعمال « الديوان المؤلف من بعض الوجوه والأعيان » .

ثم أن مصر كانت ـ عندئذ ـ جزءاً من اجزاء الدولة العثمانية تشترك في حياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية اشتراكاً فعلياً ، مثل اشتراك سائر الولايات العثمانية . ويخبرنا الجبرتي ـ عندما يذكر الوقائع التي حدثت خلال سنة اثنتين وعشرين ومائة والف ـ أنه ورد « أمر بطلب ثلاثة آلاف من العسكر المصري » للاشتراك في محاربة الروس[٢٤] . كما أنه يخبرنا ـ عندما يذكر الوقائع التي حدثت خلال سنة اربع وعشرين ومائة وألف ـ أن العساكر عادوا من هذا السفر[٢٥] . ثم يعود ويذكر ورود أمر جديد

---

(٢٤) الجبرتي ، غرائب الآثار في التراجم والاخبار ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
(٢٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ .

« بطلب العسكر » مرة ثانية بسبب « نقض المهادنة »[٢٦] .

ويذكر الجبرتي ايضاً ـ بين وقائع السنة الثامنة والأربعين والماية بعد الألف ـ ورود اغا وبيده مرسوم بطلب ستة آلاف عسكري لمحافظة بغداد . كما أنه يذكر ـ بين وقائع السنة الحادية والتسعين والمائة بعد الألف ـ ورود أمر بطلب عسكر لسفر العجم[٢٧]

ومن المعلوم أن الدولة العثمانية كانت شديدة الاحتكاك ومتواصلة اللقاء بالغرب منذ قرون عديدة .

وكانت اسست مدرسة للهندسة العسكرية واخرى للشؤون البحرية ، قبل الحملة النابوليونية بمدة غير قصيرة ، وكانت عهدت بتنظيم شؤون هاتين المؤسستين الهامتين إلى ضباط أوروبيين ، وكان بينهم الفرنسي والانكليزي والسويدي .

وكان قد ترجم وطبع بعض الرجال ، بعض المؤلفات المتعلقة بفنون الحرب ، كان من جملتها كتاب في فن الحرب ، وآخر في العلم ، وآخر في فن الحصار . وكان هناك كتاب « في ترتيب الأوردو وتحصينه مؤقتاً » ، وكتاب آخر « في وجه تصفيف سفائن الدونما وفن تدبير حركاتها » .

فكيف يجوز أن يقال ـ والحالة هذه ـ أن الحملة النابوليونية على مصر كانت بمثابة اللقاء الاول بين الشرق والغرب ؟ .

هذا ، ويجب أن لا يغرب عن البال ، أن نابليون نفسه كان فكر في الذهاب إلى القسطنطينية ، للدخول في خدمة الدولة العثمانية ، تلبية للطلبات التي كانت اذيعت بواسطة السفارات . وإذا كانت الظروف قد حملته على العدول عن هذه الفكرة ، فإنها لم تحل دون ذهاب غيره من الضباط الفرنسيين للانخراط في سلك الجيش العثماني . ومن المعلوم أنه كان بينهم عدد من الذين كانوا رجحوا الخروج من فرنسا على البقاء فيها تحت رحمة الثورة الكبرى .

ومن الامور المؤكدة أن نابليون عندما حاصر مدينة عكا ، بعد احتلال العريش وغزّة ويافا ، علم أن رئيس الضباط الذين كانوا يشتغلون بتحصين المدينة ، ويضعون الخطط الكافلة للدفاع عنها ، كان ضابطاً افرنسياً من رفاق صفه في المدرسة الحربية ! وكان من غرائب الصدف ، أن الظروف ساقت كل واحد من هذين الرفيقين إلى الشرق من طريق خاص ولغاية خاصة ، فقد ذهب الاول إلى القسطنطينية ضابطاً

(٢٦) الجبرتي، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨ .

يخدم الدولة العثمانية باصلاح مدفعيتها . وذهب الثاني إلى مصر ، قائداً عاماً لحملة تسعى إلى استعمارها . وقد قربت حروب الشام المسافة التي كانت تفصل بين هذين الضابطين ، إلى أن اصبحا في طرفي اسوار عكا ، احدهما يأمر على رأس المحاصرين ، والثاني يعمل في عداد المدافعين !

وهذه الحالة لم تكن فريدة في بابها . بل أن المؤلفات التي تصف الحركات العسكرية التي جرت في الشام ، تذكر اسماء غير واحد من الضباط الفرنسيين الذين حاربوا الحملة الفرنسية ، في صفوف الجيوش العثمانية ، إنهم كانوا ممن التحقوا بخدمة الدولة المذكورة ، ووصلوا الشام عن طريق القسطنطينية ، وذلك لعدم تحيزهم للثورة الكبرى وخروجهم عليها .

وأنا لا اشك في أن كل من يأخذ بنظر الاعتبار هذه الحقائق يدرك بسهولة أن القول بأن الحملة الفرنسية على مصر ، كانت اللقاء الاول بين الشرق والغرب مما لا يتفق مع اظهر واثبت وقائع التاريخ ، بوجه من الوجوه .

واما تشبيه حملة نابليون على مصر بحملة الاسكندر على الشرق ، فهو ايضاً لا يستند إلى اي اساس صحيح .

لأن حملة الاسكندر على الشرق ، كانت تكللت بالنجاح ، والحكم الذي نشأ عنها استمر عدة قرون ، فترك لذلك آثاراً عميقة في احوال البشر . في حين أن حملة نابليون على مصر لم تكلل بالنجاح الا لمدة قصيرة جداً ، والحكم الذي استند إلى هذه الحملة لم يستمر الا ثلاث سنوات . فما كان يمكن أن تترك آثاراً قابلة للقياس مع الآثار التي تركتها حملة الاسكندر بطبيعة الحال .

قضايا التنظيم والعمران

وكثيراً ما يذكر المؤلفون والمؤرخون « بعض الاعمال العمرانية والتنظيمية » في عداد الدلائل التي تبرهن على تأثير الحملة في النهضة المصرية .

إني اعتقد أن كل ما قيل في هذا الصدد ايضاً يحتاج إلى درس وتمحيص :

يجب علينا أن نفكر ملياً : ما هي حقيقة هذه الأعمال العمرانية والتنظيمية ؟ ماذا كان القصد الاصلي منها ؟ ماذا نتج عنها ؟ وما كان تأثيرها الفعلي في البلاد ؟ ماذا تم منها فعلاً خلال وجود الحملة في مصر ؟ وماذا بقي منها بعد الجلاء ؟

ومن البديهي أنه لا يسوغ لنا أن نجزم بتأثير هذه الأعمال التنظيمية والعمرانية

في النهضة المصرية ، إلا إذا تأكدنا من أنها استمرت بعد الجلاء ، واتصلت بحركات النهضة بصورة فعلية .

وعندما نبحث في الأمور على ضوء هذه المبادىء نضطر إلى التسليم بأن هذه المزاعم لا تستند إلى اساس متين .

مثلاً يذكر بعض المؤلفين « التنظيمات الادارية » التي قام بها الفرنسيون في مصر ، ويشيرون بوجه خاص إلى الدواوين التي ألّفوها من الاهلين ، في القاهرة وفي الملحقات ، ويقولون أن ذلك كان بمثابة « اشراك الاهلين في ادارة شؤون البلاد » ، بل « تعويدهم على مبادىء الحياة النيابية » .

غير أني ارى من الضروري أن اتساءل ـ تجاه هذه الاقوال :

ـ ماذا كانت السلطة المخولة لهذه الدواوين ؟ وكيف كان يعين اعضاؤها ؟ وهل خدمت الدواوين المذكورة البلاد خدمة حقيقية ؟ وهل استمرت وواصلت اعمالها بعد جلاء الفرنسيين عنها ؟

إن اجوبة هذه الاسئلة تغير منظر القضية تغييراً اساسياً :

إن مهمة هذه الدواوين كانت ـ من حيث الاساس ـ تنفيذ أوامر الفرنسيين ، تحت مراقبة مندوبيهم ، وفقاً للتعليمات الموضوعة من قبلهم ، واما اعضاء هذه الدواوين فكانوا يعينون تعييناً ، بعد انتخابهم من قبل الحكام العسكريين . فكانت التعليمات الصادرة إلى هؤلاء الحكام تأمر بانتخابهم من بين الوجوه والعلماء « الذين يتمتعون بنفوذ قوي على الاهلين » مع ملاحظة كيفية قبولهم للفرنسيين » مما يدل دلالة صريحة على أن الغرض الاصلي من هذه التشكيلات والتنظيمات كان « الاستفادة من نفوذ هؤلاء على الشعب لتنفيذ مآرب الفرنسيين بعد التأكد من خضوعهم وموالاتهم للادارة الفرنسية » .

فكيف يجوز لنا ـ والحالة هذه ـ أن نرى في « تأليف هذه الدواوين » ما يمكن أن يعتبر من نوع « تعويد الناس على الحياة النيابية » وما يمكن أن يذكر بين عوامل « النهضة المصرية » .

ويذكر احد المؤلفين ـ بين مآثر الحملة الفرنسية ـ الاعمال التنظيمية التي باشروها في جزيرة الروضة ، ويشير بوجه خاص إلى الشارع المستقيم الذي اوجدوه لوصل الجزيرة بالمدينة ، وإلى اشجار السيسبان التي غرسوها في طرفي الشارع المذكور .

غير أني أرى من الضروري أن الفت الانظار :

اولا : إلى كثرة الاشجار والبساتين والمباني التي خـربها ودمرها الفرنسيون في مختلف انحاء القاهرة ـ مقابل ما انشأوه وغرسوه في جزيرة الروضة وشارعها .

وثانياً : إلى الغرض الاصلي الذي كان يهدف إليه الفرنسيون من مشروع جزيرة الروضة وشارعها .

لقد لاحظ نابليون ـ بعد ثورة القاهرة ـ أن تفرق الفرنسيين في الحارات المختلفة من المدينة يولد مشاكل كبيرة ، فقرر أن ينشىء مدينة جديدة منفصلة عن القاهرة تخصص لإسكان الجالية الفرنسية ، تجعلها في مأمن من تعرضات الاهلين خلال الثورات التي قد تحدث في المستقبل ، وتسهل مهمة الجيش خلال تلك الثورات . ورأى أن جزيرة الروضة هي اوفق الاماكن لتشييد هذه المدينة الفرنسية[٢٨] .

فإذا جاز للفرنسيين أن يباهوا بالمشروع الذي وضعوه لتنظيم تلك الجزيرة ، وبالاشجار التي غرسوها هناك ، دون أن يذكروا شيئاً مما خربوه ودمروه بوجه عام ، فهل يجوز للمصريين ـ والعرب اجمعين ـ أن يقتدوا بهم في هذا المضمار وأن ينظروا إلى القضية بهذا « المنظار الفرنسي » الذي يخفي المعايب عن الانظار ، ويغالي في تعظيم المحاسن إلى اقصى حدود المغالاة ؟

قد يسألني سائل : أفكانت « تخريبات الفرنسيين » التي ذكرتها الآن عديمة الفائدة تماماً ؟ ألم تساعد التخريبات على تنظيم مدينة القاهرة مؤخراً ؟

وإما أنا ، فاقول بلا تردد ـ جواباً على هذا السؤال ـ اني اعرف أن الحرائق التي تنشب والزلازل التي تحدث في بعض المدن ايضاً ، قد تساعد على توسيع الشوارع وتنظيم الحارات ، « بسهولة كبيرة ونفقات قليلة » ، فهل يترتب علينا ـ بالنظر إلى ذلك ـ أن نتغنى بما للزلازل من افضال ، وبما للحرائق من حسنات ؟

التأثيرات « غير المباشرة »

يهتم بعض المؤلفين بالبحث عن التأثيرات التي تجري عن طريق « غير مباشرة » ، ويزعمون أن الحملة الفرنسية كانت شديدة التأثير جداً من هذه الوجهة ، لأنها اظهرت للملأ ضعف الدولة العثمانية ، وكسرت شوكة امراء المماليك وقوت مكانة علماء الدين ، وكل ذلك ساعد على نشوء الفكرة الاستقلالية في البلاد ، وعبّد السبل امام حركات النهوض والانقلاب .

(٢٨) Charles-Roux, *Bonaparte, gouverneur d'Egypte*, p. 251.

غير أن جميع هذه الملاحظات تفقد قوتها فتنهار من نفسها عندما ندرس الامور دراسة جدية بنظرات علمية ، متحررة عن سيطرة المزاعم الفرنسية .

فأولاً : إن ضعف الدولة العثمانية ، لم يكن من الامور الخافية على الناس قبل الحملة الفرنسية ، فالانكسارات الفظيعة التي كانت منيت بها الجيوش العثمانية في حروبها الاخيرة مع الجيوش الروسية كانت تعلن ذلك للملأ بأوضح شكل واجلى بيان .

ومن المعلوم أن آثار هذا الضعف كانت قد تجلت في الميادين المصرية نفسها ، عندما قام علي بك الكبير على الدولة العثمانية من مصر ، ثم ارسل جيشاً لفتح اليمن والحجاز ، واستولى عليهما بسهولة ، وصار يلقب بلقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » ، ثم ارسل قوة عسكرية اخرى لفتح بلاد الشام ، كما اوفد مندوبين للمفاوضة مع البندقية وروسيا ، بغية عقد محالفات تضمن مصالح الطرفين . وقد حدث كل ذلك ، قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بمدة تزيد على ربع القرن .

ويجب الا يغرب عن البال في هذا الصدد ، أن امثال هذه الحركات الانفصالية والاستقلالية ، كانت تحدث في مختلف اقسام البلاد العثمانية ، من حين إلى آخر . فقد قام ولاة عديدون ـ بعضهم في القسم الاوروبي من اراضي الدولة ، وبعضهم في القسم الآسيوي منها ـ يعلنون انفصالهم عن الدولة العثمانية ويستقلون في ادارة شؤون ولاياتهم استقلالاً تاماً ، ثم يسعون إلى توسيع دوائر احكامهم هذه ، بالاستيلاء على الولايات المجاورة لولايتهم الاصلية . والتواريخ العثمانية تذكر باسهاب تفاصيل الثورات التي قام بها احد الولاة في اقصى الغرب من ولايات البلقان ، وحاكم ثان على ضفاف الدانوب ، وثالث في بلاد ما بين النهرين .

ولا حاجة إلى القول بأن حدوث ثورة علي بك الكبير في مصر قبل الحملة الفرنسية ، وحدوث ثورات عديدة في مختلف اقسام البلاد العثمانية ـ بعد الحملة الفرنسية على مصر ، وقبل قيام محمد علي باشا على مصر ـ مما يدل دلالة قاطعة على أن عوامل قيام هذه الثورات وهذه الحركات الانفصالية ، تعود إلى احوال الدولة العثمانية ، ولا تمت بصلة ما إلى الحملة الفرنسية .

واما القول بأن الحملة الفرنسية قوت نفوذ علماء الدين وساعدت بذلك على استقلال مصر ، فذلك ايضاً من الاقوال التي لا تستند إلى اي اساس صحيح .

فان التواريخ العثمانية تشهد على الدوام بأن علماء الدين كانوا يتمتعون بنفوذ قوي جداً ، حتى في عاصمة الدولة نفسها . والتواريخ المصرية ايضاً تعطي امثلة كثيرة

على نفوذ العلماء ، وتأثيرهم في شؤون الحكومة والشعب ، قبل الحملة الفرنسية بمدة طويلة .

فاننا نجد ادلة قطعية على ذلك ، في يوميات الجبرتي ايضاً .

يصف الجبرتي ـ بين وقائع سنة احدى وتسعين ومائة والف ـ تفاصيل النزاع الذي قام بين مشايخ الازهر وبين امراء المماليك ، ويبين كيف أن هذا النزاع انتهى بانتصار العلماء على الامراء .

ومن المفيد أن ننقل هنا بعض الاسطر مما كتبه الجبرتي في هذا الصدد :

« . . وصل الخبر إلى الشيخ الدردير واهل الجامع . فاجتمعوا في صبحها وابطلوا الدروس والأذان والصلوات ، وقفلوا ابواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الامراء ، واغلق اهل الاسواق القريبة الحوانيت . وبلغ الامراء ذلك . فارسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين .

« . . ذهب إلى ابراهيم أغا طائفة من مجاوري المغاربة ، وتبعتهم بعض العوام ، وبأيديهم العصي والمساوق ، وضربوا اتباع الأغا ورموهم بالأحجار »[29] .

ويصف الجبرتي ـ بين وقائع سنة تسع ومائتين والف ـ ما حدث بين الشيخ الشرقاوي وبين محمد بك الالفي بتفصيل تام .

فيجدر بنا أن نقرأ بامعان بعض الاسطر مما كتبه الجبرتي حول هذه القضية :

« إن الشيخ الشرقاوي له حصة في قرية بشرقية بلبيس . حضر اليها اهلها وشكوا من محمد بك الالفي ، وذكروا أن اتباعه حضروا اليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ؛ واستغاثوا بالشيخ . فاغتاظ الشيخ الشرقاوي من ذلك . وحضر إلى الازهر وجمع المشايخ ، وقفلوا ابواب الجامع . وامروا الناس بغلق الاسواق والحوانيت . ثم ركبوا في ثاني يوم ، واجتمع عليهم خلق كثير من العامة ، وتبعوهم إلى بيت الشيخ السادات ، وازدحم الناس على بيت الشيخ .

فقالوا : نريد العدل ، ورفع الظلم والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث التي ابدعتموها واحدثتموها »[30] .

ويظهر من التفاصيل التي يذكرها الجبرتي في يومياته بعد هذه الاسطر ـ والتي يؤيدها المؤرخ الرسمي العثماني جودت باشا في تاريخه المشهور : أن الازمة التي بدأت

(٢٩) الجبرتي ، غرائب الآثار في التراجم والاخبار ، ج ٢ ، ص ٩ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

بهذه الصورة ، قد استمرت ثلاثة ايام ، جرت خلالها مفاوضات ومناقشات كثيرة . وفي الاخير توسط الوالي بين الطرفين ، وحملهم على انهاء الخلاف ، بعد أن تعهد الامراء « أن يسيروا في الناس سيرة حسنة » ، وبعد أن وقعوا على وثيقة مكتوبة في هذا الشأن .

ويصف الجبرتي انتهاء الازمة بهذه العبارات والتفاصيل التي تستوقف الانظار :

« رجع المشايخ وحول كل واحد منهم وامامه وخلفه جموع عظيمة من العامة ، وهم ينادون : حسب ما رسم سادتنا العلماء ، بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطَّالة في مملكة الديار المصرية »(٣١) .

حدثت هذه الحوادث الهامة قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر . وقبل احتكاكها بالعلماء أو الامراء .

افليس من الغريب أن يعزو البعض ـ مع كل ذلك ـ إلى الحملة الفرنسية تأثيراً قوياً في « تقوية سلطة علماء الدين ، وكسر شوكة امراء المماليك » وأن يتخذوا ذلك برهاناً على خدمة الحملة الفرنسية للنهضة المصرية ؟

الحملة الفرنسية ومحمد علي باشا

من اغرب الادلة التي ابتكرها بعض المؤلفين لتأييد النظرية التي نبحث فيها ، قولهم :

« أن الاصلاحات التي قام بها محمد علي باشا في مصر ، كانت ملهمة من اعمال الحملة الفرنسية واغراضها . . » .

وقد قرأت في احد المؤلفات العربية المشهورة عن « تاريخ مصر الحديث » العبارات التالية بحروفها :

« نشأ محمد علي باشا في كنف الحملة الفرنسية . وقد فطن إلى اغراضها ، فعول على تحقيقها وتكوين دولة كبرى مستقلة في آسيا وافريقيا ، تكون مصر قاعدتها . . » .

يلاحظ أن الاحكام والمزاعم التي تتضمنها هذه العبارات مهمة وخطيرة جداً :

(أ) إن محمد علي باشا الذي اسس الدولة المصرية الحديثة ، وبعث روح النهضة فيها ، انما نشأ في كنف الحملة الفرنسية .

---

(٣١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(ب) ولهذا السبب ، فطن إلى اغراض هذه الحملة فعول على تحقيق هذه الاغراض .

(جـ) اما اغراض هذه الحملة الفرنسية واهدافها ، فكانت سامية جداً ، لأن انهاض مصر ، وجعلها قاعدة لدولة كبرى مستقلة ، تبسط جناحيها على قارتي آسيا وافريقيا ، كان من جملة هذه الاغراض السامية .

أنا لا استطيع أن اتصور مثالاً اوضح وافصح من هذا المثال ، لتبيان عمق « مهواة الغلط » الذي تنزلق اليه اقلام المؤلفين والمؤرخين عندما يعتمدون على ما يكتبه « أصحاب الاغراض من الأجانب » ، دون أن يشعروا بما في ذلك من خروج على الحقائق الثابتة ، وتخليط بين الوقائع الراهنة .

وهل من حاجة إلى التذكير بأن محمد علي باشا انما ذهب إلى مصر مع القوى العسكرية التي ارسلت اليها بغية طرد الفرنسيين منها ؟

وهل من حاجة إلى التأكيد بأن ذلك كان في السنة الاخيرة من السنين التي قضتها الحملة الفرنسية في الديار المصرية ؟

ولا شك في أن كل من يلاحظ هذه الحقائق الثابتة يفهم بداهة : أن محمد علي باشا لم يتصل بالحملة المذكورة ـ وبرجالها ـ الا في ساحات المحاربات الاخيرة ، وفي مواقف المخاصمات العنيفة .

فكيف يجوز أن يقال ـ مع ذلك ـ أن مع محمد باشا نشأ في كنف الحملة الفرنسية ؟

وكيف يجوز أن يبنى على مثل هذه الاسس الواهية نظرية تتعلق بمنابع وعوامل النهضة المصرية بوجه خاص والنهضة العربية بوجه عام ؟

خلاصة القول وخاتمة البحث

وخلاصة القول : إنني لم اصادف بين جميع الادلة والبراهين التي قرأتها في الكتب المختلفة اي برهان معقول ، يؤيد ـ بصورة منطقية ـ الرأي القائل بأن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الفعالة في النهضة المصرية .

يظهر أن هذا الرأي استولى على الأذهان ، من جراء اعتماد المؤلفين المؤرخين على ما كتبه بعض الفرنسيين في هذا المضمار .

ولا حاجة إلى القول بأن هؤلاء الفرنسيين كانوا بما كتبوه في هذا الشأن ،

مدفوعين بنزعة التبجح والمباهاة . إنهم كانوا يعملون بذلك على اشباع غرورهم القومي ، دون أن يلتفتوا إلى الحقائق والوقائع التي تناقض مزاعمهم هذه مناقضة تامة .

وقد تبنى بعض المؤلفين المصريين هذه الآراء والمزاعم ـ المنشورة في الكتب والمجلات الفرنسية ـ قبل درسها درساً انتقادياً وتمحيصها تمحيصاً علمياً . ثم اخذوا يبحثون عن ادلة جديدة ، تدعم هذه الآراء وتؤيد هذه المزاعم ، التي كانت قد تسربت إلى اذهانهم قبلاً .

وبعد ذلك ، اقتدى بهم عدد كبير من المؤلفين في مختلف الاقطار العربية ، وشاعت هذه الفكرة ـ بهذه الصورة ـ شيوعاً غريباً . .

وأما أنا ، فأستطيع أن أؤكد الآن ـ بعد الأبحاث الانتقادية التي سردتها آنفاً ـ أن علاقة النهضة المصرية بالحملة الفرنسية ، لا تتعدى قط حدود العلاقات الزمنية . ومن المعلوم أن أمثال هذه العلاقات ، لا تدل على الأسباب والمسببات .

إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد ـ بصيغة التأكيد ـ ينحصر فيما يلي : « أن النهضة المصرية ، حدثت بعد الحملة الفرنسية » .

لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك أبداً . ولكن ، هل يستطيع أن يدعي ـ مع ذلك ـ أن المدة المقصودة من لفظة « بعد » كانت قصيرة إلى درجة تسترعي البحث والاهتمام ؟ حتى ولو كانت هذه المدة قصيرة ، بل ضئيلة ، هل يستطيع أحد أن يستنتج من ذلك ، بطريقة منطقية ، أن الحملة الفرنسية كانت من عوامل النهضة المصرية ؟

من المعلوم أن حدوث حادثتين من الحوادث في وقت واحد ، أو في أوقات متقاربة متتالية ، لا يكون مبرراً للحكم بأن إحدى الحادثتين كانت من العوامل والمسببات التي أوجدت الأخرى . إذ من الممكن أن تحدث كل واحدة من الحادثتين من جراء أسباب خاصة بها ، مستقلة عن الأسباب الموجبة للأخرى ، كما أنه من الممكن أن تحدث الحادثتان من جراء عامل مشترك بينهما ، يستوجب حدوث الحادثتين في وقت واحد أو في وقتين متقاربين .

كلنا نعلم ، مثلاً ، أن عودة الخطاطيف واللقالق إلى البلاد المعتدلة ، وإيراق الأشجار وإزهارها في تلك البلاد ، من الأمور التي تحدث عادة في وقت واحد ، فهل يخطر على بال أحد منا أن يدعي ، بناء على ذلك : أن إيراق الأشجار حدث من جراء عودة الخطاطيف ، أو بالعكس إن عودة الخطاطيف كانت نتيجة من نتائج تفتح الأشجار ؟

وكلنا نعلم ، كذلك ، أن الديك يصيح ، عادة ، قبل طلوع الشمس . فهل يخطر على بال أحد منا أن يستنتج من ذلك : أن صياح الديك هو السبب الموجب لشروق الشمس ؟

إن السؤال الأخير ، يذكرني بالأسطورة التي خلدها « ادمون روستان » في تمثيليته المشهورة :

يتوهم الديك بأن الشمس تشرق بناء على صياحه هو ، فينتفخ زهواً وغروراً على سائر الحيوانات ، عندما يشهدهم على أن الشمس قد أشرقت فعلاً ، تلبية لندائه !

أنا لا أستغرب أبداً ، أن يتوهم بعض الكتاب ، من أبناء فرنسا ، « أن الحملة الفرنسية خدمت النهضة المصرية » . ولا أستغرب كذلك أن يتباهى هؤلاء بهذه الخدمة الموهومة ، مباهاة الديك الآنف الذكر ، الذي يرمز إلى أجدادهم الغاليين .

غير أني أستغرب استغراباً شديداً ، كيف يظهر بين كتاب العرب من يشارك ذلك الديك أوهامه ومزاعمه ، فينبري للتسبيح بذكر نعمه وأفضاله .

لأني أعتقد كل الاعتقاد ، بناء على الدلائل التي استعرضتها آنفاً ، أن العلاقة التي تربط النهضة المصرية بالحملة الفرنسية هي من نوع العلاقات التي تربط طلوع الشمس بصياح الديك !

عود إلى أسطورة تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية

يظهر أن أسطورة « تأثير الحملة الفرنسية في النهضة المصرية » لا تزال راسخة في بعض الأدمغة بجذور عميقة حتى أنها لا تزال تتمتع بحيوية ظاهرة ، تكسبها شيئاً من قوة التفريخ والتوليد أيضاً . .

ومن أغرب الأدلة على ذلك ، حديث قرأته أخيراً في مجلة الاذاعة المصرية الافرنجية ، تحت عنوان « تأثير حملة بونابارت في الفكر المصري والنفس المصرية ، بمناسبة مرور مائة وخمسين سنة على الحملة المذكورة » .

إن الحديث المذكور صادر من قلم كاتب مصري ، ومنشور باللغة الفرنسية . وهو يردد الآراء الشائعة عن « الفوائد التي جنتها مصر من الحملة الفرنسية » ، ويضيف إليها بعض الآراء الجديدة ، التي توسع نطاق هذه الفوائد توسيعاً كبيراً .

إنني كنت استعرضت الآراء الشائعة في هذا المضمار قبلاً ، وانتقدتها واحداً فواحداً .

غير أني وجدت في الحديث المذكور بعض الآراء الجديدة التي لم أطلع على أمثالها قبلاً . ولهذا رأيت من الواجب عليّ أن أعود إلى هذا البحث مرة أخرى ، لأنعم النظر في هذه الآراء أيضاً .

- ١ -

لقد جاء في فقرة من فقرات حديث الاذاعة المنشور في المجلة ما ترجمته حرفياً :

« إن بعض المؤرخين الذين رافقوا الحملة أطلعوا المصريين على التيارات الفكرية الفرنسية التي

مهدت السبل لثورة ۱۷۸۹ ، وأبانوا لهم مضامين المنشور المشهور عن « حقوق الانسان » . والمصريون الـذين وعوا (بهـذه الصورة) مـا لهم من حقوق ، لم يكتفـوا بالكفـاح في سبيـل نـوال هـذه الحقـوق فحسب ، بل أنهم ـ زيادة على ذلك ـ ثاروا على الفرنسيين أنفسهم ، عندما لاحظوا أن مـا يهدف إليـه هؤلاء في مصر ، إنما هو من النوع الاستعماري البحت . . »

نفهم من هـذه الكلمات : أن ثـورة المصريـين على الفـرنسيين ، حـدثت بتأثـير المعلومات التي تلقوها من بعض المؤرخين الافـرنسيين ، عن مبـادىء الثورة الفـرنسية وعن منشور حقوق الانسان ، ولو لم يطلع المصريون على ذلك لما ثاروا على الفـرنسيين أبداً ، ولاستسلموا استسلاماً تاماً . .

إن تعليل « الثورة » التي قامت على الفـرنسيين في مصـر ، بـ « اطلاع المصـريين على مبادىء الثورة الفرنسية وعلى مضامين حقـوق الانسان » ، من التعليـلات الغريبـة التي تستبعدها العقول منذ الوهلة الأولى ، لمخالفتهـا لكل مـا هو معلوم ومعـروف عن الدوافع التي تحمل الناس على مقاومة الاحتلال الأجنبي بوجه عام .

غير أني لا استحسن الركون إلى ما يرد إلى الذهن في الوهلة الأولى في مثل هـذه القضايا ، فـأرى من الضروري المبـادرة إلى درس القضية بنـظرة علمية حيـادية ـ مهـما بدت بعيدة عن المألوف والمعقول .

فلنبحث إذاً : من هم المؤرخون الفرنسيون الذين تولوا مهمـة اطلاع المصـريين على مبادىء الثورة الفرنسية ، وعلى منشور حقوق الانسان ؟ ماذا قال هؤلاء المؤرخون للمصريين ، ومن ترجم لهم المنشور المذكور ؟ ومن قـام بشرح هـذه المبادىء واذاعتهـا بينهم ، وكيف انتشرت هذه الآراء والمعلومات بين الناس ؟ وبأيـة طريقـة تغلغلت بين الجمـاهير الشعبيـة ، وكيف سيطرت عـلى مشاعـر رجال الـدين ، إلى أن أضـرمت في نفوس الجميع نيران الثورة على الفرنسيين ؟

هذا ، وكيف كان قابل المصـريون ـ في بـادىء الأمر ـ احتـلال بلادهم من قبـل الجيـوش الفرنسيـة ؟ هل حبـذوا هذا الاحتـلال ؟ هل صـدقوا الـدعايـة القـائلة بـأن الفـرنسيين إنمـا أتوا لتحـرير مصـر من نير الأتـراك والمماليـك ؟ ومتى أخـذوا يفهمـون مقاصد الفرنسيين من الاحتلال ، إذا لم يفهموها من بادىء الأمر ؟

وفي الأخـير : كم من الزمن انقضى إلى حـين حـدوث هـذا التـأثـير العميق في نفـوس المصريـين ؟ وبتعبير آخـر : كم كـانت المـدة التي مضت بـين دخـول الجيـوش الفرنسية إلى العاصمة المصرية وبـين ثورة المصـريين عـلى تلك الجيوش ، في العـاصمة المذكورة ؟

إن التفكير في كل واحد من الأسئلة المختلفة يحمل الذهن على الشك في صحة « التعليل » الآنف الذكر شكاً قوياً ، غير أن التأمل في السؤال الأخير ، يحول هذا الشك إلى اليقين ، ويحمل على الجزم ببطلان هذا التعليل .

لأن . . . من الحقائق الثابتة أن نابليون كان دخل القاهرة في ٢٤ تموز (يوليو) ، والثورة كانت قامت في المدينة المذكورة في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) وأن المدة التي مضت بين التاريخين المذكورين كانت أقصر من ثلاثة أشهر ! . .

ومعنى ذلك ـ على فرض صحة الرأي المسرود في الحديث الآنف الذكر ـ أنه خلال هذه الأشهر الثلاثة اطلع المصريون على مبادىء الثورة الفرنسية وعلى مضامين منشور حقوق الانسان اطلاعاً واسعاً ، وتشبعوا بتلك المبادىء تشبعاً عميقاً ، وتعصبوا لتلك الحقوق تعصباً شديداً . . حتى دفعهم ذلك إلى العمل والتضحية ، وحملهم على الثورة ضد من علمهم تلك المبادىء وعرفهم تلك الحقوق !

وكل هذا التأثير الفكري العميق الشامل قد تم خلال ثلاثة أشهر فقط !! .

أنا لا أظن أن أحداً يستطيع أن يدعي ذلك بصورة جدية ، إلا إذا قال بأن الحملة الفرنسية كانت معجزة من معجزات الدهر التي تخرق قوانين الطبيعة . . . ، وإلا إذا زعم بأن الكلمات التي نقلها مؤرخو الحملة ، كانت من الكلمات السحرية التي تشق الجبال وتفجر الأنهار ، وتخرج من الزهرة أميرة أو تحول الأميرة إلى حصان ! .

ـ ٢ ـ

وقد جاء في محل آخر من الحديث المذكور ما ترجمته حرفياً :

« إن الجبرتي ، الملقب بلقب « مؤرخ زمانه » ، قد استطاع أن يجمع الوثائق والاحصاءات التي استخدمها فيما بعد في تأليف كتابه القيم ، « يوميات الجبرتي » ، وذلك بفضل مثابرته على الاختلاط بالفرنسيين » .

وذلك يعني : أن الجبرتي ألف كتابه المشهور بعد الحملة الفرنسية ، وبفضل اختلاطه برجال الحملة المذكورة .

إن نصيب هذا الزعم من الصحة والصواب يتجلى بكل وضوح لكل من يراجع ترجمة حياة الجبرتي ، ويقلب صفحات التاريخ الذي ألفه :

لقد ولد الجبرتي سنة ١١٦٧ هجرية ، المصادفة لسنة ١٧٥٤ ميلادية ، وذلك

يدل على أنه كان وصل إلى أوج سن الكهولة عند بدء الحملة الفرنسية .

والوقائع التي دونها في التاريخ الذي أسماه باسم « بدائع الآثار في التراجم والأخبار » ، تبدأ قبل مجيء الفرنسيين بمدة طويلة ، وأما أخبار الحملة الفرنسية ووقائعها ، فلا تأتي إلا في المجلد الثالث من التاريخ المذكور .

أفلا يدل ذلك دلالة قاطعة على بطلان الزعم الآنف الذكر ؟

ولكن هناك ما هو أصرح من هذا الدليل أيضاً :

يعلمنا عبد الرحمن الجبرتي بنفسه ، لماذا وكيف أقدم على تأليف الكتاب المذكور : كان أستاذه الشيخ مرتضى طلب إليه أن يجمع المعلومات اللازمة عن تراجم علماء عصره . وهو أخذ يجمع هذه المعلومات ويدونها تلبية لهذا الطلب . ولكنه عندما مات الشيخ المشار إليه حزن عليه حزناً شديداً وأهمل العمل الذي كان بدأ به ، مدة من الزمن ، غير أنه تلقى ـ بعد مدة ـ رسالة من قاضي دمشق ، يعلمه بها ، بأنه هو الذي كان التمس من الشيخ مرتضى جمع تلك المعلومات ، وبأنه كان قد علم من الشيخ المرحوم أنه كان عهد بهذه المهمة إلى الجبرتي ، ولهذا السبب كتب إليه يستحثه على مواصلة العمل .

وكيف يجوز لأحد أن يدعي ـ والحالة هذه ـ أن الجبرتي ألف كتابه بعد الحملة الفرنسية ، وبفضل هذه الحملة ؟

ومن الغريب ، إنه يوجد في كتاب الجبرتي نفسه ، ما يدل على أن اتصال أسرته بالأوروبيين أيضاً كان قد بدأ قبل مجيء نابليون بمدة طويلة :

كان الجبرتي ينحدر من أسرة مشهورة في حياة العلم والتعليم . وكان والده ـ على الأخص ـ من كبار علماء الأزهر ، ومن مشاهير المتخصصين في الهندسة والفلك . ويذكر لنا الجبرتي في ترجمة حياة والده ، أن بعض الاوروبيين كانوا اتصلوا به وأخذوا عنه كثيراً من المعلومات الهندسية والفلكية ، وأن هؤلاء نشروا تلك المعلومات في بلادهم ، بعد عودتهم إليها . وكان ذلك قبل تاريخ الحملة الفرنسية بمدة تزيد على نصف القرن .

وها أنا أنقل فيما يلي بعض العبارات التي وردت في كتاب الجبرتي عن هذا الاتصال ، لألفت أنظار الذين لا يزالون يزعمون أن اتصال المصريين بالأوروبيين إنما بدأ بالحملة الفرنسية .

يقول الجبرتي في أخبار سنة ١١٨٨ ، وخلال ترجمة حياة والده « حسن بن برهان

الدين إبراهيم الجبرتي » الذي مات في السنة المذكورة ، ما نصه :

« . . . حضر اليه طلاب من الافرنج وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك سنة تسع وخمسين . وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة »[٣٢] .

ومما يجب الانتباه إليه في هذا الصدد : أن كتاب الجبرتي لا يختلف عن سائر امثاله من حيث طريقة التأليف والتبويب ، ولكنه يمتاز عنها بدقة الملاحظة ونفاذ النظر ، كما أنه يدل على اتصاف مؤلفه بعقلية واقعية بارزة .

ولا مجال للشك في أن الجبرتي لم يكتسب هذه الخصال الفكرية ، بعد اتصاله برجال الحملة الفرنسية ، لأنه كان قد وصل عندئذ إلى منتصف العقد الخامس من عمره . فلا بد من أن يكون قد اكتسب تلك الخصال الفكرية قبل ذلك بمدة غير قصيرة .

إن بعض المعلومات التي دونها الجبرتي في ترجمة حياة والده ، تساعدنا مساعدة كبيرة على اكتشاف منابع هذه الخصال الفكرية التي تلفت الأنظار ، في جميع أبحاث « بدائع الآثار في التراجم والأخبار » .

يتضح لنا من الترجمة المذكورة أن والد الجبرتي لم يكن من العلماء الذين اكتفوا بالدراسات الدينية والأدبية واللغوية وحدها ، بل أنه كان من الذين اهتموا بالدراسات الرياضية والأمور العلمية أيضاً ، كما ذكرنا ذلك آنفاً .

ويقول الجبرتي إن والده « رسم ما لا يحصى من المنحرفات والمزاول على الرخامات والبلاط الكذان ونصبها في أماكن كثيرة ومساجد شهيرة » . وبعد أن يذكر أهم هذه الأماكن والمزاول ، يتكلم عن الآلات التي ابتدعها ، ويشير إلى « ما له من الرسومات المخترعة والآلات النافعة المبتدعة » ، ويقول : « منها الآلة المربعة لمعرفة الجهات والسمت والانحرافات بأسهل مأخذ وأقرب طريق ، والدائرة التاريخية وبركار الدرجة . . . » ثم يذكر اشتغاله بأمور الموازين ، ويشير إلى الكتاب الذي ألفه عنها بعنوان « الدر الثمين في علم الموازين » .

ويقص كيف « وقع الخلل في الموازين والقبابين » ، وكيف تضرر الناس من ذلك ، وكيف بادر الجبرتي إلى اصلاح هذه الأمور : « واحضر الصناع لذلك من الحدادين والسباكين . وحرر المثاقيل والصنج الكبار والصغار والقرسطونات ورسمها بطريق الاستخراج على أصل العلم العملي والوضع الهندسي . ثم أحضر كبار القبانية والوزانين وبين لهم ما هم عليه من

(٣٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

الخطأ » . وعرفهم طريق الصواب في ذلك واطلعهم على سر الوضع والصنعة ومكنونها[٣٣] .

يظهر من كل ما تقدم : أن الجبرتي نشأ في كنف والد عالم فنان يهتم بالعلوم العقلية والأمور العلمية ، ويشتغل بالهندسة والفلك « يرسم ، ويحسب ، ويزن ، ويصنع » . ويتصل ببعض الافرنج ، ويطلع على كيفية استعمال بعض الآلات الهندسية التي أهداها إليه هؤلاء .

ولا مجال للشك في أن الجبرتي قد شاهد كثيراً من أعمال والده ، وقد سمع أخبار الأكثر منها . . . فكان من الطبيعي أن يتأثر من كل ذلك ، وأن يكسب تلك الخصال الفكرية التي تتجلى بأجل المظاهر في كتابه المشهور . .

أفليس من الغريب جداً ـ مع كل ذلك ـ أن يقدم كاتب من أبناء وطن الجبرتي على اعلان فضل « حملة نابليون » عليه . . وذلك عن طريق الاذاعة باللغة الفرنسية ؟

ـ ٣ ـ

إن الحديث المنشور في مجلة الاذاعة ، يتضمن آراء وعبارات عديدة أخرى ، ملهمة من اسطورة « أفضال الحملة الفرنسية على النهضة المصرية » .

أنا لا أود أن أذكر وأناقش جميع تلك الآراء . وأرى أن اختم هذا البحث بالإشارة إلى إحدى العبارات الواردة في الحديث المذكور :

« لو بقيت الحملة الفرنسية في مصر ، مدة أطول مما بقيت ، لشاهدت الدور الذي لعبته في قيام النهضة المصرية الثقافية ، وفي تفتح مواهب المصريين العديدة والمتنوعة » .

لو آمنا بآراء صاحب الحديث لوجب علينا . . أن نأسف أسفاً شديداً على سرعة انتهاء الاحتلال الافرنسي . . وأن نتلهف على حرماننا من بركات هذه العصا السحرية التي لم تمكث في مصر ، حتى مشاهدة آثار سحرها الفياض ! .

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٨.

من أوهام كتاب التاريخ :
النهضة الأدبية في لبنان وحوادث سنة ١٨٦٠ :

١ ـ ما كان كتبه جرجي زيدان

٢ ـ ما جاء في مقالة جديدة

٣ ـ أسباب ازدهار مدينة بيروت

- ١ -

رأي جرجي زيدان

في أسباب النهضة الأدبية في لبنان

يعزو جرجي زيدان في المجلد الرابع من كتابه « **تاريخ آداب اللغة العربية** » إلى وقائع ١٨٦٠ دوراً خطيراً في قيام النهضة الأدبية بلبنان ، فيعتبر السنة المذكورة نقطة تحول في تاريخ الآداب في بر الشام . لأنه يزعم أن ازدهار مدينة بيروت وعمرانها إنما حدث من جراء هجرة اللبنانيين وغيرهم إليها ، بسبب الحوادث المشؤومة التي حدثت سنة ١٨٦٠ . وتحت تأثير هذا الزعم ، يقسم جرجي زيدان تاريخ التعليم في لبنان لى طورين أساسيين : الأول قبل سنة ١٨٦٠ ، والثاني بعد السنة المذكورة . ويقول : إن النهضة الحقيقية حدثت في الطور الثاني - بعد حوادث سنة ١٨٦٠ - وبتأثير التطورات التي نتجت عن تلك الحوادث .

كما أنه يعتبر السنة المذكورة ، مبدأ عهد خاص في سائر ميادين العلم والأدب أيضاً .

ولذلك نجده يذكر حوادث سنة ١٨٦٠ ، في مواضع عديدة من كتابه ، ويكررها في مناسبات كثيرة ، سجلت منها خلال قراءتي الأخيرة للكتاب ست عشرة مرة .

انقل فيما يلي بعض الأمثلة على هذه الاشارات :

« توالت القلاقل على سوريا ، لفساد الأحكام واضطراب الأحوال ، وآل ذلك إلى مذابح عديدة آخرها مذبحة ١٨٦٠ في سوريا ولبنان ، فهجر اللبنانيون أوطانهم ، ونزل جماعة منهم بيروت وغيرها ،وتوسطت الدول ، ووضعت نظام لبنان . . .

« نزوح اللبنانيين وغيرهم من أنحاء سوريا إلى بيروت على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ أحدث

حركة اجتماعية فيها ، وزاد قدوم الأجانب إليها ، للتجارة والتبشير في ظل الامتيازات الأجنبية ، فتكاثروا بعد ذلك ، وأنشأوا المدارس على اختلاف أغراضها » (ص ١٩) . « لما عمرت بيروت بعد حوادث سنة ١٨٦٠ ، أنشأ الأميركان المدرسة الكلية » (ص ٥٠) . « فلما دخل العصر الثاني ، كانت سوريا قد أصابتها النكبات سنة ١٨٦٠ وقبلها . وهاجر الناس من لبنان ودمشق إلى بيروت وغيرها وجاء الافرنج وأخذوا في نشر مذاهبهم وتعاليمهم في مدارسهم » . . . (ص ٢٢٦) .

إن هذه العبارات وأمثالها الكثيرة تدل على أن عمران بيروت كان ـ في رأي جرجي زيدان ـ نتيجة الحوادث المشؤومة التي حدثت سنة ١٨٦٠ ، كما أن مجيء الافرنج وأقدامهم على تأسيس المدارس كان نتيجة هذا العمران : وكل ذلك يوهم بأنه : لو لم تحدث تلك الحوادث وتحمل اللبنانيين على النزوح إلى بيروت ، لما عمرت المدينة المذكورة ، ولما جاء الافرنج إليها وأنشأوا المدارس فيها .

ولكن ، من ينعم النظر في كتاب جرجي زيدان ، يجد بين صحائفه المختلفة ، عشرات وعشرات من الوقائع والحقائق التي تخالف هذه النظرية مخالفة صريحة :

عندما يبدأ جرجي زيدان في التكلم عن النهضة الأدبية التي قامت في لبنان خلال القرن التاسع عشر ، ينتبه إلى كثرة عوامل هذه النهضة ، فيقول ـ عقب القسم الأول من الفقرات التي نقلها آنفاً ـ وفي الصفحة التي عليها تماماً ، ما يلي :

« على أن نهضة أدبية اجتماعية كانت قد بدأت في سوريا ، في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وأسبابها :

١ ـ افتتاح أبواب التجارة ، وتقاطر الأجانب إلى بيروت .

٢ ـ انتشار مطبوعات بولاق والآستانة ومطابع الآداب الشرقية بأوروبا .

٣ ـ نبوغ طائفة من رجال الدولة العثمانية بالعلم والأدب . وأكثرهم تثقفوا في أوروبا وأحرزوا المناصب الرفيعة ، فكانوا يشدون أزر المشروعات الأدبية ، وسيأتي ذكر بعضهم بين أعضاء الجمعية السورية .

٤ ـ إنشاء المدارس على الطراز الحديث (ص ٢٠)

بهذه العبارات يظهر جرجي زيدان « شيمة المؤرخ » الذي ينظر إلى وقائع التاريخ بنظرات واسعة ، ويتحرى العوامل الأساسية التي أوجدت تلك الوقائع . وهو ينتبه إلى العلاقة المتينة التي تربط النهضة الأدبية في سوريا ، بنهضة مصر من جهة ، وأحوال الدولة العثمانية من جهة ثانية ، وبتطورات الأحوال العالمية من جهة ثالثة .

ولكنه بعد أن يسجل هذه العلاقات الجوهرية ـ ويشير إلى هذه العوامل

الأساسية ، بهذه الصورة الصريحة ، يهمل هذه العوامل وتلك العلاقات اهمالاً تاماً ، وينصرف عنها كلها إلى عامل آخر ، يعتقد بتأثيره اعتقاداً غريباً ، ويعتبره العامل الأصلي في النهضة الحقيقية . . هذا العامل الأصلي ـ في نظر جرجي زيدان ـ هو : حوادث سنة ١٨٦٠ ، وما تبعها من تحولات . أنه يتمسك بأذيال هذا العامل تمسكاً شد يداً ، وينسى كل ما سواه . . .

إلا أن الأمور التي يذكرها جرجي زيدان ، دون أن ينتبه إلى أنها تخالف النظرية التي يتمسك بها ، لا تنحصر بما أسلفنا ، بل أنه يذكر في مختلف الفصول في كتابه ، كثيراً من مظاهر النهضة الفكرية والأدبية التي يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ١٨٦٠ .

وإني لأدرج فيما يلي أهم هذه المظاهر ، نقلاً عن كتاب زيدان نفسه ، بعد جمعها وتصنيفها حسب تواريخها :

سنة ١٨٣٤ ـ (١) ـ أنشأ العازاريون مدرسة في عينطورا ، لا تزال عامرة إلى الآن (ص ٤٧) ، (ب) ـ نقل المرسلون الأميركان مطبعتهم من مالطة إلى بيروت ، وأخذوا يطبعون فيها الكتب العلمية والأدبية (ص ٥٦) .

سنة ١٨٤٧ ـ (١) تأسست في بيروت الجمعية العلمية السورية (ص ٧٩) (ب) ـ أنشأ المرسلون الأميركان مدرسة في عبية ، بمساعدة المعلم بطرس البستاني (ص ٤٩) (جـ) ـ أنشأ الآباء اليسوعيون مدرستهم في غزير (ص ٤٩) .

سنة ١٨٤٨ ـ (١) ـ أسس اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية في بيروت (ص ٥٦) ـ (ب) ـ مارون النقاش مثل رواية البخيل المشهورة وبدأ بذلك التمثيل العربي (ص ١٥٣) .

سنة ١٨٥٥ ـ صدرت في الآستانة جريدة مرآة الأحوال باللغة العربية (ص ٦٤) .

سنة ١٨٥٧ ـ أنشأ خليل الخوري المطبعة السورية في بيروت (ص ٥٦) .

سنة ١٨٥٨ ـ أصدر المومى إليه جريدة حديقة الأخبار (ص ٦٤) .

سنة ١٨٦٠ ، أصدر فارس الشدياق جريدة الجوائب في الآستانة (ص ٦٥) .

يفهم من هذه الوقائع التي سجلها جرجي زيدان بنفسه : بأنه قبل سنة ١٨٦٠ ، كانت أنشئت مدارس حديثة على يد أرساليات أوروبية وامريكية ؛ وكانت أسست مطابع عربية عديدة ، وكانت المطابع المذكورة نشرت ـ بطبيعة الحال ـ كتباً علمية وأدبية كثيرة . وكان بدأ التمثيل العربي ، وتولدت الصحافة العربية ، وتألفت الجمعيات العلمية والأدبية .

ومع كل ذلك ، لا يعتبر جرجي زيدان هذه الحركات كلها ، من مظاهر النهضة الحقيقية ، ويدعي أن النهضة الحقيقية إنما بدأت بعد سنة ١٨٦٠ .

فيجدر بنا أن نتساءل : لماذا ؟ ما هي البراهين التي يقيمها زيدان لتبرير حكمه هذا ؟ما هي الأمور التي امتازت بها النهضة الأدبية التي حدثت بعد سنة ١٨٦٠ ، عن النهضة التي سبقت السنة المذكورة ؟ وهل تكفي هذه الميزات لاعتبار السنة المذكورة ، مبدأ النهضة الحقيقية ؟

إنني استقصيت كل ما كتبه جرجي زيدان في كتابه عن النهضة الأدبية ولم أجد بينها ما يمكن أن يعتبر جواباً للأسئلة المذكورة ، سوى القضيتين التاليتين :

(أ) إن مدارس البنات في سوريا ولبنان ، أنشئت بعد السنة المذكورة لايواء البنات اللاتي تيتمن خلال حوادث السنة المذكورة .

(ب) إن المدارس الكبيرة ـ أي الكليات ـ أنشئت بعد إعمار بيروت ، بسبب التجاء اللبنانيين إلى المدينة المذكورة .

فلندرس كل واحدة من هاتين القضيتين بنظرات فاحصة جدية :

أولاً : قضية مدارس البنات ـ يقول جرجي زيدان في مستهل حديثه عن مدارس « الطور الثاني بعد سنة ١٨٦٠ » ما يلي :

« أقدم مدارس هذا الطور في بيروت أنشئت للبنات . لأن المهاجرين المنكوبين كان أكثرهم من الأرامل والأيتام ، ممن فقدن أزواجهن وآباءهن في أثناء تلك الحادثة . وأسبق تلك المدارس إلى هذه الخدمة ، المدرسة الانكليزية أنشأتها مسز بوين طمسن سنة ١٨٦٠ وتعرف الآن بمدرسة مسز موط . ثم المدرسة الكلية الانجيلية الاميركانية للبنات ، أنشئت سنة ١٨٦١ . ولا حاجة إلى بيان ما كان لهاتين المدرستين من العمل العظيم في نهضة السوريين ، اكتفاء بما لتعليم البنات من التأثير المشهود في ترقية الأمم » (ص ٤٨) .

ثم يواصل زيدان حديثه في هذا المضمار ، قائلاً :

« وتفرع من هاتين المدرستين بعد ذلك مدارس كثيرة في بيروت ولبنان ، نبغ منها نخبة من ربات المنازل ، فغمرن البيوت وأصلحن شؤون الهيئة الاجتماعية » (ص ٤٨) .

لا شك في أن إنشاء المدرسة الانكليزية المذكورة كان وثيق الارتباط بحوادث سنة ١٨٦٠ . ولكن هل يبرر ذلك القول بأن النهضة النسائية في لبنان بدأت بفضل الأعمال التي أعقبت وقائع السنة المذكورة ؟

أنا لا أرى لزوماً للبحث فيها إذا لم يكن هناك شيء كثير من المغالاة في القول

بأن إنشاء مدرستين لليتيمات كان العامل الأهم في النهضة التي قامت في بيروت . ولكني أرى من الضروري أن أسأل : هل المدرسة الانكليزية التي ذكرها جرجي زيدان ـ في الفقرات التي نقلناها آنفاً ـ كانت أولى مدارس البنات الحديثة في بيروت ولبنان ؟

يظهر أن زيدان كان يزعم ذلك ، لأنه لم يذكر أية مدرسة للبنات أنشئت قبل سنة ١٨٦٠ .

ولكن جورج أنطونيوس يقول في كتابه « يقظة العرب » أن أولى مدارس البنات الحديثة في بيروت أنشئت سنة ١٨٣٤ ، على يد الانجيلي الأمريكي عالي سميت ، بمساعدة زوجته الامريكية .

كما أن النشرة الرسمية التي أصدرتها وزارة التربية الوطنية بلبنان عن معرض التعليم الذي أقامته في بيروت ، بمناسبة انعقاد مؤتمر اليونسكو ، تشير إلى مدرسة البنات التي أنشئت سنة ١٨٤٦ على يد راهبات المحبة ، وإلى المدرسة التي أنشئت سنة ١٨٤٧ على يد راهبات مار يوسف الظهور . . .

ونحن نستطيع أن نقول ـ بناء على كل ذلك ـ أن ربط قضية تعليم البنات ونهضة النساء بوقائع سنة ١٨٦٠ ، يخالف الحقائق الثابتة مخالفة صريحة .

ثانياً : قضية المدارس الكبيرة ـ يقول جرجي زيدان ، بعد أن يشير اشارة سريعة إلى المدارس الكبيرة التي أنشئت قبل سنة ١٨٦٠ ، « على أن الأجانب لم ينشئوا المدارس الكبرى في بيروت إلا في الطور الثاني ، على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤومة ومهاجرة اللبنانيين وغيرهم إلى بيروت . وبها بدأت النهضة الحقيقية » (ص ٤٧) .

ثم يقول في موقع آخر : « لما عمرت بيروت بعد حوادث سنة ١٨٦٠ أنشأ الأميركان المدرسةالكلية التي نحن في صددها » (ص ٥٠) .

ولكن متى أنشئت الكلية المذكورة ؟ يجيب جرجي زيدان على هذا السؤال بقوله : « أنشأها المرسلون الأميركان في بيروت سنة ١٨٦٦ » (ص ٤٩) . فهل هذا يبرر القول بأن الفضل في هذا الانشاء يعود إلى سنة ١٨٦٠ ، أو إلى ذيول السنة المذكورة ؟

عندما نستعرض كل ما كتبه جرجي زيدان في هذا المضمار ، لا نجد فيه ما يبرر هذا الاعتبار . بل ـ بعكس ذلك ـ نجد فيه كثيراً من الحقائق والوقائع التي تبرهن على بطلان هذا الرأي وهذا الاعتبار لأن جرجي زيدان نفسه يقول ـ عقب العبارة التي نقلتها آنفا : « وكانت مدرستهم في عبية تعلم علوم الكليات الكبرى ، من الرياضيات والطبيعيات وغيرها ، وقد تقدم أنها أنشئت سنة ١٨٤٧ ، فهي أقدم الكليات العربية في سوريا على النمط

الحديث . وقد تخرج فيها طائفة من العلماء ، كانوا من جملة أركان هذه النهضة في سوريا ، ومن معلمي مدارسها الكبرى » (ص ٤٩) .

أفلا تكفي هذه الكلمات وحدها لهدم النظرية التي يقول بها جرجي زيدان ، ولإبطال قوله في أن النهضة الحقيقية بدأت سنة ١٨٦٠ ؟

ولكن الكتاب المذكور نفسه يتضمن من الوقائع ما هو أفعل في إبطال هذا القول وهدم تلك النظرية . يقول جرجي زيدان ، بعد ذكر مدرسة عينطورا ، خلال حديثه عما يسميه الطور الأول ـ قبل سنة ١٨٦٠ ـ ما يلي : سنة ١٨٤٠ « قدم الدكتور فانديك الشهير إلى سوريا ، فجال فيها ، واختبر أحوالها ، فرأى البلاد تحتاج إلى المدارس العليا ، فأنشأ مدرسة عبية (لبنان) سنة ١٨٤٧ ، وهي مدرسة عالية . وفي هذه السنة أنشأ الآباء اليسوعيون مدرستهم في غزير (لبنان) والمنافسة بين الأميركان واليسوعيين في إنشاء المدارس في سوريا من الأمور المألوفة » (ص ٤٧) .

إذن ، حتى إنشاء المدارس العالية كان قد بدأ قبل سنة ١٨٦٠ ، بمدة غير قصيرة .

والكلية الامريكية التي أنشئت بعد مرور ست سنوات على السنة المذكورة ، كانت بدأت تتكون ـ في حقيقة الحال ـ قبل السنة المذكورة بمدة لا تقل عن عشر سنوات .

ويقول جرجي زيدان ، عندما يتكلم عن فانديك : « اختاره مجمع المرسلين الأميركان سنة ١٨٤٠ مرسلاً طبيباً للديار السورية . فجاء بيروت وأخذ في درس اللغة العربية ، واجتمع بالمعلم بطرس البستاني وهما شابان ، فسكنا معاً وائتلفا . ولم يمض زمن طويل حتى أتقن اللغة العربية ، على اليازجي والأسير ، وأصبح نطقه بها كأنه من أبنائها . وحفظ كثيراً من أمثالها وأشعارها . وأحب الوطن السوري ، فاستهلك في خدمته فأنشأ مدرسة عبية بلبنان . وأخذ في تأليف الكتب اللازمة للتدريس في الفنون الحديثة . فألف في الجبر والمقابلة والهندسة والمثلثات وسلك البحار والطبيعيات والجغرافيا قبل إنشاء المدرسة الكلية » (ص ٢١٨) .

كما أنه يقول عندما يتكلم « عن دانيال بليس » أنه « كان مرسلاً للتبشير في سوريا سنة ١٨٥٦ . فرأى البلاد بحاجة إلى كلية علمية تمهد للطلبة تلقي العلوم الفنية كالطب وغيره . فاقترح على زملائه انشاء هذه الكلية . فاكبروا اقتراحه . لكنه ثبت وسافر إلى امريكا لجمع المال اللازم . فنجح وتألفت لجنة للعمل تحت رئاسته ، اعضاؤها الدكتور فانديك وورتبات » (ص ٥٠) .

هل يوجد في كل هذه التفاصيل التي نقلناها عن جرجي زيدان ، ما يدل على قيام علاقة ما ـ قريبة كانت أو بعيدة ، قوية كانت أو ضعيفة ـ بين حوادث سنة ١٨٦٠

وبين انشاء الكلية الامريكية سنة ١٨٦٦ .

إن كل المعلومات المسطورة في كتاب جرجي زيدان ـ وكل المعلومات الاخرى التي يمكن الحصول عليها في دراسة اعمال المرسلين الامريكان في سوريا دراسة تفصيلية ـ تدل دلالة قاطعة على أن الكلية الامريكية التي انشئت في بيروت سنة ١٨٦٦ ، لم تخرج إلى حيز الوجود الا بعد جهود شاقة استغرقت مدة تقرب من اربعين عاماً ، وبعد استعدادات جدية استمرت مدة تزيد على عشرين عاماً .

فكيف يجوز لنا أن نسلم بأن الكلية المذكورة انشئت من جراء الاحوال التي نتجت عن وقائع سنة ١٨٦٠ ؟

يظهر من كل ما تقدم ، أن ما يذهب اليه جرجي زيدان ، من أن النهضة الادبية الحقيقية في سوريا ولبنان بدأت سنة ١٨٦٠ ، لا يستند إلى اي دليل علمي معقول . بل أن كل الوقائع الثابتة تدل دلالة قاطعة على أن هذه النهضة كانت بدأت قبل السنة المذكورة .

هذا ، وأرى من المفيد أن اذكر في هذا المقام ، ما ذهب اليه مؤلف عربي آخر في أمر هذه النهضة وتاريخها :

يقول جورج انطونيوس في الكتاب الذي نشره بالانكليزية ـ والذي ترجم إلى العربية بقلم علي حيدر الركابي ـ تحت عنوان يقظة العرب : «إن سنة ١٨٣٤ كانت نقطة التحول في تاريخ النهضة العربية في سوريا . وذلك لأنه في السنة المذكورة : (اولاً) أعاد الآباء العازاريون انشاء مدرستهم في عينطورة . (ثانياً) نقل المرسلون الاميركان مطبعتهم العربية من مالطة إلى بيروت . (ثالثاً) انشأ عالي سميث ـ بمساعدة زوجته ـ أول مدرسة للبنات . (رابعاً) شرع ابراهيم باشا ـ بعد أن استولى على سوريا ـ في فتح مدارس ابتدائية عديدة ، على نمط المدارس التي اسسها والده العظيم في مصر » .

هذا ، مع العلم بأن جورج انطونيوس تخرج ـ مثل جرجي زيدان ـ من الكلية الاميركية ببيروت ، وهو يعزو ـ مثل جرجي زيدان أيضاً ـ دوراً خطيراً إلى الكلية المذكورة في النهضة الادبية العربية .

لا شك في أن رأي انطونيوس في هذه القضية اقرب إلى الحقيقة من رأي جرجي زيدان . لأنه يستند إلى وقائع تتصل بالامور الادبية والتعليمية اتصالا مباشراً ، في حين أن نظرية جرجي زيدان تحاول ارجاع الامور إلى واقعة لا تمت إلى الادب والتعليم بصلة حقيقية .

قلت عن رأي جورج انطونيوس ، أنه اقرب إلى الحقيقة ، ولم اقل أنه عين

الحقيقة . ذلك لأني اعتقد أن تواريـخ النهضات لا يمكن أن تثبت بسنـين معينة . لأنها تشبه التيارات العظيمة التي تأتي من مسافات بعيدة ، ومن مجـارٍ مختلفة ، وتستمـر مدة طويلة تارة ظاهرة وطوراً متخفية .

ولهـذا السبب ، فإن الـذين يحاولـون أن يحددوا مبـدأ نهضة من النهضـات بسنة معينة بذاتها ، ـ مثل ما تعين ادوار حياة الافراد في تراجم الأحوال ، لا يستـطيعون أن يدركوا كنه الأمور حق الادراك .

فيترتب على المؤرخ الحقيقي ، أن لا يحاول البحث عن سنة يقف عندها أو يبدأ منها ، بل يجب عليه أن يتبع كل الوقـائع عـلى توالي السنـين ، لكي يتبين منهـا مجاري الحوادث رغم التوائها ، ويستكشف منابعها رغم تعددها ، ويتوصل بذلـك إلى معرفـة العوامل المؤثرة فيها ، رغم تشابك هذه العوامل ، ورغم كثرة الاستـار التي تخفيها عن الابصار .

- ٢ -

مقالة جديدة مستندة إلى رأي جرجي زيدان

نشرت احدى المجلات العربية ـ خلال سنة ١٩٥٠ ـ مقالة تطرقت فيها إلى نهضة لبنان الادبية ، وعللتها بتأثير حوادث سنة ١٨٦٠ ، اسوة بجرجي زيدان .

انقل منها ثلاث عبارات ، لبحثها على ضوء الحقائق التاريخية الثابتة :

« كان من اثر المذبحة الاليمة التي حدثت سنة ١٨٦٠ ، أن لجأ اللبنانيون من قراهم إلى بيروت ، فتجمعت فيها الحركة ، وأن وضع للبنان نظامه الخاص ، ففتح بابه للأجانب ، فدخله المستعمرون والمبشرون من فرنسا واميركا ، وانشأوا في ظل الامتيازات الكلية الاميركية سنة ١٨٦٦ والكلية اليسوعية سنة ١٨٧٤ » .

« وكانت المدرسة الوطنية التي انشأها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ اول مدرسة تخرج فيها صفوة من الادباء ، كانوا عمدة الكليتين الاميركية واليسوعية في تعليم اللغة العربية » . « كانت المدرسة الوطنية في بيروت ، اثراً لنظام لبنان الخاص » .

ويظهر من ذلك أن المقالة المذكورة تستند إلى القضايا التالية :

(أ) أن مدينة بيروت ، ازدهرت من جراء التجاء اللبنانيين اليها من قراهم ، هرباً من المذبحة الاليمة .

(ب) إن باب لبنان فتح للأجانب ، ودخلة المبشرون بعد حوادث ١٨٦٠ ، في ظل النظام الخاص الذي وضع للبنان بسبب تلك الحوادث .

(ج) إن المدرسة الوطنية التي تأسست في بيروت سنة ١٨٦٣ ، والكلية الاميركية التي انشئت هناك سنة ١٨٦٦ ، والكلية اليسوعية التي تأسست في بيروت سنة

١٨٧٤ ، كلها كانت من آثار نظام لبنان الخاص .

ولكني ارى أن هذه القضايا مخالفة للحقائق الثابتة مخالفة كلية ، واظن أن ذكر بعض الحقائق التي لا مجال للشك في صحتها ، يكفي للبرهنة على ذلك برهنة قاطعة :

اولاً ـ أن مدينة بيروت لم تدخل في نطاق « نظام لبنان الخاص » في يوم من الايام .

ثانياً ـ أن باب لبنان كان مفتوحاً للاجانب والمبشرين ، قبل حدوث وقائع سنة ١٨٦٠ بمدة طويلة .

ثالثاً ـ إن المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني لم تكن أولى المدارس التي اهتمت باللغة العربية فخرجت صفوة من الأدباء .

إن نظرة واحدة إلى خريطة من خرائط الجغرافيا العثمانية ، وكتاب من كتب المسألة الشرقية . . . تكفي للتأكد من أن النظام الذي وضع عقب حوادث سنة ١٨٦٠ ، كان نظاماً خاصاً بمتصرفية جبل لبنان وحدها ، وأن المقر الرسمي لهذه المتصرفية الممتازة كان في « دير القمر » .

واما مدينة بيروت ، فكانت خارجة عن حدود متصرفية جبل لبنان ، وعن نطاق شمول « النظام الخاص » الذي وضع لجبل لبنان . وقد ظلت المدينة المذكورة ـ مدة من الزمان ـ مقر متصرفية تابعة إلى ايالة الشام ، ثم صارت ـ منذ سنة ١٨٨٨ ـ مركز ولاية قائمة بنفسها تتبع في جميع شؤونها النظم النافذة في سائر انحاء الدولة العثمانية تبعية تامة ، وكان الولاة الذين يقومون فيها ، لا يتدخلون في شؤون الجبل ، ولكنهم كانوا يشرفون على ادارة ولاية شاسعة الاطراف ، تمتد من جنوب حيفا إلى شمال اللاذقية ، وكانوا مرجعاً لمتصرفيات عكا ونابلس وصيدا في الجنوب ، وطرابلس واللاذقية في الشمال ، وكانوا يديرون شؤون الولاية كما كانت تدار شؤون سائر الولايات العثمانية ، من بغداد والبصرة ، إلى مناستر واشقودرة ومن وان وأرضروم إلى ازمير وبروسه . . وفقاً للقوانين والانظمة التي تقررها الدولة لجميع الولايات والخطط التي يرسمها الباب العالي إلى جميع الولاة .

فكيف يمكن أن يقال : إن النهضة الأدبية والتعليمية التي قامت في مدينة بيروت ، كانت من نتائج النظام الخاص الذي وضع للبنان ، بعد حوادث سنة ١٨٦٠ ؟

هذا ، ومن الثابت أن ابواب بيروت ولبنان كانت مفتوحة للأجانب منذ قرون عديدة ، وأن الارساليات الدينية الاجنبية كانت تعمل في لبنان منذ القرن السادس

عشـر للميلاد ، والآبـاء اليسوعيـون ـ مثلا ـ دخلوا تلك البـلاد سنة ١٦٢٥ ، كـما أن العازاريين والكيوجيين والفرنسيسكان لم يكونوا احـدث عهداً منهم كثيراً .

وهـذه الارساليـات الدينيـة كانت اخـذت تهتم بأمـور التعليم منذ اوائـل القرن الثـامن عشر للميـلاد ، فالعـازاريون واليسـوعيون ـ مثـلا ـ كانـوا يديـرون مدرسـة في عينطورة ، وأخرى في زغرتا منذ سنة ١٧٣٥ .

في الواقع أن اليسوعيين كانوا غادروا لبنان في اواخر القرن الثـامن عشر ، ولكن ذلـك كان من جـراء اوضاعهم العـالمية ، ومشـاكلهم الاوروبية . ولهـذا السبب فإنهم عادوا إلى لبنان حالما تمكنوا من تصفية مشاكلهم العالمية وإعادة تنظيمهم العام ، بفضل مساعدات الفاتيكان ، وذلك سنة ١٨٣١ ، وأما سائر الارساليات الكاثـوليكية فـإنها لم تترك لبنان ابداً .

واما المرسلون الامريكان ، فإنهم بدأوا نشاطهم في الشرق الأدنى بوجه عام ـ وفي الشرق العربي بوجه خـاص ـ في الربـع الاول من القرن التـاسع عشـر : فإن زعيمهم المشهور « عالي سميث » كان وصل بيروت سنة ١٨٢٧ . ومات هناك سنـة ١٨٥٧ . وعـالمهم المعروف « فـان ديـك » بـدأ يشتغـل في بيـروت منـذ سنـة ١٨٤٠ . حتى أن « دانيال بليس » مؤسس الكلية الامريكية كان قد وصل بيروت سنـة ١٨٥٦ . ويظهـر من هذه الارقام أن كل ذلك كان حدث قبل سنة ١٨٦٠ .

هذا ، ومن الثابت أن العازاريين انشأوا مدرسة كبيرة في عينطورة سنة ١٨٣٤ ، واليسوعيون انشأوا مدرسة في الغزيـر سنة ١٨٣٤ ، وأن الانجيليـين الامريكان اسسوا مـدرسة في عبيـة سنة ١٨٤٧ . ومن المعلوم أن مـدرسة الغـزيـر كـانت اصـل الكليـة اليسـوعية في بيـروت ، كما أن مـدرسة عبيـة كانت فـاتحة الكليـة الامريكية في المدينـة المذكورة .

امام هذه الحقائق والوقائع التي ذكرتها آنفـاً ، هل يبقى ادنى مجـال للشك في أن دخول المبشرين لبنان ، واقدامهم على فتح المدارس في بيروت ، كـانا من الامـور التي لا تمت إلى نظام لبنان الخاص بأية صلة كانت ؟

ومما يزيد اليقين في هذا المضمار : إن النـظام الذي وضـع للبنان ـ بعـد حوادث سنة ١٨٦٠ ـ لم يذكر التعليم والتبشير ابداً ، كما أنه لم يخول « المتصرفية » اية سلطة في الامور التي تتصل بالدول الاجنبية . حتى أنه ـ بعكس ذلك ـ قد نص بصراحة تامة ، عـلى أن القضايـا التي تحدث بـين اللبنـانيـين والاجـانب لا تـدخـل في اختصـاصـات « المحاكم اللبنانية » بل أنها تحال رأساً إلى « محكمة التجارة » القـائمة في بيـروت ، ولو

كانت من القضايا المدنية البحتة التي لا تتصل بالأمور التجارية .

فنستطيع أن نقول ، بكل تأكيد : أن الامتيازات التي كانت تتمتع بها الارساليات الدينية ـ والمدارس التابعة لها ـ في بيروت وفي لبنان ، كانت من جملة الامتيازات الأجنبية التي كانت تسري على جميع البلاد العثمانية . إنها كانت بهذا الاعتبار ـ من نتائج السياسة العامة التي سارت عليها الدولة العثمانية ، ولم تكن قط من نتائج النظام الخاص الذي وضع لمتصرفية جبل لبنان .

ومما لا يدع مجالا للشك في هذا الأمر ، أن امثال هذه الارساليات كانت تشتغل في عدد غير قليل من الولايات العثمانية ، وامثال هذه المدارس كانت تنشأ وتزدهر في عدد كبير من مدن الاناضول والروملي ـ من ماردين إلى ازمير ، ومن اشقودرة إلى الآستانة ـ ايضاً .

ولذلك كله ، أقول : إن الزعم بوجود علاقة بين هذه المدارس الاجنبية وبين نظام لبنان الخاص . . . لا يتفق مع حقائق الامر بوجه من الوجوه .

واما المدرسة الوطنية التي انشأها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ ، فيجب علينا أن ننظر اليها ، على ضوء الحقائق التالية :

اولاً ـ إن المدرسة المذكورة انشئت في مدينة بيروت التي لم يشملها نظام لبنان الخاص ، فلم تستفد لذلك من امتيازات لبنان بوجه من الوجوه .

ثانياً ـ إن المدرسة المذكورة كانت مسبوقة بمدارس عديدة ، اهتمت باللغة العربية اهتماماً بالغاً .

ومما يبرهن على ذلك برهنة واضحة ، أن مؤسسها بطرس البستاني كان معلماً للعربية في مدرسة عبية التي انشأها المرسلون الامريكان سنة ١٨٤٧ ، كما أنه كان قد تخرج من مدرسة عين ورقة التي اشتهرت باتقان اللغة العربية منذ مدة طويلة .

ولزيادة التأكيد ، انقل فيما يلي ، بعض العبارات التي كتبها عن هذه المدرسة الخوري اسطفان البشعلاني في كتاب مطبوع ببيروت سنة ١٩٢٥ .

« مدرسة عين ورقة ، اهم المدارس المسيحية في سوريا ، ومن هذه المدرسة انبعثت انوار العلم والعرفان ، وامتدت شعلة النهضة العلمية في سوريا وخرج منها رجال كانوا واضعي اساس النهضة الحديثة ، مثل الشدياق ، والبستاني ، والدحداح . .

واما تاريخ تأسيس هذه المدرسة فيعود إلى ما قبل قيام نظام لبنان الخاص بمدة تزيد على نصف قرن ، لأنها أسست فعلا سنة ١٧٨٩ » .

فهل يجوز لنا أن نقول ـ مع ذلك كله ـ أن النهضة الادبية في لبنان بدأت بعد حوادث سنة ١٨٦٠ ، وبفضل النظام الخاص الذي وضع من جراء تلك الحوادث ؟

بعد هذه النظريات الانتقادية ، يجدر بنا أن ندرس المسألة من اساسها ، عن طريق استنطاق الوقائع واستقصاء الحقائق مباشرة :

ما هي اسماء الادباء والعلماء اللبنانيين الذين ساروا في طليعة المجددين للغة العربية ؟ ما هي اسماء الكتاب والمعلمين اللبنانيين الذين حادوا عن طرائق الازهر في تعليم اللغة العربية ، وألفوا الكتب الحديثة بالطرائق المتبعة في اللغات الغربية ؟ ألم يكن الرتل الاول من هؤلاء المجددين العظام ، ناصيف اليازجي ، وفارس الشدياق ، وبطرس البستاني ؟

فلنرجع إلى تراجم احوال هؤلاء ، ولنبحث في مبلغ تأثرهم بحوادث الستين ، لكي نتبين فيها اذا كانت تلك الحوادث ـ وما تبعها من نظم وامتيازات ـ قد أثرت في تكوينهم الفكري والادبي تأثيراً يذكر :

كان ناصيف اليازجي من مواليد سنة ١٨٠٠ ، مما يدل على أن عمره كان قد بلغ الستين عند حدوث الوقائع المذكورة ، فنستطيع أن نقول لذلك أنه كان ـ عندئذ ـ قد اجتاز سن الكهولة منذ مدة غير قصيرة ، حتى أنه كان قطع شوطاً كبيراً في طريق الشيخوخة ايضاً . فكيف يجوز لنا أن نعلل اعماله الادبية واللغوية بما حدث في لبنان بعد سنة ١٨٦٠ ؟

واما فارس الشدياق ، فكان من مواليد سنة ١٨٠٤ ، مما يدل على أنه كان بلغ عندئذ السنة السادسة والخمسين من عمره . ونعرف من ترجمة حاله ، أنه قد تنقل خلال هذه المدة بين بيروت والقاهرة ، ومالطة ، وتونس ، وكمبريدج وباريس ، إلى أن استقر اخيراً في الآستانة ، سنة ١٨٥٧ . وانشأ هناك مطبعة الجوائب المشهورة ، واخذ يطبع فيها الكتب العربية من جهة ، وينشر جريدته المعروفة من جهة اخرى . وهل يمكن لأحد أن يدعي ـ والحالة هذه ـ أن ذلك كان بتأثير وقائع سنة ١٨٦٠ ـ والحالة هذه ـ أن ذلك كان بتأثير وقائع سنة ١٨٦٠ ، وما تبع تلك الوقائع من النظم والامتيازات ؟

واما بطرس البستاني ، فانه كان أحدث سناً من هذين ، لأنه من مواليد سنة ١٨١٩ ، مما يدل على أنه كان ـ في سنة الستين ـ قد بلغ سن الواحدة والاربعين ، ووصل بذلك إلى طور النضوج التام . ونحن نعلم من ترجمة حاله : إنه كان تألم من الوقائع الدامية ، فأصدر جريدة اسماها « نفير سوريا » ليدعو بها مواطنيه إلى الاتحاد

والوئام ثم انشأ المدرسة التي سماها باسم المدرسة الوطنية ، ليغرس بذور الاتحاد والوئام في قلوب الناشئة منذ الصغر . مما يدل دلالة واضحة على أنه كان اتم نضوجه الفكري ، كما أنه كان نال حظاً كبيراً من النضوج السياسي ايضاً . .

ولزيادة التأكيد ، من المفيد أن نذكر هنا ، خلاصة ترجمة حال الرجل ، نقلاً عن كتاب اصدرته وزارة التربية الوطنية بلبنان ، عند انعقاد مؤتمر اليونسكو ببيروت :

« ولد المعلم بطرس البستاني في الدبيّة سنة ١٨١٩ ، فتلقى مبادىء العربية والسريانية في مدرسة القرية . واخذ العلم في مدرسة عين ورقة فأتقن التاريخ والجغرافيا والحساب ودرس اللغات السريانية واللاتينية والايطالية . وحصل المنطق والفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ، واصول الحق القانوني ، وألم باللغة الانكليزية . وفي سنة ١٨٤٠ ، نزل إلى بيروت ، فتعرف إلى بعض مرسلي الامركان وأخذ يعاونهم في بعض تعاريبهم ، حتى رغبوا اليه سنة ١٨٤٦ في تأسيس مدرسة عبية .

« وفي السنة ١٨٤٨ ، عاد إلى بيروت ، وراح ينشىء الجمعيات ، ويؤلف الكتب ، ويتضلع من اللغتين اليونانية القديمة والعبرانية ، ويحصل الكثير من العلوم العصرية الصحيحة ، ويساعد الدكتور عالي سميث في تعريب أسفار الكتاب المقدس إلى أن كانت السنة ١٨٦٠ ، والفتن الطائفية ، فأصدر جريدة سماها « نفير سوريا » ، يدعو فيها إلى وحدة القلوب ، حتى إذا أدرك أن لكل شيء بداية ، وأن القلوب لا تتفق الا إذا اعتادت الاتحاد والوئام منذ الصغر ، اسس المدرسة الوطنية التي كان الشيخ ناصيف اليازجي احد الاساتذة فيها » .

افلا يتضح من كل سطر من سطور هذه الترجمة المختصرة ، أن الاديب المشار اليه ايضاً كان قد نضج نضوجاً كاملاً ـ من الوجهتين الادبية والسياسية ـ قبل سنة ١٨٦٠ ؟

يظهر مما سبق ، أن النظرية القائلة بأن النهضة الادبية في بيروت ولبنان قامت بعد وقائع سنة ١٨٦٠ ، وبفضل النظام الخاص الذي نشأ عن تلك الوقائع . . هي من النظريات الواهية التي لا تدعمها أية حقيقة من الحقائق التاريخية الثابتة .

ولزيادة البراهين على خطأ هذه النظرية اذكر بضع حقائق اخرى ، لا تقل أهمية ودلالة عن الحقائق التي ذكرتها آنفاً :

اولاً ـ انشئت في بيروت مطابع عديدة ، قبل سنة ١٨٦٠ ، كان اقدمها مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس ، التي انشئت في اواسط القرن الثامن عشر للميلاد . ثم المطبعة الامريكية التي نقلت من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٤٣ . وبعد ذلك انشأ الآباء اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية التي بدأت تطبع على الحجر سنة ١٨٤٨ ، ثم صارت تطبع على الحروف منذ سنة ١٨٥٤ ، وفي الاخير ، قام خليل

الخوري وانشأ « المطبعة السورية » سنة ١٨٥٧ .

أفلا يدل انشاء هذه المطابع العديدة ، دلالة واضحة على قيام حركة ادبية هامة ، قبل سنة ١٨٦٠ ؟

ثانياً ـ تألفت في بيروت عدة جمعيات علمية وأدبية ، قبل التاريخ المذكور : الجمعية السورية التي انشئت سنة ١٨٤٧ بمساعي المرسلين الامريكان ، ثم الجمعية الشرقية التي انشئت سنة ١٨٥٠ بجهود الآباء اليسوعيين ، وفي الاخير « الجمعية العلمية السورية » التي قامت مقام الجمعيتين المذكورتين سنة ١٨٥٧ وتألفت من ادباء ومفكرين ينتسبون إلى مختلف الطوائف الموجودة في البلاد .

ثالثاً ـ بدأ خليل الخوري يصدر جريدة « حديقة الاخبار » سنة ١٨٥٨ .

رابعاً ـ مثل مارون النقاش رواية البخيل سنة ١٨٤٨ ، وأعقبها بروايات اخرى ووضع بذلك اسس التمثيل العربي .

افلا يدل ذلك كله على قيام حركة أدبية قوية ، قبل حوادث سنة ١٨٦٠ ؟

- ٣ -

الاسباب الحقيقية لازدهار مدينة بيروت

إن جميع الفقرات التي نقلتها عن كتاب جرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » تدل دلالة واضحة على أن النظرية التي ابداها المؤلف في كيفية قيام النهضة الادبية بلبنان ، كانت مبنية على زعمه بأن ازدهار مدينة بيروت وعمارها ، إنما نشأ عن نزوح اللبنانيين اليها ، بسبب حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤومة .

إن تعليل ازدهار مدينة من المدن ، بمثل هذه الحوادث العارضة ، لا يتفق مع سنن الاجتماع بوجه من الوجوه : يجب الا ننسى ، أن وقائع سنة ١٨٦٠ كانت من الكوارث العارضة التي لا تستمر مدة طويلة ، فاذا التجأ اللبنانيون من قراهم إلى بيروت بسبب هذه الحوادث ، فلماذا وكيف لم يعودوا إلى تلك القرى ، بعد زوال العاصفة ، وعودة المياه إلى مجاريها ؟ لا سيما وأن التدابير التي اتخذت عقب تلك الوقائع ، والنظم التي وضعت بعد ذلك ، قد ضمنت لهم الامن والسلام بسرعة كبيرة .

إن لازدهار مدينة بيروت ونموها أسباباً أعم وأدوم من حوادث سنة ١٨٦٠ . لأن مدينة بيروت لم تكن ميناء لجبل لبنان وحده ، بل كانت ـ ولا تزال ـ ثغراً لبر الشام بأجمعه ، والطرق التجارية التي تبدأ منها كانت ـ ولا تزال ـ تتغلغل في بلاد الشرق الادنى إلى مسافات بعيدة . فلا مجال للشك في أن اسباب ازدهار هذا المرفأ الهام ، تعود إلى تطور التجارة العالمية بوجه عام ، وتوسع العلاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بوجه خاص .

ولاظهار هذه العوامل الحقيقية ، ارى أن اوسع ساحة البحث إلى ما وراء سوريا ، بالقاء نظرات سريعة إلى ما جرى في سائر اقسام الدولة العثمانية من جهة ،

وفي سائر انحاء العالم المتمدن من جهة اخرى .

١ ـ نظرة إلى تاريخ الدولة العثمانية

إن الربع الثالث من القرن التاسع عشر كان عهد تحول هام في تاريخ الدولة العثمانية بوجه عام ، وفي تاريخ المسألة الشرقية بوجه خاص .

بدأ هذا العهد بحرب القرم ، ومعاهدة باريس ، وفرمان التنظيمات .

من المعلوم أن إقدام روسيا على طلب منحها حق حماية الارثوذوكس ، في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اثار قضية « المقامات المباركة » في فلسطين ، وأوجد أزمة سياسية حادة ، تعدت حدود الدولة العثمانية ، وشملت أهم الدول الاوروبية .

وقد اتفقت فرنسا وانكلترا ـ خلال هذه الازمة ـ على الدفاع عن الدولة العثمانية ضد القيصرية الروسية ، على الرغم من المخاصمات المزمنة والمنافسات العنيفة التي كانت قامت بينهما في النصف الاول من القرن المذكور . واستطاعت الدولتان المذكورتان أن تجرا وراءهما بعض الدول الاوروبية الاخرى ، والدول التي تحالفت بهذه الصورة مع تركيا ضد روسيا ، التزمت خطة الهجوم لارغام الدولة الاخيرة على العدول عن مطالبها . ولذلك أنزلت جيوشها ـ مع الجيوش العثمانية ـ في شبه جزيرة القرم سنة ١٨٥٤ . وعندما تم لها النصر ـ بعد سقوط حصون سباستوبول المشهورة ـ سنة ١٨٥٦ ، عقدت مؤتمراً في باريس وقررت فيه شروط الصلح . وكان من جملة مقررات هذا المؤتمر : مبدأ الابقاء على السلطنة العثمانية « بتماميتها » intégrité de L empire Ottomane وادخال السلطنة المذكورة في المحفل الاوروبي Concert européen .

والدولة العثمانية ، تمشياً مع مقتضيات هذه الأوضاع الجديدة ، اصدرت المنشور الذي عرف باسم منشور « التنظيمات الخيرية » اعلنت فيه « المساواة » بين جميع رعاياها ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، دون تمييز بين اديانهم ومذاهبهم . ولضمان هذه المساواة اخذت تصلح شؤونها الادارية والقضائية ، وفق الاسس الشائعة في البلاد الغربية : احدثت المحاكم النظامية ، المدنية والتجارية والجزائية ، ووضعت قوانين عصرية ، على نمط القوانين الاوروبية ، تشمل احكامها جميع رعايا الدولة ، من مسلمين ومسيحيين ، على وجه المساواة .

وبعد أن كانت جميع القضايا تعرض على المحاكم الشرعية ، التي تحكم وفقاً للأحكام الشرعية ، حددت اختصاصات المحاكم المذكورة ، ونقل قسم كبير من تلك

الاختصاصات إلى المحاكم النظامية التي تحكم وفقاً لأحكام القوانين الجديدة .

وبعد أن كانت المحاكم الشرعية لا تقبل شهادة غير المسلمين على المسلمين ، صارت المحاكم النظامية الجديدة ، لا تفرق بين المسلم وغير المسلم ، لا في الشهادة ولا في الحكم ، ولا في التنفيذ .

ولا حاجة للبيان أن هذه « التنظيمات » الاصلاحية ، اوجدت انقلاباً عظيماً في الامور الادارية والقضائية ، واثرت تأثيراً عميقاً في الاحوال الاجتماعية والاقتصادية .

ومن الطبيعي ، أن هذا التأثير ، صار قوياً ، بوجه خاص ، في المدن التي ـ مثل مدينة بيروت ـ تضم جماعات كبيرة من العناصر المسيحية ، والتي يتيسر لها الاتصال والمتاجرة مع البلاد الأجنبية .

افليس من البديهي ، أن هذه التحولات الاساسية والشاملة ، قد أثرت في « عمار مدينة بيروت » وازدهارها ، تأثيراً اعمق وادوم بكثير من التأثير الذي يعزوه جرجي زيدان إلى « تجمع اللاجئين » من جراء حوادث سنة ١٨٦٠ العارضة ؟

إن التنظيمات التي بدأت في اواخر سنة ١٨٥٦ ، كانت أهم واعظم الاطوار التي اجتازتها « حركة التجديد والاصلاح » في الدولة العثمانية . وهي تعتبر اهم الخطوات التي خطتها الدولة نحو اقتباس النظم الغربية ، بعد الغاء وابادة الانكشارية وتنظيم وتجديد الحياة العسكرية .

إن جرجي زيدان لا يقدر اهمية هذه التنظيمات حق قدرها ، فيذكرها بصورة عرضية ، في الفصل الخاص بكتب الادارة والقضاء .

يقول المؤلف في مستهل هذا الفصل :

« للقضاء الاسلامي تاريخ طويل : يقال بالاجمال أنه ظل قاصراً على المحاكم الشرعية إلى اواسط القرن الماضي . إذ اصدر السلطان عبد الحميد فرمان الاصلاح بعد حروب القرم سنة ١٨٥٦ . وفي جملة ذلك اعلن عزم الحكومة العثمانية على انشاء محاكم نظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية ـ وهو القضاء القانوني الحديث . واخذت الدولة من ذلك الحين في وضع النظم على النسق الاوروبي ، واصدار اللوائح والنظم المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية ، ويجمع ذلك كله كتاب « الدستور » ، وقد ترجمه إلى العربية نوفل نوفل المتقدم ذكره وهو مطبوع وفي جملته النظام القضائي وقوانينه ، وهو اقرب إلى القوانين الفرنساوية مما إلى غيرها . . . » (ص ٣٠١) .

ولكنه لا يذكر شيئاً عن تأثير هذه التنظميات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولا في الحياة العلمية والادبية .

في حين أن المؤلفات التركية حافلة بابحاث مفصلة عن تأثير التنظيمـات في شتى نواحي الحياة في الدولة العثمانية ، من سياسية واجتماعية وتشريعية ، وعلمية وادبية .

وكـل من يلقي نظرة استـطلاعية عـلى تاريـخ الآداب العثمانيـة ، يجد أن ادب التنظيمات يعتبر من اهم ادوار التجدد والانقلاب في التاريخ المذكـور . لأنه يمتـاز عن الادوار التي سبقته امتيازاً صريحاً ، بخطوط بارزة جداً ، تتمثل فيها نزعة الاقتباس من الغرب بأجلى مظاهرها .

فيجدر بمن يبحث في عوامل التطورات التي حدثت بلبنان ، أن يلتفت إلى هـذا التيار القوي الذي كان غمر الدولة العثمانية بوجه عام .

إن جـرجي زيدان لا يفعـل ذلك ، لأن انـظاره كانت قـد تمسمرت عـلى تـأثـير حوادث سنة ١٨٦٠ ، فانصرفت اليها عن كل ما سواها ، كما شرحت ذلك سابقاً .

ومـع ذلك ، يـوجد في طيـات كتابـه بعض الوقـائع التي تـدل عـلى أن حـركـة التنظيمات التي قامت في الدولة العثمانيـة ، لم تخل من التـأثير في تـطور الادب العربي تأثيراً مباشراً أيضاً .

فإن جرجي زيدان يشير إلى الوزير العثمـاني الشهير فؤاد بـاشا في مـوضعين من الكتـاب : اولا خلال تكلمـه عن جريـدة الاخبار ، وثـانياً خـلال تطرقـه إلى الجمعية العلمية السورية .

فقد قال المؤلف ما يلي : ـ بعـد أن ذكر أن حـديقة الاخبـار صدرت في بيـروت سنـة ١٨٥٨ ، وأنها كانت اول جـريدة عـربية صـدرت في المملكـة العثمـانيـة خـارج الآستانة ـ « وبعد سنتين من صدورها جرت حوادث سوريا سنـة ١٨٦٠ ، وجاء فؤاد بـاشا منـدوباً لتسوية مسائلها ، فاقترح على خليل الخوري ـ (صاحب الجريدة المذكورة) ـ أن يجعلها شبه رسمية ، وعينت له الحكومة راتباً شهرياً ، ريثما صدرت جريدة سوريا الرسمية (ص ٦٤) .

كما أنه قال ـ بعد أن تكلم عن الجمعية العلمية السورية (التي تأسست سنة ١٨٥٨) وذكر اسماء البعض من اعضائها ـ « وكان بينهم جماعة من كبار رجال السياسة بالأستانة ، منهم فؤاد باشا الشهير ورشدي باشا ومصطفى فاضل باشا . . . » (ص ٣١) .

بعد نقل هذه الكلمات ، من كتاب جرجي زيدان نفسه ، يجدر بنا أن نشير إلى أن فؤاد بـاشا الـذي يذكـره المؤلف بهذه الصـورة العارضـة كـان من صنـاديـد عهـد التنظيمات . إذ من المعلوم أن سياسة التنظيمات تمثلت في ثلاثة من الـوزراء العظام ، هم : رشيد باشا ، وعالي باشا ، وفؤاد باشا .

وفؤاد باشا هذا ، كان أوفد إلى سوريا ، بسلطات واسعة النطاق ، لتسكين الفتن التي قامت سنة ١٨٦٠ ، فقد عالج القضايا بحزم وكياسة ، وعاقب المجرمين والمتهاونين بشدة ، مبتدئاً باعدام والي الشام .

ونفهم من العبارات التي نقلناها عن جرجي زيدان ، أنه لم يهمل الحركات الأدبية ، بل شجع جريدة حديقة الاخبار بمنح صاحبها راتباً شهرياً ، كما شجع الجمعية العلمية السورية بالانتساب اليها ، والدخول بين اعضائها .

ونستدل من ذلك كله على أن رجال التنظيمات العثمانية كانوا قد اتصلوا برجال النهضة الادبية العربية ، في سوريا ولبنان اتصالا مباشراً .

ولكن في كتاب جرجي زيدان ، دليل اقوى واوضح من ذلك ايضاً على هذا الاتصال :

قال جرجي زيدان ـ خلال الكلام عن تأسيس الصحف العربية السياسية ـ ما يلي :

« وخطت الصحافة العربية ، خطوة مهمة سنة ١٨٦٠ ، بظهور الجوائب في الآستانة ، لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، احد أركان النهضة العربية الاخيرة . وكان للجوائب شأن عظيم عند أدباء العرب ، ونفوذ لدى ولاة الأمر بالآستانة وغيرها . وكانت ميدانا لاقلام أدباء ذلك العصر ، للمناظرة والمناضلة ، وما زالت تصدر إلى سنة ١٨٨٤ » . (ص ٦٥) .

ومن الامور البديهية التي لا تحتاج إلى تدليل أو إيضاح ، أن صدور هذه الجريدة العربية في عاصمة الدولة العثمانية ، وتأسيس مطبعة الجوائب التي أخذت تطبع هناك طائفة من الكتب العربية القديمة والحديثة . . مما لا يمكن أن يعزى إلى تأثير سنة ١٨٦٠ المشؤومة بوجه من الوجوه . بل هو مما لا بد من تعليله على ضوء سير التاريخ العثماني من جهة ، وتقدم الحركة العربية العامة من جهة اخرى .

٢ ـ نظرة إلى تاريخ العالم

وقبل انهاء هذا الفصل ، اود أن اخطو خطوة اخرى ، في سبيل توسيع نطاق البحث ، بالقاء نظرات سريعة إلى صفحات التاريخ العام ، لاستكمال وسائل الاستطلاع على العوامل المتعلقة بازدهار مدينة بيروت ، في الربع الثالث من القرن التاسع عشر ، ولا سيما بعد سنة ١٨٦٠ .

ماذا كانت احوال العالم في ذلك التاريخ ؟ ماذا كان اتجاه الحضارة العالمية ، في الفترة الزمنية التي اعتبرها جرجي زيدان ، « عهد النهضة الحقيقية » بلبنان ؟

بـين يدي الآن كتـاب من احدث مؤلفـات « التاريـخ العام » المنشـورة بـاللغـة الفرنسية ، وهو المجلد السابع عشر من « كليـات التاريـخ العام » ، التي نشـرت تحت نـظارة الاستـاذين « لـويس هـالفـين » و « فيليب سـانيــاك » تحت عنـوان « شعــوب وحضارات » .

وقد اشترك في تأليف هذا المجلد ثلاثة من اساتذة الجامعات الفرنسية ، وعنونوه بهذا العنوان : « من الليبرالية إلى الامبريالية » (من ١٨٦٠ إلى ١٨٧٨) .

يظهر من ذلك أن هذا المجلد يتضمن وقائع دورة تاريخية استغرقت ثماني عشـرة سنة بعد سنة ١٨٦٠ .

نعم ، سنة ١٨٦٠ . . . . نفس السنة التي حدثت فيها وقائع سوريا المشؤومة ، والسنـة التي اعتبرهـا جرجي زيـدان « مبدأ النهضـة الحقيقية » بلبنـان ، بسبب نـزوج اللبنـانيين وغيـرهم إلى مدينـة بيروت وتجمعهم فيهـا . . . هذه السنـة يعتبرهـا مؤلفـو الكتاب المذكور ، سنة تحول هام في التاريخ العام .

ولا حاجة إلى البيان أن اعتبارهم هذا ، لم يكن مبنياً على اسباب مماثلة للاسباب التي ذكرها جرجي زيدان . بل كان مبنياً على اسباب هامة اخرى ، تتعلق بـالتطورات الاقتصادية والسياسية العظيمة التي شملت جميع انحاء العالم تقريباً .

يستعـرض المؤلفـون ـ في اكـثر من خمسمـائـة صفحـة ـ الحــوادث السيـاسيــة والاقتصادية التي توالت في اوروبا وآسيا وامريكا ، بعد السنة المذكورة . . . ويشرحـون بوجه خاص ، ما حصل من التطورات الهائلة إلى الحياة الاقتصادية العالمية . ويخلصون من ابحاثهم هذه في القول بأن هـذه الفترة من التـاريخ ، كـانت عهد تـطور عظيم في التجــارة العـالميــة . لأنها انتقلت خـلال هــذه المـدة من الــطور البـري إلى الــطور البحري . . . بوجه عام .

ومن جملة ما قاله المؤلفون ـ خلال استعراض وشرح هذه التطورات : « في اوائل سنة ١٨٦٠ ، تم التوقيـع على معـاهدة التجـارة المنعقدة بـين فرنسـا وانكلترا ، وانتهى عهـد الحمايـة الاقتصادية التي كانت تعيق التجارة ، وبدأ عهد جديد من الحرية الاقتصادية والعـلاقات السلميـة بين الدول الاوروبية .

« وفي السنة المذكورة دخلت جيوش الدول الاوروبية مـدينة بكـين ، وفتحت ابواب الصــين إلى التجارة العالمية . . . واستقرت فـرنسا في عـاصمة الهنـد الصينية ، واحتلت انكلتـرا مضايق المـالايو ، وشقت روسيـا طريقهـا نحو البحـر المحيط الهادي من مـرفأ فلاديفوستك . . . وأدى كـل ذلك إلى توسيع نطاق التجارة العالمية توسيعاً كبيراً جداً . . .

« وفي الوقت نفسه أخذت تتوالى وتتعمم بعض الاختراعات التي تتعلق بوسائل المناقلة والمواصلات ، بوجه عام ، وبوسائل المناقلات البحرية بوجه خاص . . . في الواقع ، أن السفن البخارية كانت اخترعت قبل سنة ١٨٦٠ بمدة غير قصيرة . غير أنها ـ خلال تلك المدة ـ لم تستطع أن تلعب دوراً كبيراً في النقليات التجارية . لأنها كانت كثيرة التكاليف ، فظلت واسطة لنقل الركاب ، دون البضائع الثقيلة . واما النقليات التجارية ، فظلت تعتمد على السفن الشراعية ، في الدرجة الاولى .

« ولكن ، بعد سنة ١٨٦٠ ، حدث تقدم كبير في صناعة السفن البخارية ، تقدم ادى إلى تغيير هذه الأوضاع رأساً على عقب : تعممت طريقة استعمال الرفاسات الخلفية ، عوضاً عن الدواليب الجانبية لتحريك السفن البخارية . . كما تحسنت المكائن المحركة نفسها ، لاستعمال الكباسات عوضاً عن الموزنات لتحويل الحركة المتناوبة إلى الحركة المستديمة . . . وفي الاخير ، تقدمت صناعة الفولاذ تقدماً كبيراً ، امكن معه صنع هياكل السفن البخارية من الفولاذ عوضاً عن الخشب . . . وكل هذه الاختراعات والتحسينات ساعدت على تضخيم احجام السفن وتزييد سرعتها ، وتقليل نفقاتها بمقياس واسع جداً . . . مما جعلها عاملاً هاماً في ازدهار التجارة البحرية ازدهاراً سريعاً . . . وانهى عهد الاقتصاد المسدود . . . ونظام « التبادل التجاري الخاص بالبلاد المتجاورة » . . . وفتح عهد « الاسواق العالمية . . . » .

ويقول المؤلفون ، بعد سنة ١٨٦٠ ، وعلى الاخص في اثناء الحروب الاهلية الامريكية ـ التي كانت شلت النشاط الصناعي والتجاري مؤقتاً ـ اكتسبت « قوة الاتساع الاقتصادي » شدة خارقة ، لم يعرف لها مثيل ابداً ، وغيرت معالم الحياة التجارية تغييراً كلياً .

ولا حاجة إلى البيان أن هذه الانقلابات تجلت بأجلى مظاهرها ، في توسع التجارة البحرية ، وازدهار الموانىء والمدن الساحلية .

بعد هذا الاستعراض السريع لتطور الاحوال الاقتصادية والتجارية في العالم ، بعد سنة ١٨٦٠ ، يجدر بنا أن نتساءل : افما كان من الطبيعي ، أن تزدهر مدينة بيروت ازدهاراً كبيراً تحت تأثير هذه التطورات العالمية ، من جراء تقدم وتوسع وسائل المناقلة بينها وبين سوريا الداخلية من جهة ، وبينها وبين بلاد ما وراء البحار من جهة اخرى ؟

وكيف يجوز لنا أن نعزوا ازدهار هذه المدينة الساحلية ، إلى حادث عارض مثل « نزوح اللبنانيين اليها من جراء حوادث ١٨٦٠ المشؤومة » . . . . متغافلين عن كل هذه العوامل والتيارات العالمية ؟

من اوهام كتاب التاريخ :
مسألة تاريخية في مجلة تركية
ـ حول معبد الجهني ـ

تمهيد

في أواسط سنة ١٩٣٧ اقيمت احتفالات تذكارية شائقة في كابل ، وطهران ، واستانبول ، لمناسبة مرور تسعمائة عام على وفاة ابن سينا . اقيمت الاحتفالات في كابل ، لأنهم زعموا أن هذا الفيلسوف الشهير كان من اولاد الافغان ، وفي طهران لأنهم قالوا بأنه ايراني صميم ، وفي استانبول ، لأنهم ادعوا بأنه تركي الأصل .

إن التنازع حول جنسية ابن سينا على هذا المنوال اكتسب شدة خاصة بين استانبول وطهران ، وفتح باباً لمناقشات علمية تلفت الانظار .

وبوسيلة الاحتفالات المذكورة ، قد اشترك جماعة من علماء الأتراك في وضع سفر كبير عن ابن سينا . كما اقدم عالم إيراني على نشر ترجمة « القانون » إلى اللغة الايرانية . وقد صدّر المترجم الترجمة بمقالة خاصة ، انتقد فيها مدعيات الأتراك في نسب ابن سينا انتقاداً شديداً ، فقال في جملة ما قاله في هذا الصدد ما مؤداه :

« يحق لكل شرقي ولكل مسلم أن يفتخر بابن سينا ، بصفته عالماً ومفكراً شرقياً واسلامياً ، فيحق للاتراك ايضاً أن يفتخروا به بهذا الاعتبار غير أنه لا يحق لهم أن يفتخروا به باعتباره تركياً . لأن الزعم في تركيته لا يستند إلى اي دليل علمي . يدعون بأنه تركي الأصل ، لأن المدينة التي ولد فيها تركية ، ولكنهم يغضون النظر عن حقائق التاريخ ، التي تشهد بأن المدينة المذكورة لم تكن عندئذ تركية ، بل كانت ايرانية بكل معنى الكلمة . هذا ومن المعلوم أن ابن سينا خلف مؤلفات كثيرة باللغة العربية ، وبعض الكتابات باللغة الايرانية ، غير أنه لم يخلّف ولو كتاب واحدة باللغة التركية . ومما يجدر الانتباه اليه بوجه خاص ـ أن ابن سينا ـ في بعض المواضع من مؤلفاته المختلفة ، تطرق إلى قواعد بعض اللغات ، وذكر بعض الامثلة من اللغات التي يعرفها ، وليس بين تلك الأمثلة مثال واحد من التركية . . . » .

إن مقال العالم الايراني ، لم يرق لمؤرخي الاتراك . فانبرى احدهم ـ بعد مدة ـ إلى الرد على ذلك بمقالة مطولة ، نشرها في العدد الثالث عشر من « مجلة مجمع التاريخ التركي » .

وقد حاول صاحب المقالة المذكورة ، شمس الدين كون آلتاي ، تفنيد مزاعم العالم الايراني في اصل ابن سينا ، مدعياً بأن « بخارى » كانت تركية منذ اقدم الازمنة ، ثم وسع ساحة البحث والنقاش توسيعاً كبيراً ، فادعى أن بخارى كانت مركز علم راقٍ وثقافة سامية قبل وصول العرب والاسلام اليها ايضاً . وزاد على كل ذلك دعوى جديدة ، قائلاً أن الحركة الفكرية التي بدأت في البصرة ، في اوائل الاسلام ، كانت من آثار ثقافة ما وراء النهر ، لأن قادة هذه الحركة الفكرية كانوا من الأتراك الذين نقلهم عبيد الله بن زياد من بخارى إلى البصرة . .

ولما اصبحت المسألة بهذه الصورة من المسائل الاساسية التي تمس تاريخ بدء النهضة الفكرية في صدر الاسلام بوجه عام ، رأينا أن ننعم النظر في هذه المدعيات لاظهار مبلغ مطابقتها للوقائع التاريخية الثابتة .

نحن لا نرى لزوماً لاستعراض جميع الآراء والمباحث الواردة في هذه المقالة المطولة والمتشعبة ، فإن ما يهمنا من تلك الآراء والمباحث ، هو ما يحوم حول النظرية الاخيرة وحدها . ولذلك سنحصر بحثنا ونقاشنا في القسم المتعلق بالنظرية المذكورة .

ـ ١ ـ

يقول (شمس الدين كون آلتاي) في البحث الذي نحن بصدده ، ما ترجمته حرفياً :

« إن عبيد الله بن زياد (الذي كان ولي على خراسان) مأموراً للاستيلاء على ما وراء النهر ، في عهد الخليفة معاوية ، كان قد اعجب اعجاباً شديداً بالثقافة العالية والمهارة العسكرية التي يتحلى بها أهل بخارى ، فانتخب من بينهم الفي شاب من المهذبين المنورين ، وأرسلهم إلى العراق بغية جعلهم معلمين للعرب ، واسكنهم البصرة .

« إن هذه المعلومات التي ينقلها الينا أقدم مؤرخي الاسلام (البلاذري) تحل اللغز الذي كان يكتنف مسألة منشأ الحركة الفكرية الأولى في الاسلام . لماذا نشأت هذه الحركة في مدينة البصرة اولا ؟

« لأن الذين أثاروا هذه الحركة الفكرية الاولى ، كانوا هؤلاء الشبان المنقولين من بخارى هم وأولادهم ؟

« إن الشخصين اللذين كانا وضعا الحجر الاساسي في بناء المذهبين المتعارضين في اللاهوت ـ ذينك المذهبين اللذين ظهرا قبل ابن سينا ـ كان كلاهما من اهل ذلك القطر . إن معبد الجهني الذي اسس المذهب القائل بحرية الارادة البشرية ، كان قد ولد في بلدة جهينة الكائنة في نواحي جرجان وطبرستان ، كما أن جهم ابن صفوان الذي أسس المذهب المعارض لذلك ، اعني المذهب الذي لم يسلم بوجود حرية الارادة عند الانسان ، والذي ربط كل شيء بتقدير قدرة فوق قوة الارادة البشرية وهو ايضاً كان تركياً من اهل بلخ ، وكان قد تقدم بآرائه هذه لأول مرة في مدينة « ترمذ » من ديار الاتراك . إن هذين المذهبين اللذين ظلا يتصادمان في اللاهوت الاسلامي مدة قرون ، احدهما تحت اسم القدرية والآخر تحت اسم الجبرية ، كانا قد انبثقا من ادمغة تنسب إلى البيئات التي ستنشىء ابن سينا . . . » .

يظهر من هذه الفقرات التي ترجمناها بحروفها ، أن الاستاذ « شمس الدين كون آلتاي » بنى النظرية التي نحن بصددها على القضايا التالية :

(أ) إن عبيد الله بن زياد نقل من بخارى إلى البصرة الفي شاب من منوري الاتراك ، ليعلموا أولاد العرب . لأنه كان قد اعجب بثقافتهم العالية ، بجانب مهارتهم العسكرية .

(ب) إن معبد الجهني الذي أسس مذهب حرية الارادة ، كان تركياً ، ولد في بلدة جهينة الكائنة في طبرستان .

(ج) إن مؤسس مذهب الجبرية هو جهم بن صفوان التركي .

هذه الوقائع والقضايا يعتبرها كاتب المقالة من الحقائق الثابتة بنصوص صريحة واردة في امهات الكتب العربية القديمة ، ويشير في ذيل كل فقرة من هذه الفقرات إلى الكتاب الذي يشهد على صحة هذه القضية .

فعلينا أن نراجع الكتب المشار اليها لنقرأ النصوص ، فنرى مبلغ امانة الكاتب في نقلها ومدى اصابة البراهين التي استخرجها منها .

ـ ٢ ـ

يشير الكاتب في ذيل الفقرة الاولى بقصد البرهنة على ما جاء فيها ، إلى الصفحة ٤١٠ من فتوح البلدان للبلاذري ، وإلى تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان .

لقد فتحنا الصفحة ٤١٠ من فتوح البلدان ، وقرأناها باهتمام وإمعان ، غير أننا دهشنا من هذه القراءة دهشة عظيمة ، لأننا رأينا أنها بعيدة عما يدعيه محرر المقال بعداً

غـريباً ، إن كـل ما جـاء في الصفحة المـذكورة حـول هذه القضيـة ينحصر في العبـارة التـالية : « . . . فتـح (عبيد الله بن زيـاد) الصغانيـان ، وقدم معـه البصرة بخلق من اهـل بخارى ففرض لهم » فلا يوجد هناك كلمة واحدة تدل على اعجابه بثقافتهم العالية ، ولا حـرف واحد يدلْ على أن القصد من نقلهم إلى البصرة كان اتخاذهم معلمين للعرب .

قد يخطر على البال : لعل الكاتب اخـطأ في رقم الصحيفة . إن هـذا الاحتمال خطر ببالي أنا ايضاً ، حينما رأيت هذا البون الكبير بين ما كتبه البلاذري وبين ما ادعاه الاستاذ شمس الدين مستنداً على هذه الكتابة . فرأيت أن اتيقن من الأمـر ، فأعـدت قراءة كل ما كتبه البلاذري حول اعمال عبيد الله بن زياد ، ولم اعثر على كلمة واحـدة تؤ يد مزاعم الكاتب في الصفحات الاخرى ايضاً .

يتـطرق البلاذري إلى هـذه القضيـة في الصفحـة ٣٧٦ من **فتـوح البلدان** ايضـاً فيقول : « قالوا كان عبيد الله بن زياد سبى خلقاً من اهل بخارى ، ويقال بل نزلوا على حكمه ، بل ويقال دعاهم إلى الامان والفريضة . فنزلوا على ذلك ورغبوا فيه وأسكنهم البصرة » ولم يـذكر كلمـة واحدة تدل على علو ثقافـة هؤلاء ، أو تشير إلى مهمـة التعليم التي عهدت اليهم عـلى زعـم كاتب المقال .

يظهر من ذلك بكل وضوح : إن محرر المقـال لم يعمل بـالواجب العلمي الـذي يتطلب من كل باحث أن يلتزم الامانة في النقل والاستشهاد ، وسـوّغ لقلمه أن يسنـد إلى البلاذري ما لم يقل به ابداً .

وأما استشهاده بتاريخ **التمدن الاسلامي** لجرجي زيدان ، فهو أيضاً ممـا لا يستند إلى اساس صحيح بوجه من الوجوه : انـه يذكـر اسم الكتاب في ذيـل الفقرة بجـانب **فتوح البلدان** ، من غير أن يشير إلى الصفحة التي تؤ يد مدّعاه . مع ذلـك لقد تيقنّا ـ بعد المراجعة والدرس ـ بأن جرجي زيـدان لم يكتب قط شيئاً يؤ يـد ما يـدعيه الاستـاذ شـمس الدين . فإنـه يشير إلى واقعـة نقل بعض البخـاريين ، في الفصـل الباحث عن نظام الاجتماع في عهد الامويـين ، حيث يقول : « نقـل الحجاج جـاعة من شط السنـد إلى العراق وأسكنهم بأسافل كسكرة ، وسبى عبيد الله بن زياد خلقاً من اهـل بخارى واسكنهم البصـرة » غير أنه لم يقل كلمة واحدة عن ثقافة هؤلاء ومهمتهم التعليمية .

والأغرب من ذلك أن جرجي زيدان يكتب في بحث « **الاتراك والاسلام** » فقـرة تدل على عكس ما يزعمه الكاتب تمـاماً : يقـول جرجي زيـدان : « كان الاتـراك يومئـذ يمتازون عن سائر الشعوب التي دانت للمسلمين بقوة البدن ، والشجاعة ، والمهارة في رمي النشـاب ، والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل ، والثبات في ساحـة الوغى ، مـع قلة العنايـة بالعلوم ، ولا سيما الفلسفة وعلم الطبيعة . وقلما اشتغل احد منهم بدرسها في ابان التمدن الاسـلامي . واشتهر

ذلك عنهم حتى اصبحوا اذا سمعوا بتركي يشتغل بالعلم الطبيعي ذكروه مع الاستغراب ، كما فعل ابن الاثير لما اشار إلى معرفة قتلمش علم النجوم فقال : « من العجيب أن هذا قتلمش كان يعلم علم النجوم وقد اتقنه مع أنه تركي » (ج ٤ ، ص ١٥٦) .

إنني لا أود أن ابحث فيما إذا كان ما كتبه جرجي زيدان في هذا الصدد موافقاً لحقائق التاريخ ام مخالفاً لها . غير أني اود أن اظهر استغرابي العظيم من اقدام محرر المقال على الاستشهاد بكتاب جرجي زيدان لتأييد نظريته الجديدة . . تلك النظرية التي تزعم بأن الحركة الفكرية الاولى في الاسلام انبثقت من ادمغة الاتراك الذين نقلهم عبيد الله بن زياد من بخارى إلى البصرة ، وذلك على الرغم من وجود الفقرات التي ذكرناها آنفاً في كتاب جرجي زيدان .

هذا واذا تركنا هذين الكتابين جانباً ، بالرغم من أن كاتب المقالة لم يستشهد بغيرهما ، واستنطقنا التواريخ القديمة الاخرى ، لا نجد فيها ايضاً ما يؤيد زعم الاستاذ شمس الدين في هذا الصدد .

إن ياقوت الحموي ، مثلاً ، يشير بدوره إلى هذه الواقعة ، فيقول : « وعاد عبيد الله بن زياد إلى البصرة في الفين من سبي بخاري كلهم جيد الرمي بالنشاب ، ففرض لهم العطاء » (المجلد ١ ـ ص ٥٢٠) ويذكر بهذه الصورة مهارة القوم في الرمي ، غير أنه لا يبحث أبداً عن ثقافتهم العالية أو « مهمتهم التعليمية » كما يدعيه صاحب المقالة .

ولهذا كله ، لا نتردد في القول بأن ما يدعيه « شمس الدين كون آلتاي » في هذا الصدد لا يستند إلى اي دليل تاريخي كان .

ـ ٣ ـ

اما القضية الثانية ، وهي المتعلقة بنسب معبد الجهني والقائلة بانتسابه إلى الجنس التركي وبولادته في طبرستان ، فيحاول صاحب المقالة أن يبرهن عليها بكتابين عربيين مهمين ، يذكرهما في ذيل الصحيفة . كتاب **الملل والنحل للشهرستاني** ، وكتاب **معجم البلدان** ، لياقوت الحموي ، ينقل الكاتب من الأول : ما قاله عن حدوث « بدعة معبد الجهني في آخر ايام الصحابة » ، كما ينقل من الثاني قوله : « وجهينة ايضاً قلعة بطبرستان حصينة مكينة عالية في السماء » .

إننا نسلم بأن ما ينقله الكاتب من هذين الكتابين ، صحيح تماماً ، غير أننا لا نفهم كيف يستشهد بذلك لتأييد مُدّعاه ؟ كيف يستطيع أن يستنتج من هذه العبارات ـ من غير أن يخرج على أبسط قواعد المنطق العلمي ـ بأن الجهني ، ولد في جهينة

طبرستان ؟ فهل يستطيع أن يدعي أنه لا يوجد في الدنيا شيء يسمى « جهينة » غير هذه القلعة الكائنة في طبرستان ؟

اولاً : يجب أن يلاحظ أن العبارة التي ينقلها صاحب المقال من ياقوت الحموي ، تحتوي على لفظة « ايضاً » ، مما يدل بصراحة على أنه سبق لياقوت أن تكلم عن جهينة أخرى . وفي الواقع كل من يراجع مادة جهينة في معجم البلدان يرى أن المؤلف يبدأ بذكر جهينة اخرى ، حيث يقول : « قرية كبيرة في نواحي الموصل على دجلة ، وهي اول منزل لمن يريد بغداد من الموصل . وعندها مرج يقال له مرج جهينة » . ثم يشير إلى من ينتسب إلى القرية المذكورة ، ويذكر بعض التفاصيل عن تاج الاسلام الجهني ، وابو الفرج الجهني . وبعد كل ذلك يكتب العبارة الاخيرة « وجهينة أيضاً قلعة بطبرستان حصينة مكينة عالية في السماء » .

إن ياقوت الحموي يعلمنا إذن ، إن اسم جهينة يطلق على موضعين : الاول قرية كبيرة في الموصل ، والثاني قلعة حصينة بطبرستان واما الاستاذ شمس الدين ، فلم يلتفت إلى ما ذكره ياقوت اولا ، بل يتمسك بما ذكره في الاخير ، كأن مجرد وجود قلعة باسم جهينة في طبرستان ، يكفي للدلالة على أن معبد الجهني تركي مولود هناك .

إن محل قرية جهينة معلوم في نواحي الموصل إلى الآن ، وقد ذكرها ابن الاثير في تاريخه عدة مرات : في حوادث سنة ٣٣٥ (ج ٨ ، ص ٣٥٠) في حوادث ٤٢٠ (ج ٩ ، ص ٢٧٣) ، وفي حوادث ٤٨٠ (١٠ ، ص ١٥٠) ؛ فاذا جاز للباحث أن يحكم في مثل هذه القضايا من الاسم وحده ، لحقّ له أن يحكم بنسبة معبد الجهني إلى هذه القرية ايضاً .

ومما يجب أن يلاحظ في هذا الصدد أن ياقوت الحموي يذكر بعض العلماء المنسوبين إلى قرية جهينة في الموصل ، ولا يذكر اسم احد ينتسب إلى قلعة جهينة في طبرستان ، وبما أن معبد الجهني اشهر بكثير من ابي الفرج الجهني أو تاج الاسلام الجهني ، كان الأولى بياقوت أن يذكر اسم معبد الجهني مقرونا بالقلعة المذكورة ، لو كان يعتقد بأنه ولد فيها ، كما يدعي الاستاذ شمس الدين .

وهناك أمر اجدر بالاعتبار من ذلك ايضاً : إن اسم جهينة لا يختص بالمواقع الجغرافية التي يذكرها معجم البلدان ، بل أنه اسم معروف لقبيلة عربية مشهورة ايضاً : وجميع التواريخ العربية تذكر هذه القبيلة ، كما أن جميع كتب الانساب العربية تشير إلى عدد غير قليل من المنتسبين اليها . ومما يجب الا يغرب عن البال ـ في هذا المقام ـ أن اسم هذه القبيلة يمتاز بمكانة خاصة في الامثال السائرة : لأن المثل القائل

« وعنـد جهينة الخبـر اليقين » يشـير بوضـوح إلى الشهـرة التي كـانت تتمتـع بهـا هـذه القبيلة ، حتى في الجاهلية .

إن قبيلة جهينة كانت تقطن سواحل الحجاز ، ولهـذا السبب كانـوا يسمون تلك السواحل باسم « ارض جهينة ، أو بلاد جهينة » غير أنها انتشرت ، بعد الاسلام ومع الفتوحات العربية ، إلى العـراق والشام ومصـر . فكان في الكـوفة محلة خـاصة بهم ، ومسجد يسمى باسمهم ، كما أنهم كانوا اكثر عرب الصعيد في الديار المصرية .

إن بني جهينة لعبوا دوراً هـاماً في الفتـوحات العـربية : كـل من يراجـع تاريـخ الطبري يرى أن هذه القبيلة ، تذكر فيه بمناسبة وقائع عديـدة ، إن عدد هـذه الوقـائع يبلغ اثنتي عشرة ، اقدمهـا يعود إلى عهـد النبي العربي . يعلمنـا الطبـري بأن جهينـة « اشتركت في فتح مكة اشتراكاً فعالاً ، وبأنها كانت في المجنبة اليمنى تحت قيادة خالد بن الوليد » كما يصرح بأن بين من شهد فتح مكة في المسلمين كان الف واربعمائة رجل من جهينة » .

هـذا ، ومن المعلوم أن النسبـة إلى هـذه القبيلة ، تكـون عـلى شكـل « جهني » ويقول ابن الاثير مثلاً في كتابه « اللباب في تهذيب الانساب » في مادة الجهني ما يلي :

« وهذه النسبة إلى جهينة وهي قبيلة من قضاعة . . نزلـوا الكوفـة والبصرة وينسب اليهـا خلق كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم » .

ومما يستلفت النظر ، أن « الواقدي » يذكر بين الصحابة المنسوبين إلى هذه القبيلة رجلاً « اسمه معبد بن خالـد الجهني » ويصرح بـأنه « اسلم » قـديماً وأنـه « كان احـد الاربعة الذين حملوا ألوية جهينة يوم فتح مكة » . .

إن كـل من يأخـذ هذه الحقـائق والشواهـد بنـظر الاعتبـار ، ويـلاحظ أن لقب « الجهني » كـان من الالقاب المعلومـة والمستعملة حتى بـين الصحـابـة . . لا يتـردد في القول بأن نسب « معبد الجهني » الذي « تكلم في القدر آخر ايـام الصحابـة » يجب أن يرجع إلى القبيلة المذكورة .

هذا ، وهناك نص قطعي يدل على ذلك : يقول السمعاني ، في كتاب الانساب، « الجهني ـ هـذه النسبة إلى جهينـة ، وهي من قضـاعـة . . نـزلت الكـوفـة ، ومنهـا محلة ينسب اليها جماعة . . منهم : معبد بن خالد الجهني ، كان يجالس الحسن البصري وهو اول من تكلم بالبصـرة في القدر فسلك اهل البصرة بعده مسلكه فيها » (ورقة ١٤٥ ب) .

أفـلا يحق لنا أن نستغـرب ـ والحـالـة هـذه ـ كيف أن الاستـاذ شمس الـدين ، يتغافل عن جميع هذه الشواهد الصريحة ، ويدعي نسبة معبد الجهني إلى قلعة جهينة في طبرستان ، وكل ذلك لأن ياقوت الحمـوي ذكر أن هنـاك قلعة بهـذا الاسم ! . وكيف

أنه يعتبر وجود قلعة باسم جهينة في طبرستان ، دليلاً قاطعاً على تـركية معبـد الجهني ، ويستند على هذا الدليـل للاتيـان بنظريـة ترمي إلى قلب « تـاريخ الحـركة الفكـرية في الاسلام » رأساً على عقب !

وهنـا ، نرى من الضـروري أن نتقدم بكلمـة استـطرادية عن قلعـة جهينـة في طبرستان ، فنتساءل : ما هي هذه القلعة ؟ لـماذا سميت باسم جهينـة ؟ ما شـأن هذا الاسم العـربي الصريـح في طبرستـان ؟ هل من عـلاقة بـين اسم القلعة ، وبـين اسم المواقع والقبائل المعلومة ، المنتشرة في الحجاز وسوريا والعراق ومصر ؟

إننا نجد بعض المعلومات عن القلعة المذكورة في كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل (ص ٣٨٥) ومسالك الممالك ، للاصطخري (ص ١١٧) واحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، للمقدسي (ص ١٧٢) ونفهم من جميع هذه المصادر القديمة أنها تقع بين جرجان وبسطام ، على بعد مرحلة واحدة في كل منهما . وهي « واد لقرية حسنة » ، حسب وصف الاصطخري ، وهي « عند مَمَر جبل » حسب تعبير المقدسي ، مما يدل على أنّ قلعة جهينة مشيدة في موقع منيع ، عند ممر جبل . كما نفهم مما كتبه Rabino في كتابه عن مازندران ، ان القلعة المذكورة كثيراً ما تذكر في التواريخ المحلية ، باعتبارها كانت ملجأ يحتمي به حكام كابود جاما Kabud -Jama حين مهاجمتهم من قبل حكام خراسان وصبهبادية Ispahbads مازندران . واما سبب تسميتها بهذا الاسم ، فلم نعثر على نص في شأنه .

ومع هذا، نعتقد بأن بعض الوقائع المسطورة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري، يلقي نورا كشافا على هذه الأسئلة، ويساعدنا على حلها:

ومن غريب الاتفاق ، أن هذه الواقعة مسطورة في نفس الصحيفة التي حاول أن يستند اليها الاستاذ شمس الدين في دعواه المتعلقة بانتقال الثقافة من بخارى إلى البصرة : يقول البلاذري في الصفحة ٤١٠ من فتوح البلدان ، قبل العبارة التي استشهد بها الاستاذ شمس الدين ، « ثم ولّى زياد بن ابي سفيان (وهو والد عبيد الله الذي نقل الفين من اهل بخارى إلى البصرة) الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥١ خراسان . وحوّل معه من المصرين زهاء خمسين الفاً بعيالاتهم . . » .

من المعلوم أن المصرين اللذين يقصدهما البلاذري هنا ، همـا البصرة والكـوفة . وبما أنه من الثابت أن جماعة من جهينة كانوا نزلوا الكوفة والبصرة ، فلا مجال للشك في أن بين هؤلاء الخمسين الفاً وعائلاتهم كان جماعة من جهينة ايضاً . افلا يحق لنا ايضـاً أن نفـرض بحق ـ والحالـة هذه ـ أن اسم قلعـة جهينة في طبـرستان ، من آثـار نـزوح هؤلاء إلى هناك ؟ من الممكن أن تكون القلعـة قد اسست في عصـر الفتوح ، فسميت

لذلك باسم قبيلة الحامية التي تولت الدفاع عنها ، ومن الممكن أنها كانت موجودة قبل الفتح ، غير أن اسمها القديم نسي ، بجانب الاسم الجديد الذي اعطي اليها بالنسبة إلى قبيلة الحامية التي سكنت فيها وفي جوارها . ونحن لا نود أن نبت في هذه القضية ، مع هذا لا يسعنا الا أن نشير إلى العلاقة الظاهرة بين اسم هذه القلعة ، وبين اسم القبيلة العربية التي انتقلت ـ مع من انتقل من اهل المصرين ـ إلى ما وراء النهر ، في ولاية زياد بن ابي سفيان(٣٤) .

هذا ، ونحن لا نرى مجالا للشك في أن الاستاذ شمس الدين قد لاحظ الفقرة المذكورة في الصحيفة التي أشار اليها بنفسه ، ولذلك نستغرب كل الاستغراب كيف انه اهتم اهتماماً كبيراً بالألفين الذين نقلوا من بخارى إلى البصرة ، وادعى لهم شرف توليد الحركة الفكرية هناك ، ولم يبال بعشرات الالوف الذين نقلوا مع عائلاتهم ، بعكس ذلك ، وقبل ذلك ، من البصرة إلى ما وراء النهر ؟

واما القضية الثالثة التي يعتمد عليها الاستاذ شمس الدين في بناء نظريته الجديدة ، فلا نرانا في حاجة إلى البيان ، بأنها تفقد قيمتها وقوتها الانشائية بعد ثبوت بطلان القضيتين الاوليين . فلا نرى لزوماً لاطالة البحث فيها .

الخاتمة

يظهر من الوقائع والحقائق التي سردناها وناقشناها آنفاً أن النظرية التي وضعها الاستاذ شمس الدين كون آلتاي ، في مقالته المنشورة في مجلة **مجمع التاريخ التركي** لا تستند إلى اي اساس علمي ، بل تخالف جميع الوثائق التي تحوم حول هذه المسائل مخالفة صريحة .

لا مجال للشك في أن كاتب المقالة لم يقدم على وضع وتوسيع نظريته هذه الا مدفوعاً بالنزعة القومية التي اخذت تسيطر منذ مدة ، على بعض مفكري الاتراك بغية ارجاع كل شيء في التاريخ إلى اصل تركي ، ولا نتعدى الحقيقة إذا قلنا ، أن هذه النزعة هي التي ابعدته عن مناحي الابحاث العلمية ، وحملته على « جبر الشواهد » و « خلط الوقائع » . . . بالصور الغريبة التي سردناه وشرحناها آنفاً .

من الامور الثابتة : إن الاتراك ساهموا في تنمية الثقافة الاسلامية ونشرها مساهمة

---

(٣٤) ان المعلمة الاسلامية تذكر في مادة جهينة ، العلاقة التي اكتشفت اخيراً بين بقايا هذه القبيلة العربية وبين اهالي دارفور وفاداي في السودان.

ثمينة ، فمما لا مجال للشك فيه ، أن مؤرخي الاتراك يستطيعون أن يجدوا في صحائف التاريخ مفاخر حقيقية كثيرة ، تكفي لتغذية غرورهم القومي . واشباعه وتنميته . . . واما الذين يغالون في هذا المضمار ، إلى درجة الادعاء بأن الاتراك كانوا العامل الاصلي في توليد الحركة الفكرية الاولى في الاسلام . . والذين لا يتورعون عن جبر الوثائق وقلب الحقائق ، بغية اثبات مثل هذه المدعيات . . اعتقد أنهم يسيئون إلى سمعتهم العلمية ، ولا اظن أنهم يكونون قد خدموا قوميتهم خدمة حقيقية .

العرب في مقدمة ابن خلدون(*)

(*) نشرت في مجلة الأمالي في بيروت سنة ١٩٣٩ .

العرب في مقدمة ابن خلدون

لاقاني صديق ، وبادرني بحديث طويل ، يمتزج فيه أداء الاستيضاح مع قصد الاستفزاز :

ـ عهدناك من الذين يكنون في قلوبهم إعجاباً عميقاً بابن خلدون ، وسمعنا منك أن هذا الإعجاب هو الذي حملك على تسمية ابنك باسم « خلدون »، وهو الذي حدا بك إلى التكني في كل ما تكتب وتنشر بكنية « أبو خلدون » في حين أننا علمنا أخيراً بأنه قد ظهر في بغداد من يحمل حملات عنيفة على ابن خلدون ، وسمعنا بأن بطل هذه الحملات يدعي بأن ابن خلدون من الكافرين بالعروبة ، ويقول لذلك بوجوب حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية . . فما بالك لم تحرك ساكناً تجاه هذه الآراء والحملات الجديدة ؟ فإذا كنت تعتقد بأن هذه الآراء وهذه الحملات لا تستند إلى أساس صحيح ، فعليك أن تفندها وتظهر الحقيقة في أمرها ؛ وإذا كنت تعتقد بأنها محقة ، فعليك أن تشترك بها ، وتظهر إشتراكك هذا ـ على الأقل ـ بترك كنية « أبو خلدون » التي كنت قد اخترتها . . وأما أن لا تعمل لا هذا ولا ذاك ، وأما ان تسكت تجاه هذه الحملات سكوتاً تاماً ، ولا تحرك ساكناً بالرغم من كل ما قيل في هذا الباب . . . فاسمح لي أن أقول لك . . .

لم أشأ أن أترك لصديقي مجالاً للكلام أكثر من ذلك ، فقاطعته قائلاً :

ـ نعم ، أيها الصديق ، أنا من المعجبين بابن خلدون إعجاباً عميقاً ، ومن الذين يعتقدون أنه من أعاظم الفكر البشري بوجه عام ، ومن مفاخر الفكر العربي بوجه خاص . واعتقادي هذا كان توثق وثوقاً كبيراً ، عندما توليت تدريس علم الاجتماع في دار المعلمين العالية ببغداد ـ قبل نحو عشر سنوات ـ وقمت بمقارنات

شاملة بين آراء ابن خلدون ، وآراء من سبقه ومن تبعه من المفكرين ، في ميادين الاجتماعيات ، لأن هذه المقارنات أوصلتني إلى الاعتقاد بأن ابن خلدون يستحق لقب مؤسس علم الاجتماع أكثر من أي مفكر آخر .

غير أن صديقي قاطعني هنا متسائلاً :

ـ تأسيس علم الاجتماع ؟ وما أهمية ذلك في القضية القومية ؟ هب اننا خلعنا هذا اللقب على ابن خلدون ، ولقبناه بلقب « مؤسس علم الاجتماع » ، بل بلقب « خالق علم الاجتماع » فهل تظن هذا اللقب يضمن له المغفرة من ذنب الكفر ، ولا سيما إذا كان كفره هذا من نوع « الكفر بالقومية » ؟ أفلم تقل أنت مراراً ـ في دروسك وكتاباتك ومحاضراتك ـ « يجب أن ندرّس التاريخ بنظرة قومية » ؟

فكان عليّ أن أجيب على أسئلة صديقي جواباً مفصلاً ، فقلت له :

ـ نعم أنا لا أزال أقول بوجوب درس التاريخ بنظرة قومية ، غير إني أقصد من تعبير « النظرة القومية في التاريخ »، النظرة المنورة التي تلاحظ الأمور « من وجهة نظر القومية » ملاحظة مبنية على الدرس الحقيقي والتفكير العميق . لا النظرة العمياء التي تحكم بلا درس وتتكلم بلا تفكير . . أنا أقصد من « النظرة القومية في التاريخ » النظرة المنورة التي تنفذ إلى زوايا التاريخ وخباياه ، لتتحرى المنابع والعيون التي يتفجر منها ماء حياة القومية ، وتستكشف المنحدرات والمجاري التي تساعد على توجه تلك المياه وتجمعها وتدفقها . . لا النظرة العمياء التي لا تكلف نفسها عناء البحث والاستكشاف وتوجد أحياناً بين الحقائق التاريخية والنزعات القومية ، مشادة لا مبرر لها ولا فائدة من ورائها .

لعل قضية « ابن خلدون » التي نحن بصددها من أبلغ الأمثلة وأحسن الأدلة على ما أقول :

عندما نبحث عن ابن خلدون ، ونقرأ مؤلفاته ، يجب علينا ـ قبل كل شيء ـ ألا ننسى أنه لم يكن من رجال هذا العصر ، كما أنه لم يكن من الرجال الذين نشأوا في عهد الدولة الأموية أو الدولة العباسية . إنما كان من رجال القرن الرابع عشر للميلاد . كان ابن خلدون من الرجال الذين عاشوا في عهد انحلال الأمة العربية وتشتت دولها : فقد عاش بضع سنوات في غرناطة ، فشهد مآسي احتضار العهد العربي في الأندلس ، كما ذهب إلى الشام خلال حملة تيمورلنك ، فشهد فاجعة إحتراق دمشق واندثار بقايا الحكم العربي في تلك الديار . . كما تنقل مدة طويلة بين القاهرة وتونس وفاس ، واطلع على الفتن والقلاقل التي كانت تتوالى بلا إنقطاع ، بين الدول

والدويلات والملوك والأمـراء ، في جميع تلك الأنحـاء . . فيجب علينا أن لا نستغـرب إذا ما وجدنا فيه روحـاً فلسفية تستـرسل في التشـاؤم إلى درجة الحكم بـأن لكل دولـة عمراً طبيعياً وأجلاً محتومـاً ، وأن هذا العمـر الطبيعي ، لا يـزيد ـ عـادة ـ على أربعـة أجيال .

فمن العبث أن نبحث ـ والحالة هـذه ـ في ما كتبـه ابن خلدون ، عن دروس في الأخلاق ، أو مواعظ في الوطنية ، لأنه لم يهدف في أبحاثه إلى هذه الأمور ، بـوجه من الوجوه .

إن مقدمة ابن خلدون تنم عن نزعة فلسفيـة وعلمية خـالصة ، تصـرف كل مـا لـديها من القـوة والجهد ، في سبيـل البحث عن « الأسباب والعـوامل » بحثـاً فكـريـاً هادئاً ، لا يستهدف شيئاً غـير إظهار النـواميس الاجتماعيـة التي تؤثر في نشـوء الدول وتطورها وإنقراضها .

إنـه أعطانـا من النماذج المبتكـرة في الأبحاث التـاريخية ، ومن الآراء القيمـة في النواميس الاجتماعية ، ما لم يسبقه فيها أحد من المفكرين في العصور القديمـة ، وما لم يصل إلى مستواها أحد من المفكرين في العصور الحديثة ، حتى القرن التاسع عشر .

ولا شك في أن هذه الخدمة وحدها تكفي لإدخاله في حظيرة « مفاخرنا القومية » ولاعطائه مكاناً ممتازاً في تلك الحظيرة . . فلا يحق لنا أن نطلب منـه علاوة عـلى ذلك ـ دروساً في الأخلاق أو مـواعظ في الوطنيـة ، أو نلومه عـلى عدم إعـطائه لنـا مثل هـذه الدروس والمواعظ .

وهنا قاطعني صديقي مرة ثانية معترضاً :

ـ غير إن عدم إعطاء دروس ومواعظ أخلاقية ووطنية شيء ، وكتابة الفصول في مثالب العرب شيء آخر .

وأنا واصلت حديثي ، شارحاً وجهة نظري بكل تفصيل :

ـ ها إنني قد انتهيت من المقـدمة ، ووصلت إلى بيت القصيـد : فعليّ أن أقـول الآن ، بـأنني اعتـرض عـلى كـل من يـدعي بـأن ابن خلدون كتب فصـولاً في مثـالب العرب .

لا تستغربوا قولي هذا ، أنا لا أجهل بأنه يوجد في مقدمة ابن خلدون فصل (في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسـرع إليها الخـراب) ، وفصل آخـر (في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك) ؛ وآخر (في أن العـرب أبعد النـاس عن الصنائـع) ،

وفصول أخرى مماثلة لذلك . . . غير أنني ادعي بصورة قطعية ، أن ابن خلدون لم يستعمل كلمة (العرب) في هذه الفصول ، وفي الفصول الأخرى المماثلة لها ، بالمعنى العام الذي نفهمه منها الآن . بل أنه استعمل كلمة (العرب) بمعنى البدو ، والرحل منهم على وجه الحصر . وأنا مستعد لذكر عشرات من الدلائل والقرائن التي تشهد على صحة مدّعاي هذا بصراحة تامة .

أنعموا انّظر ، مثلاً ، في الفصل الذي يقول فيه (أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب) لاحظوا الأدلة التي يذكرها لتعليل ذلك تجدوا فيها هذه العبارات : « فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له » (ص ٢٤٩) ألا تلمسون من بين ثنايا هذه العبارات أنها تشير إلى اعراب البادية وحدهم ، ولا تقصد الأمة العربية بأجمعها ـ حسب المعنى الذي صرنا نفهمه نحن من كلمة العرب ، الآن ؟ وإذا خامركم أدنى شك في هذا الباب فاقرأوا العبارات التالية ، فستجدون فيها ما يطرد من ذهنكم كل أنواع الشكوك : (فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي للقدر فينقلونها من المباني ويخربونها عليه . . . والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم ، فيخربون السقف عليه) . فهل من مجال للشك في أن مدار البحث هنا لا يتعدى (البدو) الذين يعيشون تحت الخيام ؟ وهل يستطيع أحد أن يدعي بأن ابن خلدون ، عندما كتب هذه العبارات ، وقال « لا يحتاجون إلى الحجر إلا لنصبه أثافي للقدر ، ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام . . . أكان يعني أهل دمشق ، أو القاهرة ، أو سَكَن تونس أو فاس ؟ » .

لننتقل إلى فصل آخر : فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي (ص ١٢١) ألا تجدون أن عنوان هذا الفصل وحده ، يدعونا إلى التأمل لتعيين المعنى المقصود من كلمة العرب ؟ اقرأوا الفصل ، تجدوا فيه تفاصيل كثيرة عن وسائل المعيشة ، وعن تأثير هذه الوسائل والنظم في الحياة الاجتماعية ، ثم تصلوا إلى العبارات التالية : « أما من كان معاشهم من الإبل ، فهم أكثر ظعنا وأبعد في القفر مجالاً فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً . وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم . وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق . إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة ، لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط . . . » ألا تفهمون من هذه العبارات ـ ولا سيما من العبارة الأخيرة ـ أن ابن خلدون استعمل كلمة العرب هنا أيضاً بمعنى خاص ، غير المعنى العام الذي نفهمه منها الآن ؟ ألا ترون ، بصراحة ما بعدها صراحة ، أن مؤلفنا عندما كتب ما كتبه في هذا الباب ، لم يقصد قط أهل المدن والأمصار ؟ وفي الأخير ، تأملوا في العبارة القائلة « هؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة في المغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق » وفكروا ما هو المعنى الذي يشترك

فيه العرب والبربر والترك والتركمان ؟ هل هو شيء غير حياة البداوة والترحل ؟ أفلا ترون أن ذلك هو المقصود في جميع هذه العبارات بصورة صريحة ؟

ولننتقل الآن إلى فصل آخر ، ولنقرأ الفصل الذي يقول فيه المؤلف (أن العرب أبعد الناس عن الصنائع) (ص ٤٠٤) نجد أنه يبدأ الحديث عن ذلك بالعبارة التالية : « والسبب في ذلك أنهم أعرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها » ثم يقول : « والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس إليها . لأنهم أعرق في العمران الحضري ، وأبعد عن البدو وعمرانه . حتى أن الابل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة . . وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك ، لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين » . أفلا ترون في كل هذه العبارات قرائن قطعية ، ودلائل صريحة على المعنى الذي ذكرته آنفاً ؟

أنا لا أرى لزوماً لتكثير هذه الأمثلة والشروح . . غير أنني أؤكد لكم بأن كل من يتصفح مقدمة ابن خلدون تصفح المدقق ، يجد في فصولها المختلفة عدداً كبيراً من أمثال هذه الدلائل والقرائن ، التي لا تترك أدنى مجال للريب في أن المفكر المشار إليه لم يستعمل كلمة العرب بالمعنى الشامل الذي نفهمه منها الآن ، بل استعملها ـ كما شرحت ذلك آنفاً ـ بمعنى خاص ، إلا وهو « البدو » والرحل منهم على وجه الحصر .

عندما ختمت حديثي هنا ، لاحظت بأن صديقي اقتنع بصحة ما قلته تمام الاقتناع . غير أنني لمحت ـ بين العلائم التي تظهر هذا الاقناع ـ آثاراً تنم عن الاستغراب . . . فرأيت من واجبي أن أخلصه من هذا الاستغراب أيضاً ، فواصلت الحديث ، قائلاً : ـ قد تسألونني ، لماذا سلك ابن خلدون هذا المسلك الغريب في التسمية ، فاستعمل كلمة العرب بهذا المعنى الخاص ؟

فاسمحوا لي أن أقول لكم : بأن معاني الكلمات كثيراً ما تتغير وتتطور على مرّ القرون . إن تاريخ اللغات الاوروبية يذكر لنا أمثلة كثيرة على ذلك ، كما أن تاريخ اللغة العربية أيضاً يعطينا أمثلة غير قليلة لذلك . خذوا مثلاً كلمتي العجم والروم ، لا شك أنكم تعرفون أن كلمة العجم كانت تستعمل بمعنى واسع جداً ، فكانت تشمل كل من ليس بعربي على الاطلاق غير أنها تخصصت مؤخراً ، فأصبحت اسماً لأمة واحدة من تلك الأمم . كذلك كلمة الروم ، فإنها كانت تستعمل بمعنى واسع تشمل مجموعة أمم من أديان وأجناس مختلفة ، ثم تخصصت بالتدريج للدلالة على أصحاب مذهب معين من جهة ، وعلى أفراد أمة معينة من جهة أخرى .

فهل من مجال للاستغراب ، إذا ما تغير وتطور المعنى المفهوم من كلمة « العرب » أيضاً على مرّ القرون ؟

أنا لا أرى لزوماً لتتبع آثار هذا التطور منذ عصر الجاهلية غير أنني استلفت أنظاركم إلى حقيقة راهنة ، الا وهي : إن إستعمال كلمة العرب بالمعنى الخاص الذي ذكرته آنفاً ، من العادات التي لم تندرس آثارها تماماً ، فإن هذا الاستعمال لا يزال دارجاً في بعض النشرات في مصر ، كما أنه لا يزال منتشراً في أحاديث العوام في العراق . إنني كنت تألمت من ملاحظة تفشي هذا الاستعمال بين الطلاب والمعلمين أيضاً . فقد رأيت لزوماً لاصدار بلاغ عام للمدارس حول هذا الموضوع ـ عندما كنت مديراً عاماً للمعارف ـ وقد قلت في البلاغ المذكور ـ المؤرخ بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩٢٤ ـ ما يلي : (من المعلوم أن عامة الناس قد اعتادوا استعمال كلمة عرب بمعنى « بدوي » و « فلاح » فكثيراً ما يقولون مثلاً : « ذهب إلى العرب » أو « كان عند العرب » بمعنى « ذهب إلى البادية » أو « كان بين البدو » ، كما أنهمْ يقولون مثلاً « بساط عرب أو بيوت عرب » بمعنى « بساط عادي » أو « بيوت فلاحين » . وكما أنهم كثيراً ما يلفظون هذه الكلمة بلهجة يمازجها شيء من الاستخفاف والازدراء . ولقد شاهدنا مع كل أسف هذه العادة السيئة منتشرة وسائدة حتى في المدارس . فالطلاب كثيراً ما يستعملون كلمة العرب بالمعاني والصور الآنفة الذكر ، مثل العامة ، وأما المعلمون ، فأنهم لا يعتنون في تصحيح هذا الغلط ، بل أحياناً يشاركون العامة فيه .

(لما كان هذا الاعتقاد مخالفاً لما تقتضيه التربية الوطنية والقومية كل المخالفة ، ولما كانت أسمى الغايات التي يجب أن يستهدفها المعلمون في دروسهم وأعمالهم هي بث الأخلاق الفاضلة بصورة عامة ، وتقوية الشعور الوطني والقومي بصورة خاصة ، رأينا أن نلفت أنظار جميع المديرين والمعلمين إلى هذا الأمر المهم . وأن نطلب إليهم : ـ

(أن يجتهدوا في إزالة هذا الغلط بكل ما لديهم من قوة ونشاط ، وأن يفهموا التلاميذ بكل دقة واعتناء معنى الفلاح والبدوي والعربي ويوضحوا لهم أن كلمة « عرب » لا تدل على صنف من صنوف الخلق ؛ بل هي تدل على جميع أفراد الأمة ، ويعودوهم على استعمالها بهذه الصورة . . . ويجنبوا أنفسهم من الاشتراك في هذه الغلطة ومن استعمال اسم الأمة العظيمة التي نفتخر بالانتساب إليها بهذا المعنى العامي ، سواء كان في دروسهم أو في محادثاتهم . . .) .

ألا يدل هذا البلاغ الرسمي ـ الذي كان أذيع على المدارس العراقية قبل خمسة عشر عاماً ـ دلالة واضحة على مبلغ انتشار الاستعمال المذكور ، عندئذ ؟ لا شك في أن استعمال كلمة العرب بهذا المعنى قلّ كثيراً منذ ذلك التاريخ ، بسبب جهود المعلمين عملاً بمنطوق البلاغ المذكور من جهة ، وبسبب انتشار التعليم وذيوع الصحافة من جهة أخرى . مع هذا لا مجال للشك في أن آثار هذا الاستعمال لا تزال

تبدو إلى العيان . . . في بعض الأحيان .

فهل يجوز لنا أن نستغرب ـ والحالة هـذه ـ إذا ما شـاهدنـا ابن خلدون يستعمل هذه الكلمة بهذا المعنى قبل خمسة قرون ؟

لم يتردد صديقي في تصديق ما قلته بهذا الصدد ، غير أنـه وجه لي هـذا السؤال الأخير :

ـ مع كل هذا ، ألا تجد أن مقدمة ابن خلدون تضعنا أمام مشكلة هـامة ؟ فـإن النـاس قلما يُنعمون النـظر في مثل هـذه الأمـور عنـدمـا يقـرأون . . . ولا شـك في أن الشعـوبيين يستفيـدون من ذلك ، فيستشهـدون بكلمات ابن خلدون ليـزعزعـوا إيمان الشباب في مزايا أمتهم وقابليتها .

فأجبته قـائلاً : هـذا صحيح ، ولكن مـا السبيل إلى معـالجة هـذه المشكلة ؟ لا شك في أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو : السعي لاظهار هذه الحقائق ، وتصحيح هذه الأخطاء عند جميع الناس بوجه عام ، وعند قرّاء ابن خلدون بوجه خاص .

ومن الغـريب أن ترجمة مقدمـة ابن خلدون إلى الفـرنسيـة ، مصـدرة بمـدخـل طويل ، ومـذيلة بشروح كثيـرة ، وفي هذه الشـروح إشارة صـريحة إلى أن المؤلف قـد استعمل كلمة العرب بمعنى البدو في معظم الفصول ، في حين أن الطبعات العربيـة لا تزال محرومة من مثل هذه الشروح والاشارات . إن هـذه الواقعة وحدها ، تدلنا على الطريق المعقول الذي يجب أن نسلكه في هذا الباب .

وأمـا إذا إنصرفنـا عن أمثال هـذه الطرق المعقـولة ، فـاندفعنـا في مقـابلة كـلام الشعوبيين بقولنا « إن ابن خلدون كفر بأقواله ، فلنحـرق كتبه ، ولننبش قبـره . . . » فنكـون قد خـدمنا مقـاصد هؤلاء الشعـوبيين من حيث لا نـدري . إذ أننا نكـون قد جعلنا « شهرة ابن خلدون العالمية » خصماً وهمياً لفكرتنا القومية ، بغير مبرر ، ونكـون قد بددنا قوانا لمعاداة شهرة ابن خلدون بلا جدوى ، عوضاً عن أن نستفيد منها لتوسيع نطاق مفاخرنا الفكرية والعلمية ، وتقوية إيماننا القومي بتذكر تلك المفاخر العظيمة .

كنت قلت لك أيها الصديق ، في بدايـة حديثنـا ، بأنني من الـذين يدعـون إلى النظرة القومية المنورة لا النظرة القومية العمياء .

فأظن أن التفاصيـل التي ذكرتهـا آنفاً ، تـظهر بـوضوح تـام ، ما أعنيـه بالنـظرة القومية المنورة وما أعنيه بالنظرة القومية العمياء . . . .

عود إلى مسألة العرب في مقدمة ابن خلدون

زارني صديقي ، مع جماعة من اصحابه ، وقال لي :

ـ إنني اشكرك ، واخواني ، على المقالة التي نشرتها عن حديثنا حول مسألة العرب في مقدمة ابن خلدون . لقد نوّرت الاذهان في هذه المسألة الهامة ، وصححت الغلط الشائع في فهم مقدمة ابن خلدون ، فأديت بذلك خدمة علمية وقومية في وقت واحد .

ثم تابع حديثه قائلاً : لقد اتصلنا منذ انتشار مقالتك ، مع عدد كبير من المفكرين والشبان المنورين ، فوجدناهم كلهم قد اقتنعوا بصحة تفسيرك ، واشتركوا بوجهة نظرك . . غير أن احد اصحابنا لم يتخلص من الريب العالق في ذهنه ، ولذلك جئنا به لتتحدث اليه .

قال ذلك ، وقدم لي صديقه المرتاب .

فقلت لصديقه هذا : ارجو أن تشرح لي وجوه ارتيابك في الامر ، بكل صراحة .

فأخذ الشاب يسرد الشكوك التي خامرته في هذا الباب ، قائلاً :

ـ أنا اعترف بأن الامثلة التي ذكرتها في مقالتك عن استعمال كلمة العرب بمعنى البدو ، واضحة ومقنعة . غير أني اخشى أن تكون هذه الامثلة من الأمور الشاذة ، وأن لا يكون في تعميمك لمدلولات هذه الامثلة شيء من الخروج على ما يقتضيه التفكير العلمي من الدقة في الحكم والاحتراز في التعميم . . واسمح لي أن اقول بصراحة ازيد : أنا اعرف مبلغ تقيدك بالطرق العلمية في مباحثك ، غير أني اخشى أن

تكون قد استعجلت في تعميم هذه الامثلة ـ خلافاً لاعتيادك العام ـ مدفوعاً بحرصك على تزكية ابن خلدون من جهة ، وعلى الدفاع عن العرب من جهة اخرى . . فهل تأكدت من أن ابن خلدون استعمل كلمة العرب بمعنى البدو ، في كل اقسام المقدمة ؟

شكرت الشاب على صراحته في هذا الباب ، فقلت :

ـ تأكدوا بأنني درست هذه المسألة بنزعة علمية بحتة ، مجردة عن كل انواع الاندفاعات العاطفية ، وعن جميع الأفكار القَبْلانية . . لقد أشرت على جميع كلمات العرب والعربي الواردة في مقدمة ابن خلدون ، من أولها إلى آخرها . وأحصيت هذه الكلمات ، وصنفتها حسب مواقع استعمالها . . ولم اقل ما قلته في هذا الباب ، الا بعد هذا الدرس الشامل التام .

فقد وجدت في أكثر من ثمانين موضعاً من الكتاب ، دلائل وقرائن قطعية على استعمال كلمة العرب بمعنى البدو . وهذه المواضع لم تكن مجتمعة في فصل واحد أو في فصول متقاربة ، بل هي مبعثرة في جميع ابواب الكتاب ، من فصوله الاولى إلى فصوله الاخيرة . . ولا اراني في حاجة إلى القول بأن وجود هذا المقدار الكبير من القرائن القاطعة ، في هذا القدر المهم من المواضع المختلفة ، مما يخولنا حق تعميم الأمر ، بدون تردد .

هذا وأستطيع أن اؤكد لكم بأن الامثلة التي ذكرتها ، لم تكن ابرز الامثلة الموجودة في الكتاب ، فانني لم اختر تلك الامثلة لشذوذ في وضوحها بل اخترتها ، لمجيئها في فصول تحتوي على اقسى الاحكام على العرب : فصل في أن العرب إذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب ، فصل في أن العرب ابعد الامم عن سياسة الملك ؛ فصل في أن العرب ابعد الناس عن الصنائع . . واما في الفصول الاخرى ، فيوجد من الدلائل والقرائن ما هو اوضح واصرح من التي ذكرتها في مقالتي . . .

قلت ذلك ، واتيت بمقدمة ابن خلدون ، واخذت اراجع فهرستها :

ـ اولاً ، اسمحوا لي أن استلفت انظاركم إلى نقطة هامة ، جديرة بالاعتبار : انظروا إلى الفصل الذي يقول فيه ابن خلدون « أن العرب إذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب » ولاحظوا موقع هذا الفصل من ابواب الكتاب ، تروا أنه من فصول الباب الثاني . اقرأوا عنوان هذا الباب : « الباب الثاني ـ في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال » ! تروا من ذلك ، بأن هذا الباب يبحث عن « العمران البدوي » ، ويترك أمر البحث عن الدول إلى الباب الثالث ، والبحث عن « البلدان والأمصار وسائر العمران » إلى الباب الرابع .

لاحظوا أن الفصل الـذي يقول بـأن « العرب لا يستـولون الا عـلى البسائط » والـذي يدعي بأن « العرب أبعد الامم عن سياسة الملك » والذي يقول بأن « العرب لا يحصل لهم ملك الا بصبغة دينية » . . ايضاً من اقسام الباب الثاني ، من اقسام الباب الباحث « في العمران البدوي » .

قلت ذلك ، ووضعت الكتاب بـين يدي الشـاب ، واستلفت انظاره إلى عنـوان الباب ، وإلى فهرست فصول هذا الباب .

فصاح الشاب : هـذا دليل حـاسم تمامـاً . لم يبق عندي مجـال للريب في صحة تفسيرك للأمر .

غير أني رأيت أن اتابع حديثي وقلت :

ـ لا والآن ، اسمحوا لي أن اعرض على انظاركم ادلة واضحة من كل ما كتبتـه قبلاً ، ومن كل ما قلته إلى الآن :

كنت قـد تطرقت في مقالتي إلى الفصـل القائـل بأن « العـرب ابعد النـاس عن الصنائع » ؛ وذكرت قرائن عـديدة تـدل على استعمـال كلمة العـرب في هذا الفصـل بمعنى البدو . وقد لاحظت في محل آخر من المقدمـة ، بعض الفقرات التي تؤيـد ذلك بصراحة ما بعدها صراحة : عندما يبحث ابن خلدون ـ في الباب الاخير من مقدمتـه ـ عن العلوم يشبهها بالصنائع ، فيقول في هذا الصدد ما يلي :

(وقد كنا قـدمنا أن الصنـائع من منتحـل الحضر ، وأن العـرب ابعد النـاس عنها ؛ فصـارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب . .) (ص ٥٤٤) .

ترون في هذه العبـارات ، أن ابن خلدون يذكـر كلمة العـرب مرتـين ، مقابـلاً لكلمة الحضر بصراحة تامة ، وبشكل لا يترك مجالاً للشك في أنه يقصد منهـا « البدو » على وجه التخصيص ، ويخرج من نطاق شمولها « الحضر » على الاطلاق . .

تصفحوا الفصول البـاحثة عن اللغـة والشعر ؛ تجـدوا فيها ايضـاً امثلة صريحـة وادلة حاسمة لذلك :

اقرأوا الفصل الخمسين : « في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهـد » (ص ٥٨٢) تروا أن العنوان نفسه يميز « العرب » عن « أهل الامصار » بصراحة تامة .

اقرأوا الفصل نفسه ؛ تجدوا بين سطوره ايضاً ما يؤكد ويؤيد دلالة العنوان :

« كذلك الحضـر اهل الامصـار . نشأت فيهم لغـة اخرى ، خـالفت لسان مضـر في الاعراب

واكثر الاوضاع والتعاريف ، وخالفت ايضاً لغة الجيل من العرب لهذا العهد » (ص ٥٨٢) .

ترون من هذه العبارات أن ابن خلدون يميز « لغة الحضر » عن « لغة العرب » لعهده ، وهذا التمييز لا يمكن أن يفسر الا باستعمال كلمة العرب مقابلاً لكلمة الحضر ، كما في الفقرات التي ذكرتها آنفاً . .

وهناك فصل آخر ، يؤيد كل ذلك ، بتعبيرات واشكال اخرى :

« الفصل التاسع والثلاثون ـ في أن لغة اهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها » يبدأ ابن خلدون هذا الفصل بالعبارات التالية :

« اعلم أن عرف التخاطب في الامصار وبين الحضر ، ليس بلغة مضر القديمة ، ولا بلغة اهل الجيل . بل هي لغة قائمة بنفسها ، بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل الذي لعهدنا » (ص ٥٥٨) .

أليس من الواضح بأن كاتب هذه الفقرات يترك اهل الحضر والامصار خارجاً عن نطاق شمول تعبير « الجيل العربي » ؟

وفي الاخير : اقرأوا الفصل الثامن والثلاثين : « في أن لغة العرب لهذا العهد مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير » (ص ٥٥٧) يقول ابن خلدون في هذا الفصل بأن « افراد الجيل العربي لهذا العهد » لا ينطقون بالقاف كما ينطق بها « اهل الامصار » وبعد أن يوضح كيفية هذا النطق ، يقول ما يأتي :

« وصار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال مختصاً بهم ، لا يشاركهم بها غيرهم . حتى أن من يريد التقرب والانتساب إلى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها : وعندهم انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري ، بالنطق بهذه القاف » (ص ٥٥٧) .

هل تريدون صراحة اكبر من هذه الصراحة ؟ اقرأوا العبارة التي ينهي بها ابن خلدون الفصل الذي نحن بصدده :

« هذا مع اتفاق اهل الجيل كلهم شرقاً وغرباً في النطق بها ، وانها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري . . » (ص ٥٥٨) .

هل يمكن لأحد أن يطلب دليلاً اوضح من هذه العبارات ، على استعمال كلمة العربي بمعنى البدوي ، ومخالفاً لكلمة الحضري ؟

هل الشقاق طبع في العرب (*) ؟

(*) كتب جواباً على سؤال للاستاذ الكبير احمد حسن الزيات ، ونشر في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٩ .

إلى الاستاذ الكبير احمد حسن الزيات

صديقي الاستاذ . . .

لقد اطلعت على السؤال الذي وجهتموه إليّ ، في مقالكم المعنون « هـل الشقاق طبع في العرب ؟ » .

فقد اشرتم في المقال المذكور إلى حوادث الشقاق والتنافس والتخاصم التي توالت في تاريخ العرب ، واستعرضتم الاحزاب السياسية والفرق الدينية التي ظهرت بينهم ، ثم ذكرتم رأي ابن خلدون في هذا المضمار . وفي الأخير تساءلتم : « هل كتب الله على العرب أن يعيشوا ابداً بطبيعة البادية ونفسية الغابة وعقلية القبيلة » ؟

فوجب عليّ أن البي طلبكم ، فاكتب اليكم ما اعتقده في هذه القضيـة الهامـة . غـير اني رأيت من الضروري أن اقف اولاً امـام « المقدمـات » التي صـدرتم بهـا هـذا السؤال ، قبل أن احاول الاجابة عنه إجابة مباشرة .

- ١ -

فاسمحوا لي أن اسـألكم بدوري : هـل تظنـون أن الاختلافـات التي ذكرتمـوها كانت من خصائص الامة العربية وحدها ؟

انـا لا اشك في أن جـوابكم عن هذا السؤال سيكـون بالنفي ، لأنكم تعـرفون جيداً ـ كما يعرف ذلك كل من يستعرض التاريخ العـام ـ أن تواريـخ الامم الاخرى لم تخل من امثال تلك الاختلافات .

فيتـرتب على ذلـك إذن أن انقل البحث إلى كميـة هذه الاختـلافات وشـدتها ،

فأسألكم : هل تعتقدون أن الاختلافات السياسية والدينية التي حدثت في تاريخ العرب كانت اكثر وأشد واعنف من التي تجلت في تواريخ الأمم الاخرى ؟

أنا اعرف أن الآراء الشائعة الآن لا تدع مجالا للتفكير ملياً في هذا السؤال ، لأنها تحمل الاذهان على الرد عليه فوراً بالايجاب .

واعترف بأني أيضاً كنت ـ مدة من الزمن ـ من المتأثرين بهذه الآراء الشائعة ، ومن المسلّمين بأن تاريخ العرب يشذ في هذه القضايا عن تواريخ الامم الاخرى شذوذاً كبيراً . غير أني بدأت اشك في صحة هذه الآراء الشائعة عندما أخذت اتعمق في دراسة التاريخ العام ، وازددت شكاً فيها كلما تغلغلت في هذه الدراسة ، إلى أن اصبحت اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها لا تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة ابداً ، لأنها لا تقوم على مقارنات شاملة ، بل تستند إلى استقراء ناقص جداً .

إننا ننفعل ، ونتألم ، ونغضب . . عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب . . ولا سيما عندما نتتبع نتائج هذه الاختلافات ونطلع على كيفية تضاؤل سلطة الخلافة ، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين .

إننا ننفعل ونتألم من هذه الاخبار والحوادث التاريخية ، لأننا نقيس احوال القرون الماضية بمقاييس الازمنة الحاضرة . . . ولا نكلف انفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً ، لكي نعرف ما اذا كانت تلك الاحوال من الامور التي تشذ فيها الامة العربية عن سائر الامم ، او كانت من الامور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الامم في بعض الاطوار من تاريخها .

فيجب علينا قبل كل شيء ، أن نطلق اذهاننا من ربقة هذه الآراء الشائعة ، لندرس هذه القضايا من جديد ، بنظرات علمية بحتة ، مع استقراء الحوادث التاريخية استقراءاً تاماً .

فلنبدأ اولاً بقضية الاختلافات الدينية . ولنستعرض ما حدث منها في أوروبا ، طوال القرون الوسطى وخلال النصف الاول من القرون الاخيرة . . نجد أنها لم تكن قط اقل تنوعاً ولا اخف عمقا مما حدث في العالم العربي خلال الازمنة المذكورة ، إن لم تكن اكثر تنوعاً واشد عنفاً منها . .

احصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في مختلف البلاد الاوروبية خلال القرون المذكورة . . استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة ، وبين الكنائس المختلفة من جهة اخرى . . استقصوا اخبار الحروب الاهلية والدولية التي نجمت عن هذه الاختلافات

الدينية في مختلف اقسام البلاد الاوروبية ، حتى في فرنسا التي تظهر الآن اكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم . . قلبوا صحائف التاريخ التي سجلت اعمال محاكم التفتيش من جهة ، وحياة مؤسسي المذاهب الدينية من جهة اخرى . . فانكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الاوروبية كانت ـ بوجه عام ـ اوسع نطاقاً ، واكثر تنوعاً ، واشد عنفاً من التي حدثت في العالم العربي .

واما الاختلافات السياسية ، فامرها يحتاج إلى بحث اشمل ، وتفكير أعمق : فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء : أن العرب انتشروا ـ بعد الهجرة النبوية ـ بسرعة خارقة ، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً . ففتحوا خلال قرن واحد ، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون .

تصوروا الاتساع الهائل الذي وصلت اليه الدولة العربية في اوائل القرن الثامن للميلاد . . تتبعوا حدود تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من سواحل بحر المحيط الاطلسي إلى شواطىء نهر السند وسهول كشغر ، ومن سفوح همالايا إلى جبال البرنس والألب ، ومن باب المندب إلى جبال القافقاس . وتذكروا في الوقت نفسه بساطة وسائط المناقلة والمواصلة ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور . . ثم قولوا لي : كيف كان يمكن أن تبقى تلك السلطنة المترامية الأطراف مصونة من مغبة الانقسام مدة طويلة من الزمن ، بالرغم من اختلاف الشعوب الكثيرة التي دخلت تحت حكمها ، وبالرغم من طول المسافات الهائلة التي كانت تفصل ثغورها عن عاصمتها ، وضآلة الوسائط التي كانت تضمن اتصال هذه العاصمة بتلك الثغور .

قولوا لي : اية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف ، مدة اطول من التي سيطر عليها العرب ، دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات ؟

لا ننس أن امبراطورية اسكندر الاكبر ـ في القرون الاولى ـ تجزأت بعد موت مؤسسها ، مع أنها كانت اصغر بكثير من الامبراطورية العربية . كما أن امبراطورية شارلمان ـ في القرون الوسطى ـ لم تسلم من الانقسام بعد موت عاهلها ، مع أنها كانت قليلة الاتساع جداً بالنسبة إلى اتساع الدولة العربية في اواخر عهد الاسرة الاموية ، أو اوائل عهد الاسرة العباسية .

ولا ننس أن انقسام السلطنات والامبراطوريات الكبيرة وانحلالها إلى اقطاعيات

صغيـرة كانت من الامـور الطبيعيـة المألـوفة في جميـع انحاء العـالم المعروف في القـرون الاولى والوسطى .

ولذلك اعود واسألكم مرة اخرى : كم امة من الامم التي عرفها التاريـخ كانت اقل اختلافاً واكثر اتحاداً من الامة العربية من الوجهة السياسية ؟

اليونان ؟ . . ولكن التـاريخ يشهـد شهادة صـريحة عـلى أن هذه الامـة لم تتحد سياسياً في يوم من الايام . . كانت كل مدينة من المـدن اليونـانية الكثيـرة مملكة قـائمة بـذاتها ، دولـة مستقلة عن غيـرهـا . وهـذه الحـالـة كـانت تبـدو لليـونـانيـين طبيعيـة وضرورية ، حتى أن كبار مفكريهم كانوا يحبذون هذه الحالة ، وكانوا يشـاركون الـرأي العـام في هذا المضمـار . وقد قـال افـلاطـون : أن عـدد المـواطنين في الـدولـة ـ اي الجمهورية ـ يجب الا يزيد عـلى خمسة آلاف . وقـال ارسطو أن الـدول يجب أن تكون صغيرة حتى يستطيع جميع افرادها أن يعرف بعضهم بعضاً معرفة مباشرة .

في الـواقع أن هـذه المدن المستقلة ـ اي هـذه الدويـلات الصغيرة ـ كـانت تتفق وتتحالف من حين إلى حين ، لدرء الخطر الخارجي الذي يحدق بالجميع . غير أن هذا التحالف كان لا يلبث أن ينفصم وينحل من جراء تنـافس المدن الـرئيسية عـلى زعامـة الحلف .

ومن المعلوم أن اشهر واهم هذه المحالفات تكونت عند هجوم الميديين على بـلاد اليونان . غير أن هذه المحالفة ايضاً لم تعّمر طويلاً ، بـل انحلت وزالت قبل أن يمضي على تكوينها عقدان من السنين !

وقد انقضى تاريخ اليونان السياسي بالمنافسات والمنازعـات التي قامت بـين اثينة واسبارطة وكـورنت . ومن المعلوم أن هذه المنـافسات ادت إلى حـدوث عـدة حـروب داميـة بين مختلف المـدن اليونـانية ، كـان اشهرهـا الحروب التي عـرفت باسم حـروب البلوبونيز .

ولا ننس أن هذه الحروب التي اشترك فيها معظم المدن اليونانية ، هي التي ادت إلى تحطيم الاسطول الاسبارطي من جهة ، وإلى تدمير اسوار أثينة من جهة اخرى .

ولقد حدثت هذه المنافسات والمحاربـات بين تلك الـدويلات ، مـع أن مساحـة البلوبونيز ـ مع شبه جزيرة آتيكا ـ كانت اقل من مساحـة بعض المديـريات في مصـر ، والمحافظات في سوريا ، والمتصرفيات في العراق . ومع أن المسافة التي تفصل أثينة عن اسبارطة لا تختلف كثيراً عن المسافة التي تمتد بين القاهـرة والاسكندريـة ، وتقل كثيـراً عن التي تفصل دمشق عن بغداد ، وتتضاءل تماماً امام المسافات الشـاسعة التي تفصـل

بغداد عن قرطبة ولا سيما بلخ عن لشبونة .

إن هذه المئات من الدويلات اليونانية التي تقاسمت هذه الرقعة الصغيرة من الارض ظلت متفرقة متنافسة متخاصمة ، ولم تجتمع تحت ادارة واحدة الا عندما دخلت تحت حكم دولة اجنبية .

ترون ايها الاستاذ ، أن الامة اليونانية لم تكن قط في حالة تحسد عليها من هذه الوجهة .

واما الرومان ، فلا شك في أنهم امتازوا بين أمم التاريخ القديم بالاتحاد والانتظام . والامبراطورية التي اسسوها عاشت مدة اطول من مثيلاتها بوجه عام .

غير أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الامتياز نتج عن توافر عدة عوامل واوضاع مساعدة لم تتيسر لغيرها ابداً .

اولاً : أن السلطنة الرومانية تكونت بتدرج عظيم ، وهذا التدرج ساعد على رسوخ الاوضاع الجديدة واستقرارها مساعدة كبيرة .

ثانياً : أن الامبراطورية الرومانية شملت جميع سواحل البحر الابيض المتوسط . ولا حاجة إلى القول بأن روما كانت في نقطة مركزية من هذا البحر ، وقد ساعد ذلك كثيراً على اتصال العاصمة بمختلف اقسام السلطنة عن طريق البحر بسرعة وسهولة ، بالنسبة إلى وسائط النقل والمواصلة المعلومة في تلك العصور القديمة .

ثالثاً : أن السلطنة الرومانية لم تتباعد عن السواحل كثيراً ، ولم تتغلغل في الاقطار القارية ابداً . إنها لم تسيطر على جزيرة العرب ولا على ما بين النهرين ، فمعظم اقسام العراق ، وجميع بلاد ايران وخراسان ، وما وراء النهر والافغان ظلت خارجة عن حوزة السلطنة الرومانية ، وذلك قلّل إلى حد كبير مشاكل الحكم التي تلازم السلطنات المترامية الاطراف .

إن اجتماع هذه الاسباب الاساسية هو الذي ساعد على اطالة عمر الامبراطورية الرومانية بالنسبة إلى ما كان معتاداً في القرون الاولى والوسطى .

ومع كل هذا يجب ألا ننسى أن هؤلاء الرومان ايضاً لم يسلموا من آفات الاختلاف والتنافس : استعرضوا تاريخ روما بنظرة فاحصة ، ولاحظوا كم من المنازعات قامت بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، حتى في مدينة روما نفسها ، وحتى في عهد الجمهورية ! وكم من الحروب الداخلية نشبت بين القواد في عهد الامبراطورية ! وكيف اصبحت الجيوش ذات الكلمة النافذة في تنصيب الاباطرة !

وكيف كانت الغلبة والكلمة العليا في هذا الامر تارة إلى الجيوش المرابطة في اسبانيا ، وطوراً إلى الجيوش المرابطة في سوريا ، وتارة إلى الجيوش المرابطة في افريقيا ! وكيف اصبح الوصول إلى العرش رهن النجاح في مؤامرات لا تعد ولا تحصى !

وإذا لاحظتم كل ذلك اضطررتم إلى التسليم بأن الامبراطورية الرومانية لم تعش سالمة من الاختلافات ، بل انما عاشت بالرغم من الاختلافات . واما اخلاف الرومان القدماء ، فلا ننس أنهم عاشوا متفرقين متخالفين مدة لا تقل عن خمسة عشر قرناً .

وإذا تركنا السلطنات القديمة جانباً ، وانتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا ، وتتبعنا احوالها الماضية - طوال القرون الوسطى وخلال النصف الاول من القرون الاخيرة - وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفاً .

ولنأخذ فرنسا مثلاً ، فقد كان من المعلوم أنها اسبق الدول الأوروبية إلى الوحدة السياسية الكاملة ، والتماسك القومي المتين ، ولكنا إذا استعرضنا احوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد ، ومسرحاً لشتى انواع الخلافات والحروب .

أنا لا اود أن اطيل الحديث في هذا الموضوع ، ولذلك اكتفي بنقل كلمة كتبها مؤرخ فرنسا الشهير « ارنست لافيس » لتلخيص تلك الاحوال ، قال المؤرخ :

« لقد مضى عهد من التاريخ كانت فرنسا فيه شبيهة بماكدونيا الحالية ، منقسمة إلى اجزاء كثيرة ، متخالفة ، متنابذة ، متنافسة ، متخاصمة . وقد وجب أن تسيل الدماء مدراراً حتى تلتحم هذه الأقسام المختلفة ، فتصل فرنسا إلى وحدتها الحالية . . » .

هذه كانت احوال فرنسا التي سبقت جميع الدول الاوروبية في طريق الاتحاد . واما إذا انعمنا النظر في تواريخ الدول الغربية الأخرى ، فنجد فيها ايضاً احوالاً مماثلة لذلك تجلت بمقياس اوسع ، وبشدة اعظم ، واستمرت مدة اطول .

لا بد من أن نتذكر - في هذا الصدد - أن المانيا كانت منقسمة إلى اكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى اوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاماً فقط !

إن اتحاد هذه الدول لم يتم الا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة ، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة اطوار فشل أليمة .

ولهذا كله استطيع أن اقول بكل تأكيد : إننا كلما توسعنا وتعمقنا في دراسة تاريخ الدول الاوروبية ، ازددنا يقيناً بأن معالم الاختلاف والانقسام فيها لم تكن قط

اقل من التي تجلت في تاريخ العرب بوجه عام .

إني اقول هذا بكل تأكيد ، مع علمي بأني اخالف بـذلك آراء الكثـرة الساحقـة من الكتاب والباحثين .

وقد فكرت ملياً في الاسباب والعوامل التي حملت الرأي العام عـلى التباعـد عن طريق الصواب في هذه القضية الهامة ، واعتقد أنني وصلت إلى معرفتها بكل وضوح :

إن مراكز رؤ يتنا لتاريخ العرب تختلف ـ بوجه عام ـ عن مراكـز رؤ يتنا لتـواريخ الأمم الاخرى .

فنحن ننظر إلى تواريخ الامم الاخرى عن بعد ، نظرة اجمالية ، فندرك خطوطها الاساسية العامة دون أن نتعمق في تفاصيلها الفرعية . ولكننـا ننظر إلى تـاريخ العـرب من قرب نظرة تفصيليـة ، فنطلع عـلى كثير من تفـاصيله دون أن نحيط علماً بخطوطـه الاساسية .

واستطيع أن اقول : أن موقفنا تجاه التاريخ العام موقف رجل يتفرج عـلى الجبل من السهل البعيد .

واما موقفنا تجاه تاريخ العرب ، فهو موقف رجل يسـير في قلب الجبل ويتغلغـل في وهاده .

ومن المعلوم أن الجبال تتألف عادة من وهاد ووديان ، ومرتفعـات ومنخفضات ، وهضاب ومنحدرات ، فلا تبدو عالية شـامخة ، الا لمن ينـظر اليها من بعيـد ، ويدرك شكلها العام دون أن يتبين خطوطها الفرعية المعقدة .

إن تواريخ الدول الاوروبية تبدو لنا جبالا مرتفعة شامخة ، لأننا ننظر اليها بنـظر المؤلفين الاوروبيين ، ومن الخـارج ومن البعد . فلنغـير موقفنـا منها ونـظراتنا اليهـا ، وذلـك بالتغلغـل فيها ، نـرَ عندئـذ أنها مؤلفة من وهـاد ووديان بـالرغم من منـظرهـا الخارجي العام .

واما تواريخ الدول العربية ، فتبدو لنا مجمـوعة مـرتفعات ومنخفضـات مشوشـة ومعقـدة ، لأننا ننـظر اليها بنـظر الاخباريـين القدمـاء ، ومن داخلها ، فلنغـير موقفنـا منها ، ولننظر اليها من بعد ـ نظرة تسمو على التفرعات ـ فنرى عندئذ أنها ايضاً مرتفعة شامخة ، وبالرغم مما فيها من وهاد ووديان .

يجب علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب اعيننا على الـدوام ، وأن نسعى لتوحيـد نظراتنا إلى صحائف التاريخ القومي والتـاريخ العـام ، ولنعدل عن استعمـال نظارات

مكبرة للعيوب في الاولى ، ومصغرة للعيوب في الثانية ، كما اعتدنا ذلك إلى الآن .

وعندما نفعل ذلك نفهم حق الفهم أن الاحكام الشائعة بيننا على تاريخ العرب ، إنما هي وليدة نظرات خاطئة ، ومقارنات قاصرة ، ولهذا السبب كانت في حاجة شديدة إلى التصحيح والتقويم بوجه عام .

وأما ما ذكرتموه عن رأي ابن خلدون في هذه القضية ، فهو ايضاً في حاجة إلى انعام النظر . فقد نقلتم الفقرات التالية ، من مقدمة هذا المفكر العظيم :

« والعرب اصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع اهواؤهم . من اجل ذلك لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية ، من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة » .

أنا اعرف أن ابن خلدون ابدى هذا الرأي في مقدمته المشهورة ، ولكني ارى من الضروري أن نفطن جيداً إلى ما يقصد من كلمة العرب الواردة في هذه الفقرات ، ثم نبحث عن نصيب رأيه هذا من الصحة والصواب .

من الأمور التي يجب أن تبقى نصب اعيننا على الدوام ـ حين نقرأ مقدمة ابن خلدون ونستشهد بها ـ أن مؤلفها كان يقصد من كلمة « العرب » العربان بوجه خاص وفقاً لما هو متعارف بين العوام ـ ولم يقصد قط أفراد الأمة العربية بوجه عام ، كما نفهمها ونتصورها نحن الآن .

إنني سردت الادلة الكثيرة التي تبرهن على ذلك برهنة قاطعة في عدة مقالات نشرتها في بيروت وبغداد ، وفي فصل خاص من الدراسات التي كتبتها عن مقدمة ابن خلدون ، ولا ارى لزوماً إلى اعادة تلك البراهين والابحاث في هذا المقام . ولكن لما كانت الدراسات المبحوث عنها قد نفدت ، رأيت أن انقل هنا نموذجين من البراهين المسرودة فيها ، وقد انتخبت احدها من القسم الاول من المقدمة ، والثاني من القسم الاخير منها ، قلت :

فلنلاحظ الفصل الذي يقول فيه ابن خلدون « أن العرب إذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب » ولننعم النظر في الادلة التي يذكرها لتعليل رأيه هذا :

« فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب ، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له . فالحجر مثلاً انما حاجتهم اليه اثافي للقدر فينقلونه من المباني فيخربونها عليه ، ويعدونه لذلك . والخشب انما حاجتهم ليعمروا بها خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه » . (ص ١٤٩) .

ومن البديهي أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام . ولا مجال للشك في أن ابن خلدون عندما كتب هذه العبارات وقال « لا يحتاجون إلى الحجر الا لوضع القدور ، ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام » لم يفكر قط في اهل دمشق أو القاهرة ، ولا بسكان تونس أو فاس . انما قصد اعراب البادية وحدهم .

وقال : في الفصل الاخير من المقدمة « وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب ابعد الناس عنها . وصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها » (ص ٥٤٤) .

يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلمة العرب مرتين مقابلاً لكلمة الحضر ، بشكل لا يترك مجالا للشك في أنه يقصد منها البدو على وجه التخصيص ويخرج من نطاق شمولها الحضر على الاطلاق . إني ارى من الضروري أن الفت الانظار إلى موضع الفقرات الآنفة الذكر من ابحاث المقدمة : إن تلك الفقرات مستخرجة من الفصل السابع والعشرين من الباب الثاني ، وعنوان الباب المذكور هو : « العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال » . وذلك ايضاً يدل على أن ما جاء في هذه الثغرات ينصب على الذين يعيشون في حالة البداوة ، ولا يشمل الذين يعيشون في المدن . ومن المعلوم أن احوال المدن والدول تكون موضوعات البابين الثالث والرابع من المقدمة والفقرة الآنفة الذكر لا تدخل في نطاق البابين المذكورين .

وبناء على كل ما تقدم يحق لنا أن نعبر عن رأي ابن خلدون في هذه القضية وفق اسلوب كلامنا الحالي ـ بالعبارات التالية : « أن العرب ـ عندما كانوا في حالة الفطرة والبداوة ـ لم يستطيعوا أن يؤلفوا دولة ويؤسسوا ملكاً ، الا عندما تأثروا بدين أو ولاية تزيل عنهم التحاسد والتنافس ، وتحملهم على الانقياد والاجتماع » .

ومن الغريب أن كلمات ابن خلدون في هذا المضمار ـ عندما تفرغ في هذا القالب ـ تصبح موافقة تمام الموافقة للنظرية التي توصل اليها علماء الاجتماع في العصر الحاضر عن منشأ الملك بوجه عام : لأن اصحاب هذه النظرية يقولون أن الممالك لم تتكون في بادىء الأمر الا بفضل المعتقدات الدينية .

إن الابحاث التي قام بها عدد كبير من العلماء والمفكرين ، ـ مستندين إلى المعلومات التي جمعوها عن احوال الاقوام البدائية من جهة ، وعن تواريخ الدول القديمة من جهة اخرى قد أوصلتهم إلى هذه النظرية . فقالوا : إن تكوّن الجماعات السياسية الكبيرة والممالك العظيمة ، في القرون القديمة ، لا يمكن أن يفسر الا بتأثير الاعتقادات الدينية ، على اختلاف انواعها واطوارها فالاعتقاد بقوى خارقة للعادة ـ من الاعتقاد بالقوى السحرية إلى الايمان بالقوة الالهية ـ هو الذي مهد السبل إلى تكون

الجماعات الكبيرة واستقرار الحياة السياسية في اطوار البداوة والهمجية .

وقد كتب الباحث الانكليزي المشهور « فرايزر » كتاباً ضخماً ضمنه امثلة وبراهين كثيرة ، تدل على أن الملكية نشأت من الاعتقادات السحرية : كان الناس يخضعون للملك ، لأعتقادهم بأنه يتمتع بقوة سحرية ، وكانوا يرون من الطبيعي أن يخلفه ابنه ، لاعتقادهم بأن هذه القوة السحرية تنتقل منه اليه .

وقد برهن المؤرخ الفرنسي المشهور « فوستل دو كولانج » ـ في كتابه **المدينة القديمة** ـ أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان ايضاً قامت على بعض الاعتقادات والعبادات .

وقد لاحظ جميع المؤرخين أن الاعتقادات الدينية لعبت دوراً هاماً في سياسة دول القرون الاولى . والاعتقادات الدينية السياسية اجتازت مراحل عديدة ومتنوعة : الملك إله . . . الملك ابن الاله . . . الملك من نسل الآلهة . . . الإله يتقمص جسد الملك . . . الإله ينفخ في الملك شيئاً من روحه . . . الإله يمد الملك بإلهاماته . . . هذه اشكال مختلفة ـ واطوار متتالية ـ من الاعتقادات التي كانت تربط الملكية بالدين ، وتساعد على جمع طوائف كبيرة من الناس تحت ادارة واحدة في تلك القرون القديمة .

أنا لا ارى هنا مجالا لذكر الامثلة والبراهين والنصوص التي تؤيد هذه النظرية . ولذلك سأكتفي بالاشارة إلى كتاب **تيارات التاريخ العالمي العظيمة** الذي نشره أخيراً « جاك بيرين » استاذ التاريخ في جامعة بروكسل . تصفحوا المجلد الاول من هذا الكتاب القيم ، (وهو المجلد الذي يلخص التطورات التاريخية التي حدثت في العالم منذ القدم حتى ظهور الاسلام) ، تجدوا في كل فصل من فصوله تقريباً بعض الابحاث التي تنم عن الترابط المتين الذي كان قائماً في تلك العصور القديمة بين تطور الحوادث السياسية وبين تقلب المعتقدات الدينية .

لا شك في أن الحروب كانت تلعب دوراً أساسياً في توسع الممالك وتكوّن الامبراطوريات : فإن ملك قطر من الاقطار يستولي على مدن واقطار اخرى بقوة السلاح ، ويوسع حدود ملكه عن طريق الفتوح العسكرية . غير أن نتائج هذه الفتوح ما كانت تدوم وتستقر ، الا إذا دعمها شيء من التفاعل والتزاوج والتلاقح بين معتقدات البلاد الفاتحة ، وبين معتقدات البلاد المفتوحة . وهذا التفاعل كان يأخذ اشكالا مختلفة : تارة كان الاعتقاد ينتشر بأن آلهة جميع تلك البلاد لا يختلف بعضهم عن بعض الا بالاسماء ، فكان يصبح الملك ممثلاً لآلهة البلاد الفاتحة والمفتوحة على حد سواء . وطوراً كان يتولد الاعتقاد بأن إله الملك الفاتح هو الإله الأكبر . واما آلهة البلاد المفتوحة فهي من اتباع ذلك الإله الاعظم . . . وعلى كل حال كانت هذه

المعتقدات المتنوعة ـ تساعد إلى حد كبير على خضوع اهالي البلاد المفتوحة للحكم الجديد خضوعاً نفسياً ، فكانت تقلل أو تزيل الحاجة إلى استعمال القوة والقسوة لادامة ذلك الخضوع .

ولا ارى حاجة إلى القول بأن امثال هذه المعتقدات الدينية السياسية ما كان يمكن أن تدوم بعد انقضاء عهود الوثنية القديمة . ومع هذا أرى من الضروري أن أشير إلى نظرية « سياسية دينية » سادت على الاذهان في اوروبا ـ في عهد تكوين الممالك ـ حتى القرن الثامن عشر : وهي النظرية القائلة بأن الملوك يحكمون بتفويض من الله . ومما لا مجال للشك فيه أن هذه النظرية كانت بمثابة « الاصداء الاخيرة » لتلك المعتقدات القديمة التي شرحناها آنفاً .

وخلاصة القول أن الابحاث التاريخية والاجتماعية تدل دلالة قاطعة على أن خضوع الناس إلى احكام السلطات ، لم يتيسر في بادىء الأمر ـ الا بفضل المعتقدات الدينية .

ويظهر من ذلك ـ بكل وضوح ـ أن ما قاله ابن خلدون في مقدمته المشهورة ، عن العرب في طور البداوة ، لا يختلف عما يقوله العلماء والمفكرون المعاصرون عن الأمم القديمة بوجه عام .

فنستطيع أن نقول ـ بكل تأكيد ـ أن تاريخ العرب لا يشذ عن تواريخ سائر الأمم ، من هذه الوجهة ايضاً .

ـ ٣ ـ

بعد هذه النظرات الانتقادية التي وجهناها إلى المقدمات التاريخية ، يجدر بنا أن نرجع إلى السؤال الأصلي ، لنرى : هل الشقاق طبع في العرب ؟

إن المقارنات التي قمنا بها آنفاً بين تاريخ الامة العربية وبين تواريخ الامم الاخرى من وجهة الشقاق ، تسهل علينا الاجابة عن هذا السؤال اجابة مبنية على قياس صحيح واستقراء تام :

إن الشقاق وليد الأنانية ، والأنانية طبع غريزيّ في الانسان ، وجماح هذه الانانية لا يكبحها الا التربية الاجتماعية المتينة ، والتشكيلات الحكومية القوية ، والنزعة المثالية الفعالة ، والايمان الديني أو القومي أو الوطني العميق .

ففي كل امة من امم الارض ، وفي كل دور من ادوار التاريخ يظهر اناس تتغلب في نفوسهم الانانية على العوامل التي ذكرناها آنفاً ، ولكن الرأي العام من

جهـة ، والقوانـين الموضـوعة من جهـة اخرى ، تعـاقب هؤلاء وتعزلهم عن المجتمـع بصور شتى ووسائط متنوعة ، وتجعلهم عبرة للآخرين ، فتحول بذلك دون استفحـال هذه الانانية وانتشارها بين الناس .

غـير أنه يـأتي احيانـاً في كل امـة من أمم الأرض بعض الادوار من التـاريـخ ، تضعف فيها هذه القوى الوازعة ، فتنفلت الانانيـات عن عقالهـا ، وتتضاءل تـأثيرات الرأي العام فيها ، فتقل سلطة الحكومات عليها ، وكل ذلك يؤدي إلى ازدياد الشقـاق وانتشار الخلاف بين الناس .

هذا ما حـدث ، وما يحـدث ، وما سيحـدث في كل امـة من الامم ، وفي جميع أدوار التاريخ .

وليس في طباع العرب ما يجعلها شاذة عن سائر الامم في هذا المضمار .

هذا هو جوابي ، يا صديقي الاستاذ ، عن السؤال الذي وجهتموه إلي :

لا يوجد في طباع الامة العربية ما يجعلها شـاذة عن سائـر الأمم في أمر الاتفـاق والانشقاق .

يجب علينـا أن نعـرف ذلـك حق المعـرفـة ، كـما يجب علينـا أن نعتقـد اعتقـاداً جازماً ، بأن طبائع الامم لا تبقى على وتيرة واحدة على مر العصـور . وقد صـدق من قال : « أن من يتوهم الاستقـرار في طبائـع الامم ، كمن ينشد البقـاء في الموجـات التي تحدث عـلى سطح الماء عندما ترمي حجراً فيهـا » . فإن المـاضي لا يقيد الحـاضر تقييـداً مطلقـاً . وتحقق الوحدة والاتفاق في الماضي لا يكفي لدرء اخطار التفرقة والشقاق في الحاضـر ، كما أن حدوث التفرقة والشقاق في الماضي لا يمنع الاتحاد في المستقبل .

فيجب علينـا أن نتخلص من نزعـة الانشغـال بـالمـاضي كثيـراً ، وأن نقلع عن الالتفات إلى الوراء دائماً . فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوئنا الحـالية بنقـائص اسلافنـا الاقدمين ، ولا أن نسعى لالقاء مسؤولية نكباتنا على عاتق تاريخنا القـديم ، ولا يسوغ لنـا ـ على وجـه خـاص ـ أن نستسلم إلى دواعي الخـور والكسـل ، وأن نتقـاعس عن الكفاح والعمل ، بحجة أن الحالة الحاضرة نتيجة حتمية لطبائع الأمة ولمجرى تـاريخها العام .

لا ريب في أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التي منينا بها اخيراً كانت في منتهى الفظاعة ، كما أن الاخطار التي تهدد مستقبلنا عظيمة جداً .

غـير أنه يجب علينـا أن نعلم العلم اليقين أن اسبـاب ذلك لا تعـود إلى طبـائـع امتنا ، ولا إلى ماضينا البعيد ، بـل انما تعـود إلى اخطائنـا نحن ، وإلى احوال مـاضينا

القريب . إني لن احاول في هذا المقام أن احلل واسرد الاسباب التي ادت إلى نكباتنا الاخيرة واستوجبت فشلنا الأليم ، ولن ابحث عن الاشخاص الذين يجب أن يعتبروا مسؤولين عن هذا الفشل وتلك النكبات . ومع هذا سأقول بلا تردد : أن اهم الاسباب ـ في نظري ـ هو بقاؤنا بعيدين عن تفهم وتمثل روح العصر الذي نعيش فيه ، وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي .

غير اني ارى أن هناك سبباً آخر ربما كان ابعد اثراً واشد خطراً من كل ذلك ، هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم اقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم .

إننا لم نستجمع قوانا المادية والمعنوية ، ونحشدها لتحقيق هدفنا الاسمى ، بل انما عملنا بتراخ وتردد ، بدون عزم قوي وتنظيم متين وايمان عميق ، فأضعنا بذلك فرصاً كبيرة وانتهينا إلى فشل ذريع .

ومهما يكن الأمر ، يجب علينا أن لا نقطع الامل في النجاح في المستقبل وأن لا نتأخر عن اعادة الكرة بإيمان اعظم ، إذ يجب علينا أن لا ننسى أنه ما من امة وصلت إلى الكمال الذي تنشده الا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة ، وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة ، واضطرت إلى تضحيات كبيرة .

إن الامم الحية الوثابة تتعظ بالنكبات ، فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة اشد وعزم امتن ، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين .

واستطيع أن اقول : إن الايمان القوي العميق بامكانيات امتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح مصحوباً بروح التضحية الحقيقية ، ومدعوماً بالأمل الذي لا يقهر . . .

هذه هي اهم ما يترتب علينا من واجبات بعد هذه النكبات .

اقول هذا وانا ألمح معالم الخور والقنوط بادية على معظم الوجوه ، وهمسات الشك والاعتراض منتشرة في كل الجهات . . . وكأني اسمع سلسلة اسئلة اعتراضية تقابل ما قلته آنفاً : الا تدرك هول النكبات التي نزلت بنا اخيراً ؟ افلا تلاحظ فظاعة الاختلافات التي تهز كيان جامعة الدول العربية هزاً عنيفاً ؟ الا تشعر بالأخطار التي صارت تهدد مستقبلنا في عقر دارنا ؟ . . .

نعم اني ادرك واشعر والاحظ كل ذلك ادراكاً تاماً وشعوراً عميقاً وملاحظة دقيقة ، وأتألم من كل ذلك ألماً شديداً .

ومع هذا ارى من حقي أن اسأل بدوري : ألم تُبْتَلَ أمم كثيرة بنكبات مثل هذه ، بل واشد منها ؟ فهل كانت نكبة بروسيا وألمانيا بعد واقعة ينا ـ مثلاً ـ اقل هولاً وفظاعة من نكبتنا الحالية ؟ ومع ذلك ألم يستطع الالمان أن يتخلصوا من آثار تلك النكبة ؟ .

وهل كان فشل مؤتمر فرنكفورت في ألمانيا ـ قبل قرن واحد من يومنا هذا ـ أقل خطراً من فشل مجلس جامعة الدول العربية هذه السنة ؟ ألم يقل بعض الساسة ـ عقب انحلال المؤتمر المذكور ـ « أن الالمان فقدوا حتى قابلية الدفاع عن انفسهم ؟ » ألم يتساءل بعض الكتاب عندئذ قائلين : « أين هي المانيا ؟ هل لها وجود في غير مخيلة بعض الشعراء وأحلام بعض رجال السياسة » ؟ ومع كل ذلك ، الم تتحقق وحدة المانيا في حياة من حضروا مؤتمر فرنكفورت الفاشل ؟

وبناء على هذه الملاحظات اقول بلا تردد : لا يجوز لنا أن نترك مجالاً لتسرب الخور والقنوط إلى انفسنا . ويجب علينا أن نعلم علم اليقين : أن النكبة لا تصل إلى حدها الاقصى الا عندما تثبط العزائم ، كما أن الفشل لا يصبح تاماً الا عندما يؤدي إلى التقاعس عن مواصلة العمل والكفاح . .

فعلينا أن نحذر كل الحذر من العمل على زيادة النكبة واتمام الفشل بالاستسلام إلى القنوط والخور . . .

تعليقات

علق الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات على المقالة السابقة بمقـال عنوانـه « تعليق على جواب » . وفيما يلي نص هذا التعليق مع ملاحظاتي عليـه وقد قسمت التعليق إلى ستة أقسام وكتبت ملاحظاتي على كل قسم على حدة .

- ١ -

سألتك : هل الشقاق طبع في العرب ، فـأجبتني أن الشقاق طبـع في جميع النـاس . وكما سقت إليك في سؤالي شهادة التاريخ على شقاق العرب في الجاهلية والاسلام ، وفي البـداوة والحضارة ، وفي الـدين والسياسـة ، وفي الشدة والـرخاء ، سقت إليّ في جـوابك شهـادة على شقاق اليـونان والـرومان والفرنسيين والألمان في كل أولئك ! وقصر الشقاق على العرب ، والخلاف على المسلمين ، لم يخطر ببالي حين وجهت إليك سؤالي ، فإن من يقصر الخلاف في حياة الناس على بعض دون بعض ، كمن يقصر التقلب في حال الطبيعة على أرض دون أرض . والله العليم بكـل سر والشهيـد على كـل أمر يقـول : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن لا يزالون مختلفين ﴾ ﴿ إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . . . ﴾ ، إنما قصدت بسؤالي أن أواضعك الرأي في طبيعة الشقاق العربي الذي لم يحسمه الدين ولم تخففه التجارب : أيصدر عن علة تزول ، أم يصدر عن جبلة تبقى ؟

ملاحظاتي على التعليق

- إن جـوابي كان يتضمن رداً صـريحاً عـلى هذا السؤال : أنـا لا أعتقد بـوجـود « جبلة تبقى » في الأمم بـوجه عـام . فلا أعتقـد بـوجـود « جبلة تبقى » عنـد العـرب أيضاً ، بطبيعة الحال .

وقد ذكرت بعض الشواهد التاريخية على تغير طبائع الأمم ، بتغير الأحوال والأطوار . ولزيادة التأكيد ، أود أن أنقل اليكم ما كتبه أحد كبار مؤرخي فرنسا عن أحوال الألمان في القرن السابع عشر .

يقول « أرنست لافيس » في كتابه نظرة عامة إلى تاريخ أوروبا السياسي ما يلي :

« إن أعظم الحروب بين آل بوربون وآل هابسبورغ ، ـ يعني بين فرنسا وبين النمسا ـ وقعت على مسرح البلاد الألمانية ، والسياسة الفرنسية وجدت مجالاً واسعاً للعمل في جسم الامبراطورية المتفككك : إنها كانت ترشو وتشتري الأمراء البروتستان ـ لكونهم أعداء طبيعيين للنمسا الكاثوليكية ، كما كانت ترشو وتشتري الأمراء الكاثوليك ، لكونهم أعداء السلطة الامبراطورية ، بصفتهم أمراء . كان الساسة في فرنسا يعرفون سعر « أمير من الطبقة الفلانية أو الطبقة الفلانية » ، أو سعر وزير أو مستشار أو خليلة . وكان لدى قصر فرساي تعرفة مفصلة عن الضمائر الألمانية » .

إذن ، فإن الأنانية والنفعية والشقاق . . . كانت وصلت في ألمانيا إلى هذا الحد الفظيع . ولكن كل ذلك لم يمنع الألمان من أن يتخلصوا من جميع هذه الأنانيات والنفعيات ، وأن يصبحوا فيما بعد ، أشد اتحاداً وأقوى تماسكاً من جميع أمم الأرض .

كيف كان يستطيع مفكرو الألمان أن ينهضوا بأمتهم النهضة المعلومة ، لو كانوا اعتقدوا أن الشقاق جبلة فيها ؟

وإذا كان الألمان ، قد تطوروا فعلاً ، وانتقلوا من تلك الحالة التي وصفها لافيس ، إلى الحالة التي عرفناها فيهم في عصرنا هذا . . فكيف يجوز لنا أن نتشكك في امكان تطور الأمة العربية ، ونتساءل فيما إذا كان الشقاق طبعاً في العرب ، وجبلة فيهم لا تزول .

كلا ، أيها الأستاذ ، إن الشقاق عند العرب ليس جبلة لا تزول ، بل هو علة من العلل التي تزول . . على شرط العمل لمعالجتها عملاً جدياً ، بطبيعة الحال .

هذا ، ويجب ألا ننسى أن أول شرط من شروط الشفاء ـ في كثير من الأمراض والعلل ، في الأفراد وفي الأمم على حد سواء ـ هو الاعتقاد بامكان الشفاء .

والمريض الذي لا يعتقد بالعلاج ، ويقطع الأمل من الشفاء ، يكون قد ضاعف المرض وزاده خطراً .

- ٢ -

والذي رابني من هذا الشقاق ما أراه اليوم من تمرده على الميثاق الجامع ، وخروجه على الرأي الجميع ، وتحديه للخطر المشترك ، لشهوة تستبد ببعض النفوس ، أو لنزوة تعصف ببعض الرؤوس ، لا لفلسفة تبرر سياسة الفرقة كما كان عند الاغريق ، ولا لاجتهاد يتوخى سلامة الجماعة كما كان عند الرومان .

ملاحظاتي على التعليق

- هنا أجد نفسي - مع الأسف - أمام مثال جديد لما قلته مراراً ، عن اعتيادنا في النظر إلى تاريخنا بمنظار يختلف عن المنظار الذي ننظر به إلى تواريخ الأمم الأخرى :

صحيح ، إن الشقاق عند العرب ، هو « لنزوة تعصف ببعض الرؤوس ، أو لشهوة تستبد ببعض النفوس » . ولكن ، ألم يكن الأمر كذلك ، عند الأمم الأخرى أيضاً ؟ إنكم تجيبون على هذا السؤال بالنفي ، إذ تقولون بأنه عند اليونان « الفلسفة تبرر التفرقة » ، وعند الرومان « الاجتهاد ، يتوخى سلامة الجماعة » .

ولكني أسألكم أيها الأستاذ : ما هي قيمة هذه الفلسفة ، وما هو وزن هذا الاجتهاد ؟

وإذا كانت فلسفة من الفلسفات قد تبرر بقاء مدينة آثينة مستقلة عن مدينة أسبارطة - فلا أدري أية فلسفة من الفلسفات تستطيع أن تبرر نشوب الحرب بين المدينتين ، واستمرارها بشدة متناهية ، إلى أن تتهدم أسوار الأولى وتفنى أساطيل الثانية ؟

ولا أدري أي اجتهاد يتوخى سلامة الجماعة ، يستطيع أن يبرر الثورات والحروب التي كانت تقوم في روما ، بين قواد الجيوش ، كلما مات أحد الأباطرة وشغر كرسي الامبراطور ؟

أفلا يحق لي أن أكرر ما قلته مراراً ، بأننا ننظر إلى تاريخنا بمناظر سوداء ، في حين أننا ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى بمناظر وردية الألوان ؟

كلا ، أيها الأستاذ ، نحن هنا أمام وقائع متماثلة تمام المماثلة . لماذا نعتبر أحداها من آثار النزوات والشهوات ونعتبر الثانية من ثمرات الفلسفات والاجتهادات ؟

- ٣ -

أما قولك يا صديقي أن العرب ليسوا بدعاً من الأمم في الشقاق والانشقاق فإني كنت أرفعهم في

نفسي وفي رأيي فوق ذلك ، لأن الأمة العربية إحدى أمتين اختارهما الله لاعلان دينه واعلاء حقه ، فبعث آخر رسله من بينها ، وأنزل دستور شرعه بلسانها ، ووضع ميزان عدله في يدها ، فإذا هي أصاخت كغيرها إلى صوت الغريزة ، واستجابت لدعاء الهوى ، لم تكن حَرِيَّة بقول الله فيها : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . ولا بقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

ملاحظاتي على التعليق

ـ أنا لم أتعود المناقشة في المسائل الدينية . ولكن تجاه الآيات القرآنية التي استشهدتم بها ، أراني مضطراً إلى القول بأن هذه الآيات القرآنية كان يجب أن تزيل من ذهنكم كل أنواع الشكوك في هذا الأمر ، وكان يجب أن تحملكم على القول ، بدون تردد ، أن الشقاق ، لم يكن « جبلة تبقى » في العرب .

وذلك لأنه كيف يعقل أن يختار الله « أمة لإعلان دينه وإعلاء حقه » بعد أن يجعلها « مجبولة بالشقاق » ؟ وكيف كان يمكن أن يأتي قول الله فيها « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . . لو كانت هي مجبولة بالشقاق والنزوات والشهوات ؟ ولا سيما لو كانت هذه الأوصاف فيها ، جبلة تبقى ، لا علة تزول ؟

ـ ٤ ـ

وأما تفسيرك العرب بالبدو في قول صديقك ابن خلدون فلا يؤخر في التهمة ولا يقدم في الدفاع ، لأنك تعلم أن الموج من العباب ، وأن العرب من الأعراب ، وأن العصا من العصية . والطباع قلما تتغير بانتقال صاحبها من سكنى الوبر إلى سكنى الحجر ، ومن رعاية الإبل إلى رعاية الناس .

ملاحظاتي على التعليق

ـ اسمحوا لي أيها الأستاذ ، أن أقول إن قولكم أن « الطباع قلما تتغير بانتقال صاحبها من سكنى الوبر إلى سكنى الحجر ، ومن رعاية الإبل إلى رعاية الناس » . . يخالف أثبت حقائق علم الاجتماع لأن الأبحاث الاجتماعية تدل دلالة قاطعة على أن أهم عوامل الحياة الاجتماعية هو « بناء المجتمع » . وأن طباع الأقوام التي تعيش في حالة البداوة تختلف أشد الاختلاف عن طباع الأقوام التي تعيش عيشة الحضر .

وأنا أجزم بأن تفطن ابن خلدون إلى هذه الحقيقة الاجتماعية ، كان من أبرز آثار العبقرية التي أظهرها في مقدمته المشهورة .

لأنها تعتبر الآن من أهم حقائق علم الاجتماع .

- ٥ -

وأما تعليلك هذه الصدعات التي أصابت العروبة فمزقت الكلمة وفرّقت الدين ، بسرعة الفتح ، واتساع الرقعة ، ومؤونة الانتقال ، وصعوبة الاتصال ، فيضعفه علمك بأن الصدعة الصغرى كانت في (السقيفة) بعد أن قبض الرسول ، وأن الصدعة الكبرى كانت في (الدار) بعد أن قتل عثمان !

ملاحظاتي على التعليق

- اسمحوا لي أيها الأستاذ أن أخالفكم في هذه القضية أيضاً ، مع علمي بأن مخالفتي هذه ستكون بمثابة خروج على الرأي الذي أجمع عليه المفكرون والمؤرخون منذ قرون وقرون . ويلوح لي أنكم تغالون كثيراً في تقدير خطورة حادثة السقيفة ومقتل عثمان مغالاة لا يجيزها النقد التاريخي . لأنكم تعتبرون الحادثة الأولى « الصدعة الصغرى » ، والثانية « الصدعة الكبرى » وأما أنا ، فأبدأ بتجريد ذهني من جميع الآراء والتقديرات التي كنت تلقيتها قبلاً من الكتب التي قرأتها ، ثم أحاول تقدير أهمية الواقعتين المذكورتين بنتائجهما الحقيقية . فألاحظ أن حادث السقيفة لم يمنع انتصار العرب على السلطنتين العظيمتين القائمتين عند ذاك ، في اليرموك والقادسية ، كما أن مقتل عثمان لم يحل دون توسع الفتوحات العربية من سواحل المحيط الاطلنطي إلى نهر السند وديار كاشغر ، بسرعة خارقة للعادة ، لم يسجل التاريخ لها مثيلاً .

وأستنتج من ذلك أن تأثير هاتين الحادثتين في سير التاريخ لم يكن كبيراً إلى درجة تخولنا اعتبارهما الصدعة الصغرى والصدعة ا لكبرى .

- ٦ -

لا يا صديقي ، إن الفردية هي علتنا الأصيلة ، وأن العصبية هي داؤنا الموروث . وأن هاتين الرذيلتين هما جماع الآفات التي مُني بها العرب ، وعُني بعلاجها الاسلام . وقد فصلت ذلك في مقالين نشرا في « وحي الرسالة » . والدليل قائم اليوم يا صديقي على أن الفردية والعصبية لا تزالان توهنان البناء ، وتحللان العقدة ، وتفرقان الجماعة .

ملاحظاتي على التعليق

وأنا أوافقكم على ذلك . إنما الذي أخالفكم فيه ، هو (الشك) في إمكان التخلص من هذه الرذائل ، و (الظن) بأنها جبلة تبقى وعلة لا تزول .

فلنبعد من أذهاننا هذه الشكوك والظنون ، ولنؤمن بإمكان اصلاح أحوال أمتنا ، لكي نستطيع أن نعالجها معالجة مجدية .

أنا أشارككم في نقد أحوال العرب الحاضرة ، وفي انزال اللائمة عليها ، ولكني أقول في الوقت نفسه : لقد اجتازت أمم كثيرة أمثال هذه الأزمات ، ولكنها تغلبت عليها ، بفضل جهود أبنائها البررة .

لماذا ، لا نقتدي بهؤلاء لمكافحة العصبية والفردية اللتين « لا تزالان توهنان البناء ، وتحللان العقدة ، وتفرقان الجماعة » ؟

قصة سامراء(*)

(*) نشرت في مجلة الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٣٨ .

قصة سامراء

قصة مدينة سامراء ، من اغرب وامتع قصص المدن في التاريخ : « قطعة ارض قفراء » ، على ضفة مرتفعة من نهر دجلة « لا عمارة فيها ولا انيس بها ، إلا ديراً للنصارى » . . تتحول ـ في مثل لمح البصر ـ إلى مدينة كبيرة ، لتكون عاصمة لدولة من اعظم الدول التي عرفها التاريخ ، في دور من المع ادوار سؤددها . . تنمو هذه المدينة الجديدة وتزدهر بسرعة هائلة ، لم ير التاريخ مثلها في جميع القرون السابقة ، ولم يذكر ما يماثلها بعض المماثلة إلا في القرن الاخير ـ في بعض المدن التي نشأت تحت ظروف خاصة ـ في بعض الاقسام من العالم الجديد .

غير أن هذا الازدهار العجيب لم يستمر مدة طويلة ، لأن المدينة تفقد « صفة العاصمة » التي كانت علة وجودها وعامل كيانها ، قبل أن يمضي نصف قرن على نشأتها . فتأخذ في الاقفرار والاندراس بسرعة هائلة ، لا تضاهيها سرعة سوى تلك السرعة الشاذة التي كان تم بها تأسسها .

وبعد أن كان الناس يسمونها باسم « سر من رأى » ، اضحوا يسمونها باسم « ساء من رأى » وبعد أن كان الشعراء يتسابقون في مدح قصورها اخذوا يسترسلون في رثاء اطلالها .

فبعد أن قال ابن الجهم في وصف احد قصورها :

بدائع لم ترها فارس ، ولا الروم في طول اعمارها
صحون تسافر فيها العيون إذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجوم تضيء اليها بأسرارها

صار يرثيها ابن المعتز بقوله :

قد اقفرت سر من رأى   وما لشيء دوام ..
فالنقض يحمل منها   كأنها آجام ..
ماتت كما مات فيل   تسل منه العظام ..

وفي الواقع ماتت سامراء ميتة فجائية ، بعد عمر قصير ، لم يبلغ نصف القرن . وامست رموساً واطلالاً هائلة ، تمتد اليوم امام انظار الزائر وتتوالى تحت اقدام المسافر إلى ابعاد شاسعة ، لا يقل امتدادها عن الخمسة والثلاثين من الكيلومترات .

عندما يتجول المرء بين هذه الاطلال المترامية الاطراف ، ويتأمل في السرعة العظيمة التي امتاز بها تأسس مدينة سامراء وتوسعها من جهة ، واقفرارها واندراسها من جهة اخرى ، . . . لا يتمالك نفسه من التساؤ ل عن العوامل التي سيطرت على مقدرات هذه المدينة العظيمة ، وصيرت قصة حياتها بهذا الشكل الغريب . . .

إن العوامل السياسية التي لعبت دوراً هاماً في هذا المضمار لم تكن كثيرة التعقيد : بل أنها تتجلى لنا بكل وضوح ، عندما نلقي نظرة عامة على اهم الحوادث التي وقعت في عهود الخلفاء الذين توالوا على اريكة الخلافة العباسية في سامراء .

يجابه الخليفة المعتصم ـ وهو ابن هارون الرشيد ـ مشاكل كبيرة في ادارة البلاد ، فيرى ان يتغلب عليها باستخدام جيش من الموالي والمماليك . فيكثر من شراء الغلمان ـ من بلاد المغرب والمشرق ـ وعلى الاخص من بلاد ما وراء النهر ، بغية تكوين جيش مطيع ، ينزل على ارادته على الدوام . . غير ان تكاثر هذا الجيش الغريب في العاصمة القديمة ـ بغداد ـ المزدحمة بالسكان ، يؤدي إلى حدوث بعض الوقائع بين العساكر والاهلين . فيقرر الخليفة ازاء هذا الحال احداث عاصمة جديدة ـ بعيدة عن القديمة ـ ينتقل اليها بعساكره وقواده ووزرائه وندمائه وكتابه واتباعه ، ويدعو الناس اليها ـ على أن يرتب كل شيء فيها حسب ما يتراءى له « مفيداً » لتوطيد دعائم ملكه من جهة ، ولزيادة جلال عاصمته من جهة اخرى .

يمضي الخليفة في تحقيق فكرته هذه بعزم قوي وفق خطة محكمة ، فينتخب موقع سامراء بعد التحري والبحث ، ويؤسس عاصمته الجديدة هناك ، على اساس القطائع المنظمة ، فيجعل كل مجموعة من القطائع التي فيها قائمة بنفسها ، مستقلة عن غيرها ، بمساجدها وأسواقها وحماماتها .

و « يفرد قطائع الاتراك عن قطائع الناس جميعاً ، ويجعلهم منعزلين عنهم لا يختلطون بموم من المولودين » ولو كانوا من التجار . . حتى انه يفكر في امر ذريتهم و « يشتري لهم الجواري

فيزوجهم منهن ويمنعهم ان يتزوجوا ويصاهروا احداً من المولودين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض » .

لا شك في أن هذه الخطة كانت تنطوي على محاولة سياسية خطيرة ، بل انها كانت بمثابة تجربة اجتماعية جريئة . كما لا شك في أن التدابير التي اتخذها المعتصم في سبيل تنفيذ هذه الخطة كانت دقيقة وحازمة . ومع هذا انها لم تأت بالفوائد التي كان يتوخاها منها ، بل افضت إلى نتائج معاكسة للاهداف التي كان قد استهدفها معاكسة تامة . . ونستطيع أن نقول : أن المعتصم كان حسب حساباً لكل شيء في هذا الباب ، غير شيء واحد ، وهو التطور الذي يحدث في نفسية الجيش ـ بطبيعة الحال ـ عندما يتكون افراده وقواده من الغرباء ولو كانوا ـ في الاصل ـ من الارقاء .

أراد المعتصم ـ بخطته هذه ـ ان يتخلص من مشاغبات الاهالي غير انه لم يدرك بأن هذه الخطة ستؤدي ـ عاجلاً أم آجلاً ـ إلى جعل الخلافة العوبة في ايدي الجنود الغرباء وقواده الطامعين .

وهذا ما حدث فعلاً : فقبل أن تمضي عشرون سنة على وفاة الخليفة المعتصم ، الذي وضع هذه الخطة وشرع في تطبيقها ، تفاقمت سيطرة القواد ، ووصلت بهم الجرأة إلى درجة قتل الخليفة المتوكل قتلاً فظيعاً . وبعد ذلك تتابعت الاحداث والاضطرابات وأفضت إلى قتل الخلفاء وخلعهم ثلاث مرات متواليات خلال عشر سنوات ، إلى أن تولى الخلافة المعتمد . . وبعد أن صرف بعض الجهود في سبيل توطيد دعائم ملكه في سامراء نفسها ، رأى أن ينهي هذه المحاولات كلها . فقرر أن يترك سامراء بالكلية ، وأن يعيد كرسي الخلافة إلى بغداد بصورة نهائية .

ولذلك نستطيع أن نقول أن الخطة السياسية التي وضعها المعتصم ـ والتجربة الاجتماعية التي قام بها تنفيذاً لهذه الخطة ـ انتهت بفشل تام .

غير أن قصة هذه المدينة العجيبة إذا انتهت من الوجهة السياسية بفشل اليم فإنها تكللت ـ من الوجهة العمرانية ـ بنجاح كبير ، يسجله تاريخ الفن والعمران بمداد الاجلال والاكبار .

إن اقدام الخليفة المعتصم على تأسيس عاصمته الجديدة كان حدث ابان شوكة السلطنة العباسية وعظمتها ، فكان من الطبيعي أن تتمثل في هذه العاصمة تلك الشوكة والعظمة احسن تمثيل :

إن الأراضي التي انتخبها المعتصم لتشييد المدينة الجديدة كانت منبسطة وواسعة ، ولم يكن فيها من المباني القديمة ما يعرقل خطط المباني الجديدة ، ولا من

التلول والوديان ما يحدد ساحات البناء ، فكان باستطاعة الخليفة أن يجعل القطائع كبيرة وفسيحة ، والطرق عريضة وطويلة . . وسيكون باستطاعة اخلافه أن يوالوا عمله هذا ، ويمددوا الشوارع ويوسعوا المدينة .

إن السلطنة التي يحكمها الخليفة المشار إليه كانت غنية وكثيرة الموارد جداً ، فكان باستطاعته أن ينفق اموالاً طائلة لتشييد القصور والمساجد وسائر المرافق العامة ، كما أنه سيكون في استطاعة ابنائه أيضاً أن يستمروا على الانفاق في هذا السبيل بدون حساب .

إن المملكة التي تبوأ كرسيها المعتصم كانت فسيحة ومترامية الاطراف ، فكان بإمكانه أن يجلب أمهر الفعلة والبنائين وأشهر المهندسين والفنانين من جميع أقطار ملكه العظيم ، وباستطاعته أن يضع تحت تصرف هؤلاء كل ما يطلبونه من مواد الزخرفة والبناء ، ولو كانت مما يجب جلبها من البلاد البعيدة .

إن اجتماع كل هذه العوامل الثمينة بهذه الوجوه المساعدة ، سيفسح امام المهندسين والفنانين مجالاً واسعاً للعمل والابداع ، وسيتحف العاصمة الجديدة بأوسع القصور واجملها واعظم المساجد وابدعها .

وكان من الطبيعي ان لا تقف هذه الحركة الانشائية عند حد القصور والمساجد وحدها . . بل تتعداها إلى الدور والشوارع والبساتين ايضاً . لأن المعتصم لم يستهدف ـ بعمله هذا ـ ايجاد « مقر خلافة » و« معسكر جيش » فحسب ، بل كان يستهدف ـ فوق ذلك ـ ايجاد « عاصمة مملكة » بكل معنى الكلمة . انه اراد انشاء عاصمة جديدة تنافس بغداد في السعة والنفوس والعمران . فكان من المتحتم عليه أن يستقدم جماعات كبيرة من الناس ومن اصحاب المهن ـ على اختلاف انواعهم واصنافهم ـ وان يقطنهم الأراضي ويجزل عليهم العطايا ويحثهم على البناء ، وكان من الطبيعي أن تتولد من جراء ذلك حركة انشائية واسعة النطاق شديدة النشاط .

غير أنه من البديهي أن بناء الحوانيت والدور لا يمكن أن يحاكي بناء المساجد والقصور . فإذا كان في استطاعة الخلفاء ، وفي مكنة الأمراء أن يزودوا المعمارين والفنانين ، بكل ما يطلبونه من النفقات ، فلم يكن في امكان الناس أن يقتدوا بهم في هذا المضمار . . وإذا جاز لمعماريي المساجد والقصور أن يبنوا ما يبنونه بأجود المواد الانشائية ـ ولو كانت كثيرة الكلفة ـ وأن يزينوه بأجمل المواد الزخرفية ، ولو كانت باهظة الثمن ، فلم يكن معقولاً لبنائي الدور أن يطمعوا بشيء من ذلك بوجه من الوجوه . بل كان يترتب عليهم أن يتسابقوا في ايجاد الطرق والأساليب التي تضمن البناء بأقل ما يمكن من النفقة واعظم ما يمكن من السرعة ، دون أن يتباعدوا عن مقتضيات البداعة

والجمال . . كان يتحتم عليهم أن يستعملوا المواد المبذولة في محيطهم ، ويظهروا قوة ابتكارهم في كيفية استفادتهم من خواص تلك المواد في الزخرفة والبناء . . ومن حسن حظهم أن الطبيعة في سامراء كانت مساعدة على ذلك مساعدة كبيرة . لأن موقع المدينة يرتفع عن الضفة الاخرى بعض الارتفاع والطبقة الترابية فيه تكوّن قشرة قليلة الثخن تستر طبقة صخرية . فالأرض لا تتعرض إلى خطر الغرق حتى في أشد حالات الفيضان ، كما أنها تبقى مصونة من الرطوبة على الدوام . وهناك مناطق طينية واسعة تساعد على صنع اللبن الجيد . وهناك أتربة كلسية كثيرة تصلح لتحضير الجص القوي . . فباستطاعة البنائين أن يستفيدوا من هذه الشروط المساعدة . . فإنهم يستطيعون أن يبنوا المباني الكبيرة باللبن دون أن يخشوا تأثير الرطوبة والمياه عليها . كما أنهم يستطيعون أن يضمنوا متانة تلك الأبنية باستعمال الجص مونة لاحمة بين قطعات اللبن وسافاتها وبعقد الطوق بالآجر أو بطابوقات مصنوعة من الجص . وفي الأخير انهم يستطيعون أن يستروا رداءة مادة البناء بطلاء الجدران بالجص ، كما يستطيعون أن يزخرفوا هذا الطلاء بالتلوين أو بالنقش أو بالحفر .

إن هذه الزخرفة يمكن أن تعمل خلال البناء ، كما يمكن أن تعمل بعد إتمام البناء ، والقشرة الجصية التي تتكون عليها هذه الزخارف يمكن أن ترفع بسهولة ، كما يمكن أن تعوض بقشرة جديدة ، تزخرف بأشكال تختلف عن الاشكال السابقة .

إن الزخرفة على هذه الطريقة تكون رخيصة ، ولذلك تتعمم بسهولة . فكل واحد من أصحاب الدور يستطيع أن يزخرف البعض من غرفه ، بمقدار ما تسمح له موارده ، كما يستطيع أن يعمم الزخرفة إلى الغرف الأخرى ، متى ما صلحت أحواله المالية ، أو يستبدلها بغيرها متى ما ملها وأراد الابدع والأكمل منها .

ولهذه الأسباب كلها ، سيكون امام الفنانين مجال واسع للعمل في هذا المضمار . . حيث هناك عشرات الألوف من الدور يطلب اصحابها الزخرفة لمئات الألوف من غرفها ، ومن الطبيعي أن هذا الطلب الشديد والمستمر سيؤدي الى تنشئة جماعة كبيرة من الفنانين الماهرين في الزخرفة ، وسيحملهم على التسابق في طريق التفنن والابداع على الدوام .

ولهذا كان من الطبيعي أن تزدهر في سامراء صنعة الزخرفة الجصية ازدهاراً كبيراً ، وتولد طرازاً خاصاً مع اشكال لا تعد ولا تحصى فيرتبط اسم سامراء ـ في تاريخ الفن ـ بهذا الطراز الخاص من الزخرفة . . وتمتاز هذه المدينة بجانب عظمة قصورها العديدة وفخامة مساجدها الفسيحة وامتداد شوارعها العظيمة ونضارة بساتينها الجميلة . . بزخارف دورها الكثيرة .

وكـان من الـطبيعي أن لا يبقى هـذا الـطراز من الـزخـرفـة محصـوراً بسـامـراء وحدها ، بل ينتقل ـ بواسطة قواد المعتصم واخلافه ـ إلى القاهرة ايضاً . ويخلف هنـاك آثاراً باهرة في جامع ابن طولون من جهة وفي المنازل المبنية في العهد الطولـوني من جهة اخرى .

لقد مضى على قصة هذه المدينة العجيبة اكثر من عشرة قرون .

وأمـا الآثار والأطـلال الباقيـة منها الى الآن ، فتضيف ذيـلاً جديـداً إلى غـرابـة مقدراتها المتسلسلة . إذ من الغـريب أن آثار دورهـا المبنية من اللبن المـزخرفـة بالجبس قاومت حدثان الدهر اكثر من قصورها المبنية بالآجـر المزخـرفة بـالرخـام . والسبب في ذلك هو أن القصور تعرضت إلى تخريبات النـاس الذين اعتبـروها بمثـابة مقـالع غنيـة بالمواد الانشائية الصالحة للاستعمال ، في حين أن الدور سلمت من تخريبات النـاس ، ولم تتعرض إلى تخريبات ايد غـير أيدي الـطبيعة والـزمان . ويـظهر أن أيـدي الانسان قادرة على التخريب اكثر من أيدي الزمان .

حول تأسيس مدينة سامراء

قرأت في احدى المجلات العربية مقالة عن مدينة سامراء . وجدت في مقدمتها ، فقرة تحتاج إلى التأمل ، بصورة جدية .

فقد جاء في الأسطر الأولى من المقالة المذكورة بأن سامراء « شيدت بأمر الخليفة المعتصم عام ٢٢١ ، (٨٣٦م) على يد اشناس احد قواد الترك » .

إن هذه العبارة تعزو إلى اشناس اليد العليا في تشييد مدينة سامراء ، بل تجعله المؤسس الحقيقي لها . في حين أن ذلك لا يتفق مع الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه .

من المعلوم أن اقدم المصادر المتعلقة بتأسيس مدينة سامراء وأهمها هو كتاب اليعقوبي المعروف بكتاب البلدان .

فقد وضع هذا الكتاب بعد تأسيس مدينة سامراء بنحو نصف قرن فقط ، مما يدل على أن المؤلف كان قريب العهد بدور تأسيسها ، ومعاصراً لدور ازدهارها ، وكثير الاطلاع على تفاصيل شؤونها . وهذا الذي مكنه من وصف شوارعها وقطائعها وصفاً شاملاً ، قلما نجد ما يماثله في الكتب القديمة دقة وتفصيلاً .

يصف لنا اليعقوبي في كتابه هذا كيف اختار المعتصم الأرض التي شيد عليها عاصمته الجديدة ، وكيف احضر المهندسين وقال لهم أرض هذه المواضع لبناء القصور ، وكيف صير إلى كل رجل من اصحابه بناء قصر من تلك القصور ، وكيف استقدم الفعلة والبنائين واهل المهن من بغداد والبصرة والكوفة وانطاكية ومصر ومن سائر البلدان ، وزيادة على ذلك يذكر لنا ـ بتفصيل ـ مواضع القطائع التي اقطعها كبار رجاله وقواده ، والنواحي التي خصصها للناس وللأسواق المختلفة .

إن اليعقوبي يذكر ، « اشناس » بين القواد الكثيرين الذين اقطع المعتصم اليهم وإلى اصحابهم قطائع خاصة ، ولا يميزه عن غيره في هذا الباب .

ومما يستلفت الأنظار ، أن بين اطلال سامراء ، محلاً يعرف بين الناس إلى اليوم باسم « سور شناس » . وهذا المحل يوافق تمام الموافقة موضع قطيعة اشناس التي يذكرها اليعقوبي ، وهو لا يمتاز عن سائر المحلات بأي امتياز كان .

ولهذه الاسباب كلها ، اعتقد أن مضمون الفقرة الآنفة الذكر لا يتفق والحقائق الثابتة بوجه من الوجوه .

هذا وأظن ظناً قوياً أن الفقرة المبحوث عنها مقتبسة من عبارة وردت في فصل سامراء من « المعلمة الاسلامية » . غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن الفصل المذكور مكتوب بقلم « فيوله » والمومأ اليه لم يكن من المستشرقين الذين يجوز التعويل على بحوثهم التاريخية ، بل أنه كان من المهندسين الذين اشتغلوا في بغداد في العهد العثماني ، ولا شك أنه استند في ما كتبه في هذا الباب إلى ما سمعه من بعض الموظفين دون أن يستند إلى وثائق تاريخية .

وللتأكيد على ذلك ، يجدر بي أن اصرح في هذا المقام : بأنني كنت وجهت إلى المومأ اليه كتاباً ـ اشرت فيه إلى الفقرة المبحوث عنها وصرحت له بأنني لم اجد بين المصادر التي بين يدي ما يبرر زعمه هذا ، ورجوته أن يرشدني إلى المصدر الذي استند إليه في زعمه هذا ، غير أني لم اتلق منه جواباً يذكر مصدراً ما ، مع أن كتابي كان اودع اليه على يد البروفسور ماسينيون .

الضلال والتضليل في الابحاث التاريخيـة

مزاعم الجنرال طونزند
في عوامل هدنة سنة ١٩١٨

لقد عثرت في المقدمة التي كتبها الجنرال طونزند لمذكراته ، على بعض المزاعم التي تستوقف الأنظار ، وتظهر مبلغ الضلال الذي قد يغشى كتّاب التاريخ في بعض الأحيان ، حتى عندما يتكلمون عما شهدوه بأعينهم ، وعما فعلوه بأنفسهم . ولذلك رأيت أن أفندّ هذه المزاعم بشيء من التفصيل ، ليس لأهمية موضوعها ، بل لدلالتها البليغة على ضرورة النقد العلمي ، في الأبحاث التاريخية ، حتى عندما تستند إلى مذكرات .

- ١ -

طونزند قائد انكليزي مشهور ، قاد الحملة العسكرية على العراق خلال الحرب العالمية الأولى . وقام بزحف جريء وسريع ، أوصله إلى ضواحي بغداد ، إلا أن وصول الامدادات التركية إلى ميدان الحرب ، اضطره إلى التقهقر حتى « كوت الامارة » ، والتحصن فيها . بقي الرجل محصوراً هناك ، مع الجيوش التي كان يقودها ، مدة من الزمن ، اضطر بعدها إلى التسليم . فنقل إلى الآستانة وبقي هناك حتى نهاية الحرب كـ « أسير حرب محترم » . والأتراك عندما يئسوا من النصر وقرروا الاستسلام إلى الحلفاء - في خريف سنة ١٩١٨ - أطلقوا سراحه وأوفدوه إلى قائد الأسطول البريطاني ليتوسط في إنهاء الحرب وعقد الهدنة .

وقد نشر طونزند مذكراته عن حرب العراق ، سنة ١٩١٩ ، وترجمت هذه المذكرات إلى العربية ، ونشرت في العراق بعنوان « خواطر طونزند »[٣٥] .

(٣٥) تشارلز فيرفريس طونزند ، محاربتي في العراق او خواطر طونزند ، ترجمة عبد المسيح وزير (بغداد : المكتبة العصرية ، ١٩٢٣) .

ويقول الجنرال طونزند في مقدمة مذكراته ما يلي :

« والذي فشلت في القيام به في ميدان القتال ، أنجزته وأنا رهين الأسر ، فقد أقنعت الترك بالتسليم . وبذلك قصرت مدة الحرب عدة أشهر ، فنجم عن ذلك حقن دماء الألوف من الجنود وتوفير الملايين من المال . وقد تم ذلك في ١٧ تشرين الأول بعد الظهر ، سنة ١٩١٨ أثناء حديث جرى بيني وبين المشير عزة باشا في ديوانه بالباب العالي . وفي عشية ذلك اليوم ، توجهت إلى الأسطول البريطاني ، بعد أن قطع لي الترك عهداً بفتح الدردنيل . وأعددت المعدات لعقد المؤتمر تواً عند وصولي جزيرة مودروس ، ولما بلغ خبر تسليم تركية النمسا ، سلمت فوراً على أثر ذلك ، وتلتها ألمانيا في التسليم[٣٦] .

يظهر من هذه الفقرات الصريحة أن الجنرال يزعم بأنه هو الذي اقنع الترك بالتسليم ، وأن تسليم الأتراك بهذه الصورة اضطر النمسا إلى التسليم . وأما تسليم الألمان فكان بمثابة النتيجة الثانية لتسليم الأتراك ، بفضل صاحب المذكرات الجنرال طونزند !

يعود الجنرال إلى هذه القضايا في آخر مذكراته ، ثم يقول ما يلي :

« ولولا ذلك ، لاستطاع الترك مقاومة « اللنبي » مدة خمسة أشهر ، وأطول من ذلك . وحاشا أن أقلل من قيمة الفوز الباهر الذي تم لذلك القائد العظيم « أدمندز اللنبي » ولكني أود أن أبرهن على نصيبي الحقير من المساعي التي بذلت في سبيل عقد الصلح »[٣٧] .

يلاحظ من ذلك أن الجنرال لا يكتفي بالإشارة العابرة ، بل يكرر مزاعمه بعبارات صريحة ، ويدعي بأنه لولا مساعيه هو ، لاستمرت الحرب خمسة أشهر أخرى على الأقل ، ويعلن على الملأ أن مساعيه الناجحة « حقنت دماء الألوف من الجنود ، ووفرت الملايين من الأموال » .

- ٢ -

بعد أن اطلعنا على ما يزعمه طونزند بهذه الصورة يجدر بنا أن نبحث : ما هو حظ هذه المزاعم من الصحة ؟

إن نظرة بسيطة إلى ما حدث من الوقائع خلال النصف الأول من شهر تشرين الأول سنة ١٩١٨ يعني : قبل ملاقاة الجنرال طونزند مع المشير عزة باشا ، تكفي

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١١ .
(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٥٧٧ .

للتأكد من أن هذه المزاعم كلها ، لم تكن سوى « محصول الوهم والغرور » وذلك لأن :

أولاً : إن بلغاريا كانت استسلمت إلى الحلفاء في أواخر شهر أيلول . وهذا الاستسلام كان خطير النتائج جدا ، لأنه قطع الاتصال بين تركيا وبين متفقيها المانيا والنمسا .

ثانياً : قبل يوم ١٧ تشرين الأول ١٩١٨ الذي يذكره الجنرال طونزند ، كانت تركيا خسرت كل فلسطين ، وأكثر من نصف سوريا بما فيها دمشق وبيروت وحمص . . وكان الجيش الذي سمي باسم « جيش الصاعقة » مني بهزائم متوالية ، اضطرته إلى التقهقر نحو حلب بسرعة كبيرة .

ثالثاً : إن عزة باشا الذي تكلم مع الجنرال كان تولى الحكم بعد استقالة وزارة طلعت باشا . وهذه الاستقالة كانت تدل ـ في حد ذاتها ـ على أن القوم كانوا قطعوا الأمل من النصر ، وقرروا إنهاء الحرب بأيّ شكل كان . لأنها كانت تضم صناديد الاتحاد والترقي ـ من ملكيين وعسكريين ـ كما أن بقاء وزيري الحربية والبحرية ، أنور باشا وجمال باشا ، خارجين عن الوزارة الجديدة ، ما كان يترك مجالاً للشك في هذا الأمر . لأنهما كانا زعماء الحركة التي زجت السلطنة العثمانية بالحرب ، فكانا يعتبران من آباء الحرب ، والأعصاب المحركة لها .

رابعاً : لقد تحقق فيما بعد ، أن امبراطورا ألمانيا والنمسا كانا قررا طلب الصلح قبل ذلك التاريخ ، وقاما باتصالات رسمية لإنهاء الحرب .

وزعم طونرند ، مع كل ذلك ، أنه هو الذي اقنع الترك بإنهاء الحرب ، وأن الهدنة التركية هي التي اضطرت النمسا وألمانيا إلى الاستسلام . . إن دل على شيء ، فإنما يدل على عمق الغفلة التي كان يعيش فيها الرجل ، وغرابة الخدعة التي انطلت عليه .

لا شك في أنه كان معذوراً في الانخداع عند ملاقاته مع عزة باشا ، لأنه كان أسير حرب . فما كان يستطيع أن يطلع على شيء ، غير الذي يريد الأتراك أن يطلعوه عليه . ولكن الأمر الذي لا يمكن أن يعذر فيه ، هو أن يستمر في هذه الغفلة والانخداع ، بعد أن يعود إلى بلاده . . ولا يسمح أن يسمح لنفسه أن يسطر تلك المزاعم ، في مقدمة المذكرات التي نشرها ، بعد مدة تزيد على السنة من انتهاء الحرب .

ولإظهار مدى الضلال الذي تنطوي عليه مزاعم طونزند ، أرى من المفيد أن أدون فيما يلي ، صفحة من صفحات قرار الصلح ، حسب ما كنت اطلعت عليها في حينها ، بسبب اتصالي الوثيق بجمعية الصحافة العثمانية إذ ذاك :

عندما جاءت الاخبار المتعلقة بانكسار الجبهة البلغارية واستسلام بلغاريا للحلفاء ، لم تقدر الجرائد التركية خطورة هذه الحوادث ، بل اعتبرتها فأل خير لأنها ظنت بأن ألمانيا ستجرد على الفور حملة عسكرية لاكتساح بلغاريا ، كما كانت فعلت برومانيا ، عندما دخلت الحرب ضدها . هذا ، وكانت تركيا تطالب باجراء بعض التعديلات في الحدود والأوضاع التي كانت خلفتها الحرب البلقانية ، ولكن ألمانيا كانت تسعى على الدوام ، لتوقيف تيار هذه المطالبات ، مراعاة لعواطف البلغار . وعندما استسلمت بلغاريا للحلفاء ، صار بعض الساسة والمحررين يقولون ويكتبون . « هذا خير لنا . . لأن ألمانيا ، لا بد أن تستولي على بلغاريا جزاء خيانتها ، وتعدل عن سياسة الملاينة والملاطفة التي كانت تسير عليها معها ، وذلك سيفسح أمامنا مجالاً واسعاً لتحقيق أمانينا القومية ، وتعديل حدودنا الأوروبية » .

ولذلك صدرت الجرائد بمقالات تظهر سرورها من ثبوت خيانة البلغار ، وتدعو الألمان إلى معاقبتها بسرعة ، وتتوسع في شرح ما تطلبه تركيا من تعديلات وتعويضات في حدودها الأوروبية .

ولكن . . . طلعت باشا ، دعا رؤساء تحرير الصحف للاجتماع به في الباب العالي . وذهب الصحفيون إلى الاجتماع ، وهم في غاية التفاؤل من سير الأمور . وعندما دخلوا على الباشا ، وجدوا هناك سفيري ألمانيا والنمسا ، مما زادهم تفاؤلاً ، وجعلهم يتوقعون بشارة عظمى .

غير أن طلعت باشا فاجأهم بقوله : لم يبق لنا أي أمل في النصر . فأصبح من الواجب علينا أن نسعى للصلح ، بأعظم ما يمكن من السرعة . ولذلك أطلب إليكم ، أن تغيروا لهجة كتاباتكم ، وأن تعدوا الرأي العام بالتدريج إلى هذا الاتجاه الأليم .

وجم الصحفيون من هذا البيان الذي وقع عليهم وقع الصاعقة . ثم اتجه احدهم إلى سفير ألمانيا قائلاً :

- إننا كنا نعتقد بأن ألمانيا ستسارع إلى اكتساح بلغاريا ، جزاء خيانتها ولكن السفير ، أجاب بلهجة قاطعة : أصرح لكم مع الأسف الشديد ، بأنه لم يعد في استطاعتنا أن نرسل إلى الجبهة

الشرقية ، حتى ولا كتيبة واحدة . ثم أضاف إلى ذلك ، بمرارة : نحن أيضاً قررنا ترك القتال وطلب الصلح .

عندئذ ، اشترك سفير النمسا أيضاً في الكلام ، وأيدّ زميله الألماني ، قائلاً : نحن أيضاً شرعنا في اتخاذ الاجراءات اللازمة لطلب الصلح .

وخرج الصحفيون من هذا الاجتماع ، مدهوشين وواجمين . . لأن هذه التصريحات الأليمة ما كانت تخطر ببال أحد منهم .

وبعد بضعة أيام من هذا الاجتماع ، قدمت وزارة طلعت باشا استقالتها ، وتألفت وزارة عزة باشا ، بغية إنهاء الحرب وعقد الهدنة .

. وكان أول الأمور التي فكرت فيها الوزارة الجديدة ـ بالاتفاق مع رجال الوزارة المستقيلة ـ الاتصال مع قائد الأسطول البريطاني المرابط في مداخل الدردنيل . كما كان من أول الوسائل التي فكرت فيها لضمان هذا الاتصال هو توسيط الجنرال طونزند .

ويظهر أن عزة باشا عندما كلم الجنرال طونزند استطاع أن يخفي عنه كل ما كان يساوره من قلق ، ولم يتركه يحس بشيء من حراجة الموقف وأوضاع الجيش ، وسير الحرب . . . بل تظاهر له بأنه وافقه على رأيه ، وقرر أن يعمل بنصائحه .

وذهب طونزند إلى مودروس ، مخدوعاً بأحاديث هذه الملاقاة . . . وكتب ما كتبه مؤخراً ، تحت تأثير هذه الخدعة التي انطلت عليه . . وبقيت منطلية عليه . .

ولكن يجدر بنا أن نتساءل : كيف لم ينتبه طونزند إلى هذه الخدعة ، بعد ما عاد إلى بلاده ، واطلع على حقيقة ما جرى في مختلف ساحات الحروب ، خلال الشهر الأخير ؟

أظن أنه ليس من الصعب اظهار العوامل النفسية التي لعبت دورها في هذا الأمر : لا شك في أن السرور العظيم الذي كان ملأ قلب طونزند من جراء توهمه بأنه قصّر الحرب فعلاً . . وأحاسيس الفخر والمباهاة التي عمرت نفسه تحت تأثير هذا الوهم . . كانت حالت بينه وبين فهم الحقائق على أوجهها الصحيحة .

وهنا يجدر بنا أن نتذكر الكلمة الحكيمة التي كان كتبها ابن خلدون في مقدمته المشهورة : . . أن النفس « إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر ، أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه . وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة ، قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة . وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص . فتقع في قبول الكذب ونقله » .

روايات حول أعلام بعض الدول العربية

- ١ -

قرأت يوماً في كراسات تلميذ مدرسة بحثاً عن العلم العراقي جاء فيه :

« ان النجمتين المرسومتين على الرقعة الحمراء من العلم ، ترمزان إلى دجلة والفرات » .

استغربت هذه الرواية ، لعلمي بأنها تخالف الحقيقة مخالفة كلية . فرأيت أن أبحث عما يروى في هذا الشأن في سائر المدارس وفي مختلف بيئات المثقفين . ودهشت دهشة كبيرة ، حينما علمت بأن هذه الرواية منتشرة في جميع أنحاء العراق ، وفي أكثر محافل المثقفين . .

وأما حقيقة الأمر في منشأ هاتين النجمتين ، فتتبين من درس تطور الاعلام التي استحدثت بعد الثورة العربية :

لقد رأى رجال الثورة العربية ـ التي بدأت من الحجاز ـ أن يجمعوا في العلم الألوان العربية الأربعة ، وقرروا أن يكون الأخضر والأبيض والأسود ثلاث مناطق أفقية متوازية ، وأن يكون اللون الأحمر مثلثاً يقطع هذه المستطيلات الأفقية .

وهذا العلم صار العلم الرسمي للدولة العربية الهاشمية ـ أي الدولة الحجازية ـ التي اعترف بها الحلفاء خلال الحرب ، كما أنه صار علم الثورة العام .

ودخل جيش الثورة إلى سوريا ، وتغلغل فيها ، حاملاً العلم المذكور . وتأسست الحكومة العسكرية أيضاً تحت ظل هذا العلم .

ولكن ، عندما رؤي أنه لا بد من تكوين دولة سورية منفصلة عن الحجاز ـ في

٨ آذار سنة ١٩٢٠ ـ تقرر أن تحتفظ الدولة السورية بعلم الثورة ، على أن تضيف إليه نجمة بيضاء ، تتوسط الرقعة الحمراء ، وذلك لتمييزه عن علم الحجاز ، من غير أن يختلف عنه اختلافاً جوهرياً .

وكان تقرر أن يعلن ، استقلال العراق أيضاً ـ في الحفلة التي يعلن فيها استقلال سوريا ، ورؤي أن يكون علم الدولة العراقية أيضاً شبيهاً بعلم الثورة ، على أن يضاف إليه نجمتان ، لتمييزة عن دولتي الحجاز وسوريا ، وذلك باعتباره الدولة العربية الثانية التي أنشئت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

هذا هو المنشأ الأصلي والسبب الحقيقي للنجمتين اللتين تزينان العلم العراقي .

والعلم الذي تقرر بهذه الصورة في دمشق ، انتشر في كل الجهات خلال الثورة العراقية ، ثم أصبح علم الدولة الوطنية العراقية عندما تأسست بصورة فعلية .

وأما منشأ الرواية التي ذكرتها آنفاً ، فلا بد أن يكون ما يلي :

أخذ البعض يتساءلون ـ بطبيعة الحال ـ عن حكمة وجود النجمتين على العلم العراقي. ولم يتردد ، بعض العقلاء في تأويل ذلك بقوة العقل والمنطق ، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والدرس لمعرفة حقيقة الأمر . وتوصل إلى فكرة ربط النجمتين بدجلة والفرات . وتولدت من جراء ذلك هذه الرواية ، التي تخالف الحقيقة والواقع ، وإن ظهرت بمظهر المعقول والمقبول .

والغريب في الأمر ، أن هذه الرواية نشأت وانتشرت ، قبل أن يمضي على مولد العلم عقد واحد من السنين . .

ـ ٢ ـ

عندما حدث في سوريا الانقلاب العسكري الأول ، تحت زعامة حسني الزعيم ، تولدت في بعض البيئات ، رغبة في تغيير العلم السوري .

علمت ذلك من أحد السوريين المهتمين بالقضية ، وحينما قلت له « أنا لا أرى أي مبرر كان لتغيير العلم » أجابني متسائلاً : « لكن ما معنى النجمات الثلاث ؟ يقال أن الفرنسيين وضعوها ليرمزوا بها إلى الدويلات الثلاث ـ سوريا وجبل الدروز والعلويين ـ فهل يجوز لنا أن نحتفظ بهذه الرموز ، بعد أن زالت تلك الدويلات ، وأصبحت سوريا دولة موحدة ؟ » .

دهشت لهذه الرواية أيضاً ، لعلمي بمخالفتها للحقيقة مخالفة كلية .

وأما السبب الحقيقي لهذه النجمات الثلاث ، فهو ما يلي :

من المعلوم أن الحكومة العربية السورية ، كانت اختارت لنفسها سنة ١٩٢٠ ، علماً يحتفظ بشكل علم الثورة ، ويمتاز عنها بنجمة واحدة . إلا أن الفرنسيين ، عندما استولوا على سوريا حملوا الحكومة على اصدار بيان بالغاء العلم المذكور « لأن الدول لم تعترف بالحكومة السورية ، التي كانت اختارت ذلك العلم » . والعودة إلى استعمال العلم الحجازي ، « لأنه علم دولة صديقة » ، وذلك إلى « حين تقرير علم جديد » .

ثم قسم الفرنسيون البلاد السورية ألى أربع دويلات ، ووضعوا لكل واحدة منها علماً خاصاً ، لا يمت إلى علم الثورة بصلة ، لا من حيث شكله ولا من حيث ألوانه ، وأضافوا إلى زاوية كل واحد منها علماً فرنسياً مصغراً .

ولكن بعد ذلك ، عندما الغيت الدويلات المذكورة وتألفت الحكومة السورية المتحدة ، قرر المجلس التأسيسي الغاء جميع تلك الاعلام ، والعودة إلى الألوان العربية الأربعة . إلا أنه لم يجد إمكاناً لإعادة العلم السوري الأول ذي النجمة الواحدة ، لأن العلم المذكور ظل يستعمل في شرق الأردن الذي انفصل عن سوريا أثر استيلاء الفرنسيين عليها ، ثم صار العلم الرسمي لإمارة شرق الأردن .

ولذلك اضطر السوريون إلى اختيار ثلاث نجمات ، ما دام النجمة الواحدة صارت من خصائص الأردن ، والنجمتان من خصائص العراق .

هذه ، هي حقيقة الأمر .

ويظهر أنه عندما نبتت فكرة تغيير العلم في بعض الأدمغة ، رأوا أن يضعفوا مكانة العلم القائم ، باختلاق هذه الأسطورة : فراحوا يشيعون أن النجمات الثلاث تدل على الدويلات الثلاث !

حول نزيب ونصيبين

من أغرب الأمور التي لاحظتها في بعض الكتب والجرائد ، هـو الخلط الشائـع بين نزيب ونصيبين :

هناك كتب تقول أن مدينة نزيب التي انتصر في جوارها إبراهيم باشا الكبير عـلى الجيش العثماني انتصاره الحاسم المشهور ، هي مدينة نصيبـين الحاليـة . وكتب أخرى تقول بعكس ذلك أن نزيب هي غير نصيبين . والمناقشة حول هذا الموضـوع تنتقل إلى الجرائد ، وتنشـر فيها مقـالات عديـدة ، بعضها يؤيـد الرأي الأول ، وبعضهـا يلتزم الرأي الثاني . . كل ذلك من غـير أن تصل المنـاقشات إلى نتيجـة حاسمـة حول هـذه المسألة التاريخية .

في حين أن نظرة تدقيق بسيطة ، إلى الكتب والخرائط التركية أو الخرائط المفصلة الغربية ، تكفي لحسم المسألة ، بصورة ، لا تترك اي مجال للشك والتردد .

ذلك لأنه يوجد هناك مدينة تسمى نصيبين ، واخرى تسمى نزيب . وهاتان المدينتان بعيدتان بعضهما عن بعض بعداً كبيراً .

فإن نصيبين تقع على الحدود السورية التركية تماماً ، فهناك نصيبين تركية ، ونصيبين سورية ، في طرفي محطة واحدة .

وأما نزيب ، فتقع داخل الاراضي التركية ، بعيداً عن الحدود السورية .

ونصيبين التي في تركيا تتبع ولاية ماردين ، في حين أن نزيب تتبع ولاية عينتاب . وتمتد بين الولايتين المذكورتين ولاية أورفة الكبيرة ، والمسافة بين المدينتين المذكورتين تزيد ، لذلك ، على ثلاث درجات ونصف من درجات الطول .

فليس هناك اي حجة معقولة ، تبرر القول بأن المعركة المشهورة قامت في نصيبين لأنه ليس هناك اي سبب معقول يؤدي إلى تحريف كلمة نصيبين إلى نزيب ، او بعكس ذلك كلمة نزيب إلى نصيبين .

وفضلاً عن ذلك كله ، أن قليلاً من التفكير امام الخريطة يكفي لنفي احتمال وقوع الحرب في نصيبين نفياً باتاً :

لأن نصيبين تقع في القرب من حدود العراق الحالية ، في بداية المنطقة المعروفة باسم « منقار البط » ، وهي قريبة من ماردين ، وبعيدة عن الطرق التي تصل بر الشام بهضبة الأناضول . فليس من المعقول ابداً ، أن تكون تلك المنطقة النائية محل احتشاد ولا محل اصطدام للجيوش المصرية والجيوش العثمانية .

وأما نزيب ، فهي تقع بالقرب من كليس وعينتاب ، ولا تبعد عن المجازات التي تصل سوريا بالأناضول .

فليس هناك اي مبرر معقول ، للتشكك في محل الواقعة ، نظراً للاسم المعلوم من جهة ، ونظراً لمتقضيات الحركات العسكرية من جهة اخرى .

فيجدر بنا أن نتساءل : من اين اتى هذا التشكك ، في هذه الحقيقة الظاهرة ؟ كيف تولدت اسطورة نصيبين ؟

أنا لا اعرف ذلك بالضبط ، لأنني لم اتتبع واستعرض كل ما كتب في هذا الموضوع في تواريخ مختلفة .

ومع هذا ، اعتقد بأنني لا اتباعد عن الحقيقة كثيراً ، إذا قدمت الفرضية التالية :

مدينة نصيبين مدينة مشهورة ، تذكرها كثيراً كتب التاريخ والجغرافيا . كما أن وجودها على الحدود الفاصلة بين سوريا وتركيا ، يجعل موقعها اكثر بروزاً للعيان . في حين أن نزيب مدينة صغيرة ، لم تعرف الا بسبب الحرب التي نشبت بجوارها ، كما أنها تقع داخل الاراضي التركية ، ولذلك لا تذكر في الكثير من الخرائط الاعتيادية .

ويلوح لي : أن احد كتاب التاريخ راجع خريطة لأجل أن يعرف موقع المعركة المشهورة ، فلم يستطع أن يجد اسم نزيب . ولكنه وجد اسم نصيبين ولاحظ مشابهة القسم الاول من هذه الكلمة إلى لفظة نزيب في الكتابات الغربية ، فقال في نفسه هذه يجب أن تكون نزيب القديمة . وكتب ما كتبه تحت تأثير هذا الوهم . ثم نقل عنه ذلك كثيرون ممن تعودوا النقل دون درس وتثبت ، وانتشرت الرواية ،وبلغت حد التوتر .

وبعد انتشارها اصبح القائلون بها ينزعون إلى الدفاع عنها ـ بقوة الاستمرار ـ دون أن يلتفتوا كثيراً إلى قوة الدلائل التي تبدى ضدها . واصبحت بذلك هذه القضية من القضايا التي يحتدم حولها الجدل والنقاش على الرغم من تفاهتها الاصلية .

وهذا في نظري من ابرز الامثلة على الحقيقة التالية :

إن الاغلاط في المعلومات التاريخية ، تنتشر بسهولة كبيرة ، ولكنها ، لا يمكن أن تصحح ـ بعد انتشارها ـ الا بصعوبة عظيمة ، وجهود شاقة .

الغرور والخيلاء في كتابة التاريخ

إن نزعة التفاخر والمباهات تسيطر على بعض النفوس ، وتدفعها نحو مهاوي الزهو والخيلاء . . .

والاشخاص الذين يستسلمون إلى دواعي هذه النزعة ، لا يتركون فرصة تمر دون أن ينتهزوها للتحدث عن الاعمال التي كانوا قاموا بها في وقت من الاوقات . . . وكثيراً ما يتبجحون ببعض الاعمال التي لم يكونوا قد اشتركوا فيها ـ في حقيقة الامر ـ الا اشتراكاً ضئيلا ، حتى أنهم لا يحجمون ـ في بعض الاحيان ـ عن انتحال شرف بعض الاعمال التي لم يكن لهم فيها أي يد كانت . . .

إن آثار هذه النزعة تتجلى في ساحة الحياة الفردية وحدها ، بل كثيراً ما تتعدى ذلك إلى الحياة الاجتماعية ، فتنصبّ على المفاخر العائلية والامجاد القومية ايضاً .

بعض الكتاب الفرنسيين كثيراً ما يتبجحون بالخدمات التي قدمتها الأمة الفرنسية للبشرية ، ويتباهون بذلك على جميع الأمم بدون استثناء .

وقد عبر مؤرخهم الشهير « ميشله / Michelet » عن مزاعم هؤلاء في هذا المضمار احسن تعبير ، حين كتب كلمته المشهورة :

« لو أن جميع الأمم دعيت إلى عرض وتكديس كل ما بذلته من الجهود والأموال والدماء . . . في سبيل مصلحة العالم ، دون أن ترعى مصلحتها هي ، لتكوّن من مآثر الأمة الفرنسية هرماً شاهقاً ، ترتفع قمته إلى السماء . . واما تضحيات الأمم الاخرى ، فلا يتكون منها إلا كومة ، تصل الى ركبة طفل صغير . . » .

إن هذا الزهو الفرنسي وجد لنفسه مرتعاً خصباً جداً في الشرق العربي . وأدى إلى تكوين اسطورتين تاريخيتين : احداهما في وادي النيل والثانية في جبل لبنان .

الأسطورة الاولى ، هي النظرية القائلة بأن نهضة مصر بدأت بفضل حملة نابليون . (وقد ناقشنا ذلك في فصل سابق) .

والاسطورة الثانية ، هي النظرية القائلة بأن نهضة لبنان قامت بفضل تدخل فرنسا في شؤون تلك الديار ، بعد وقائع سنة ١٨٦٠ (وقد ناقشنا ذلك في فصل سابق أيضاً) .

البحث عن أثر سومري عليه جمل ذو سنامين

زارني يوماً ـ في ادارة الآثار القديمة ببغداد ـ نوري باشا ، احد قواد الاتراك المشهورين ، وقال لي :

سمعت أنه يوجد عندكم أثر سومري عليه جمل ذو سنامين . يهمني أن ارى الاثر المذكور ، وأن أحصل على صورته الشمسية .

إن نوري باشا كان أخاً لأنور باشا المشهور ، وكان قد رافقه في الحروب التي خاض غمارها في تركستان ، بعد أن غادر البلاد العثمانية عقب هدنة ١٩١٨ .

ويظهر أنه كان قد تولع خلال هذه المدة بالتاريخ التركي ـ اسوة بما فعله عدد كبير من مثقفي الاتراك ـ ولذلك جاءني يبحث عن الاثر السومري الذي يحمل صورة جمل ذي سنامين .

وعندما اجبته بأنه لا يوجد لدينا أثر من هذا القبيل ، قال : ـ اني علمت ذلك من عالم مجري مشهور ، وهو كان اكد لي وجود الاثر هنا . .

ثم شرَح لي الاسباب التي تحمله على الاهتمام بذلك الاثر :

ـ من المعلوم أن الجمل ذا السنامين من خصائص تركستان . ووجود هذا الاثر السومري يؤيد رأي القائلين بأن السومريين اتوا من تركستان .

كررت عليه جوابي الاول . ومع هذا استدعيت الخبراء الذين يشتغلون في الدائرة ، لاسألهم عن ذلك بحضوره ، وعندما اكدوا هم ايضاً عدم وجود اي أثر من هذا القبيل ، استغرب الامر استغراباً كبيراً ، وكرر لي بأنه سمع ذلك من عالم مجري كبير .

ومع هذا رأيت أن اترك هذه المسألة جانباً ، ودعوته إلى زيارة المتحف ليطلع على اهم الآثار المعروضة فيه . .

وعندما نزلنا إلى احدى القاعات الارضية ، انبر يصيح بغتة : ـ ها هو ، الجمل ذو السنامين . .

ولكني لم استطع أن امنع نفسي من الضحك الا بمشقة كبيرة ، لأننا كنا دخلنا قاعة الآثار الآشورية ، والاثر الذي رأى عليه الجمل كان نموذج « مسلة شلمانصر » المشهورة .

وكانت مسلة شلمانصر اثراً آشورياً لا سومرياً ، وكان تاريخها احدث من تاريخ السومريين بمدة لا تقل عن الف عام على اقل تقدير . . .

وفضلاً عن ذلك كله ، كانت المسلة تمثل في حقولها السبعة ، الهدايا والجزيات التي قدمت إلى الملك العظيم ، من مختلف اقطار العالم المعلوم في ذلك التاريخ .

واما سبب فرح الزائر من رؤية المسلة المذكورة ، فكان ظاهراً كل الظهور : انه لم يأت إلى المتحف ليشاهد ما هو موجود فيه ، انما أتى ليبحث عما يوافق رغباته . . وما يشبع غروره القومي .

ولكن ، كم وكم من الكتاب والمؤرخين يعملون مثله ، وهم لا يشعرون !

دبيودور الصقلي في قصر الحمراء

قرأت يوماً في مجلة اسبوعية ، وصفاً لمدينة غرناطة وقصر الحمراء - « آخر حصون الاندلس » - واصطدمت فيها بهذه العبارة الغريبة :

« قال المؤرخ دبيودور الصقلي حين زار قصر الحمراء : لو كنت مكان أبي عبد الله ، لما تركت قصر الحمراء ، ولو على أسنة الرماح . . . ان الخروج من الجنة ، والخروج من الحمراء سواء » .

اصطدمت بهذه العبارة ، لأني اعلم العلم اليقين أن دبيودور الصقلي مات قبل بناء قصر الحمراء بنحو عشرة قرون ! . . فكل ما يعزى اليه من كلام عن قصر الحمراء ، يكون من الوجهة التاريخية من نوع التخليط المحض .

لا شك في أن كاتب المقالة لم يقرأ دبيودور الصقلي . ويظهر أنه كان قرأ تلك العبارة في كتاب ما ، ولكنه لم يتذكر كاتبها جيداً ، وعزاها إلى دبيودور الصقلي ، الذي كان سمع به أو قرأ عنه في مكان ما . . . دون أن ينتبه إلى استحالة ذلك ، بسبب الفرق الزماني الهائل الذي يفصل بين عصر دبيودور الصقلي وعهد قصر الحمراء .

ولكني ، اتساءل : كم من القراء انتبهوا إلى هذا الغلط الفظيع ؟ وكم منهم اعتمدوا على ما جاء في المقالة ، واعتبروا ذلك حقيقة ثابتة . . . وربما راحوا يرددونها وينقلونها لاصحابهم في مختلف المجالس ، وفي مختلف المناسبات !

وهذا ، وكم وكم من الجرائد والمجلات تنشر امثال هذه الاغلاط ، التي تصدر احياناً من اقلام الكتاب الذين كثيراً ما ينحرفون في تيار في الاستعجال والارتجال ، ويكتبون كثيراً من الامور عفو الخاطر ، دون أن يجدوا متسعاً من الوقت للتثبت من صحتها ! . .

اسطورة الانسان الغزال

قبل بضع سنوات ، تكونت في سوريا اسطورة الانسان الغزال :

سيارة تسير في الصحراء ، عثرت على آدمي متوحش ، يركض بسرعة خارقة ، مثل الغزال ، والسيارة ، بعد جهود شاقة ، استطاعت أن تعتقله . ونقلته إلى دمشق ، وسلمته إلى دائرة الصحة والادارة المذكورة ارسلته إلى مستشفى الامراض العقلية .

وعلى أثر ذلك اخذ ينتشر بين الناس وعلى صفحات الجرائد . . . كثير من الاخبار ، والروايات والقصص عن هذا الانسان الغزال . وصارت هذه الروايات تزداد وتتوسع وتتعقد وتتضاخم يوماً عن يوم .

كنت إذ ذاك في دمشق ، وذهبت إلى المستشفى القائم في احدى ضواحي العاصمة ، لملاحظة احوال هذا الانسان الغزال . الا أني بعد قليل من الملاحظة تأكدت من أنه انسان عادي . نشأ نشأة عادية . ولكنه كان أبكم ، وضلّ الطريق عندما كان يسير في الصحراء . وفزع من مطاردة السيارة له ، واخذ يجري باقصى ما يمكنه من السرعة . والتحقيقات التي تمت في شأنه فيما بعد ، على يد الاطباء من ناحية ، ورجال الدرك من ناحية أخرى . . لم تترك مجالاً للشك في هذه القضية .

إلا أنه خلال هذه المدة ، كانت الجرائد كتبت عن هذا الانسان الغزال كثيراً من الاخبار والروايات والقصص ، مما حمل شركات الاخبار العالمية ايضاً على الاهتمام بأمره ، والكتابة عنه مستندة إلى تلك الاخبار والروايات .

حتى أن جريدة كبيرة ، زعمت بأنها ارسلت احد محرريها لوصف الانسان الغزال ، ونشرت عنه « تحقيقاً صحفياً » مقروناً بصورة شمسية مأخوذة في وسط الصحراء . . .

هذا ، ومما يجدر بالذكر ، أن ظهور نتائج التحقيقات الرسمية ، لم يقض على هذه الروايات والاشاعات على الفور . بل بقيت قصص الانسان الغزال تتردد على الالسن مدة من الزمن .

ولكني دهشت يوماً دهشة كبيرة ، عندما كنت اقرأ كتاباً حديثاً في التربية ، ألفه باللغة الاسبانية احد علماء الاسبان ، وترجمه إلى الفرنسية احد علماء فرنسا ، إذ وجدت في هذا الكتاب العلمي ، فقرة عن الانسان الغزال الذي اكتشف في بادية الشام !

الاعمال القومية لساطع الحصري

طبعة خاصة يصدرها
مركز دراسات الوحدة العربية

١ ـ آراء واحاديث في الوطنية والقومية
٢ ـ أحاديث في التربية والاجتماع
٣ ـ صفحات من الماضي القريب
٤ ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها
٥ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية
٦ ـ آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة
٧ ـ آراء واحاديث في القومية العربية
٨ ـ آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع
٩ ـ العروبة اولاً!
١٠ ـ دفاع عن العروبة
١١ ـ في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية
١٢ ـ حول الوحدة الثقافية العربية
١٣ ـ ما هي القومية
١٤ ـ حول القومية العربية
١٥ ـ الاقليمية جذورها وبذورها
١٦ ـ ثقافتنا في جامعة الدول العربية
١٧ ـ ابحاث مختارة في القومية العربية

ابو خلدون ساطع الحصري

- ولد في صنعاء اليمن عام ١٨٧٩. وهو من عائلة عربية اصلها من الحجاز وفدمت الى حلب في القرن التاسع الهجري
- عمل في السلك الاداري العثماني في البلقان حيث درس على الطبيعة نشوء القوميات البلقانية قبل الحرب العالمية الاولى
- التحق بالملك فيصل الاول واصبح وزيراً للمعارف في الحكم الفيصلي بدمشق
- فاوض الجنرال غورو قبيل معركة ميسلون
- خرج من سوريا مع الملك فيصل الاول، والتحق به بعد ذلك في العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافه
- جُرد من جنسيته العراقية وأُخرج من العراق عام ١٩٤١، وذلك لتأييده للجانب العراقي في الحرب العراقية ـ البريطانية
- عمل مستشاراً للجنة الثقافية في جامعة الدول العربية
- أسس معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام ١٩٥٣ واصبح مديراً له، والذي سمي فيما بعد معهد البحوث والدراسات العربية
- توفي في بغداد عام ١٩٦٨ ودفن في مقبرة الامام الاعظم.

الطبعة الثانية

او ما يعادلها

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » شارع ليون
ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤
برقياً: « مرعربي »
تلكس: ٢٣١١٤ ماراب